صفحات من
الحوار الثقافى
الروسى المصرى
جيناديات 2
الدكتور
جينادى جارياتشكين

توزيع : منشأة المعارف ، جلال حزى وشركاه

٤٤شارع سعد زغلول – محطة الرمل – الاسكندرية – ت/ف ٤٨٧٣٣٠٣/٤٨٥٣٠٥٥

٣٢ شارع دكتور مصطفى مشرفة – سوتير – الاسكندرية ت/٤٨٤٣٦٦٢/٤٨٥٤٣٣٨

الادارة: ٢٤شارع ابراهيم سيد احمد – محرم بك – الاسكندرية ت/ف ٣٩٢٢١٦٤

EMAIL: monchaa@maktoob.com



اسم الكتاب : جينـاديـات

اسم المؤلف : جينادى جاريا تشكين

رقم الايداع : ٢٠٠٤/٨٠٠٤

الترقيم الدولى: 1 – 1285 – 03 – 977

التجهيزات الفنية:

كتابة كمبيوتر : سلطان للكمبيوتر ت:٥٤٤٩٣٠٥

تصميم غلاف : سلطان للكمبيوتر ت:٥٤٤٩٣٠٥

طبـاعة : مطبعة عصام جابر

# صفحات من الحوار الثقافي
# الروسي المصري

# جيناديات (2)

٢٠٠٤

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه

# المحتـــوى

| الموضـــوع | صفحة |
| --- | --- |

● **مقدمـة:**

## جيناديات «٢»

باديء ذي بدء لا أود تكرار ما أوردته في مؤلفي جيناديات ١ والذي سردت فيه بالتفصيل سيرتي الذاتية بجوانبها الشخصية والأكاديمية والاجتماعية على السواء.

وأضع أمام القراء الأعزاء الجزء الثاني من مؤلفي «جيناديات» كما وعدت والذي يشتمل على محاضراتي التي ألقيتها في أنشطة مختلفة نظمها المركز الثقافي للعلوم والثقافة بالإسكندرية فضلاً عن مقالاتي وإسهاماتي الإعلامية التي تعتبر جزءاً لا يتجزء من اهتمامنا بتغطية كل جوانب الحوار الثقافي الروسي - المصري الذي تنامى وإزدهر بشكل ملحوظ ومطرد في الآونة الأخيرة وليس أدل على ذلك أن كتابنا هذا يعتبر الكتاب رقم ٩ عن تاريخ مصر والعالم العربي في العصرين المعاصر والحديث، الأمر الذي يحفزني ويشجعني على الاستمرار في مواصلة نشر سلسلة الـ «جيناديات»، والتي تعكس إصراراً من جانبنا على تفعيل الحوار الثقافي الروسي - المصري على كل الأصعدة وكافة المستويات سواء على مستوى النخبة المثقفة أو عامة الشعب فرسالتنا الثقافية يتحتم أن تصل إلى قلوب عقول الناس كافة.

ومن هذا المنطلق يجئ الفصل الثاني من هذا المؤلف ليبرز فترة تمتد ما بين أعوام 1969 - 1971 والتي أعتبرها من أهم المحطات التي شكلت وصاغت تفكيري وإبداعي وقادتني نحو التخصص في التاريخ المصري والعربي وما أعنيه هو فترة عملي في مصر مترجمًا والتي لا أزال أحتفظ في ذاكرتي ومخيلتي بذكرياتي الجميلة والزاخرة عنها وها هي تخرج إلى النور في «جيناديات ٢ »

أتمنى عزيزي القارئ أن تحوز على استحسانك كي يتسنى الاستمرار في كتابة الـ «جيناديات».

**أ.د/ جينادي جارياتشكين**

**جينادبات«1»**

يعتبر هذا الكتاب بمثابة نتاج عملي لثمار حياتي الواعية كلها بوصفي من المستشرقين الذين كرسو جهودهم على مدار أربعين عامًا متصلة.

ويشمل هذا الكتاب على وقائع وأحداث تاريخية وثقافية بمفهوميهما الواسعين... حيث عاصرت العديد من تلك الوقائع وكنت في عمر الزهور تلميذاً في المدرسة والتي تمت إعادة تقييمها مراراً في عمري البالغ.

وكان الحافز لها إعادة التقييم للواقع العاصف في الاتحاد السوفيتي وما بعد، فالمعرفة التي اكتسبتها في الماضي تطلبت إعادة التقييم أيضًا لكنها لا يمكن تناسبها أو نسيانها وتجاهلها.

لا يمكن المرء منا أن يرفض ويتغافل عن طفولته ومرحلتها ولا يمكنه خيانة وطنه كما لا يمكن اختصار مراحل التاريخ الذي لن يغفر للجاهلين حتى ولو بجزء أو حقبة زمنية والأخرى تعتبر السنوات والأحداث التي عشناها ومررنا بها جزءاً لا يتجزأ من واقعنا وتواجدنا الشخصي الذي يعتبر جزءاً مني.

وتمر أربعون سنة في سبتمبر 2003 على التحاقي بمعهد اللغات الشرقية (معهد بلدان آسيا وأفريقيا حاليًا) التابع لأكبر وأقدم منشأة تعليمية روسية بجامعة موسكو الحكومية المعروفة باسم «ميخائيل فاسيليفتش لومونوسوف» وكان تخصصي بها يركز على تاريخ البلدان العربية واللغة العربية الأمر الذي دفعني لجمع بيانات تتعلق بالعالم العربي بصفة عامة وتلك التي تتعلق بمصر والمصريين بصفة خاصة.

أما أبحاثي العلمية فلقد تركزت على مصر فالثابت أن كل طالب يتحتم عليه كتابة رسالته العلمية السنوية في موضوع تخصصه وإنها لمصادفة فريدة من نوعها أن يقع اختياري على مصر من ٢٣ بلد عربي ونالت مني اهتمامًا بالغًا بل أنها أصبحت تستحوذ على أبحاثي طيلة حياتي.

إن جزءاً لا بأس به من كتبي ومقالاتي تركز على دول شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا ولبنان والأردن لكوني أستاذاً للتاريخ العربي الحديث والمعاصر. بيد أنني لم أغفل شغفي وولعي بمصر التي تشغل مكان الصدارة في عملي كمستشرق ومستعرب.

وجدير بالذكر أن بعثتي اللغوية التي قمت بها إلى مصر في الفترة من 1967 وحتى 1968 خلال السنة الدراسية في ذلك الوقت الذي كان رائعًا لأننا كنا خارج سيطرة المنزل بعيداً عن الإلتزامات الأسرية ولأول مرة في كنف البلاد المحبوبة كمجموعة من المستشرقين الشبان من فرنسا ويوغوسلافيا وفيتنام وبولندا وسوريا والأردن فضلاً عن العديد من البلدان الأفريقية آثار كل ذلك انطباعًا لا ينسى كم كانت طريقة تلك الرحلات والأمسيات التي تم تنظيمها بمعرفة «نادي الوافدين» التابع لإدارة الوافدين بوزارة التعليم العالي في الجمهورية العربية المتحدة حينئذ... وكما أتذكر أن السيد/ عبد المنعم دياب كان مديراً لنادي الوافدين بالدقي.

ولم تغب عن ذاكرتي رحلة الوافدين إلى أسوان في الأسبوع الأول من عام 1968 حيث بلغ عدد المشاركين فيها نحو 50 فرداً فكنا نتسامر ونغني ونرنقص وتزامنت رحلتنا إلى أسوان مع زيارة السيد/ مازوروف النائب الأول لرئيس الوزراء السوفيتي ما كان له عظيم الأثر على حسن استقبال 15 طالبًا سوفيتيًا من موسكو وطشقند إذ حفظنا عن ظهر قلب كلمات للتحية نكررها جميعًا ومع اقتراب موكب السيارات المرافق للضيف الروسي مازوروف رددنا صيحات عالية لتحيته كالآتي:

«باسم الطلاب السوفييت تحية، تحية، تحية» فلاقت هتافات خمسين وافداً استحسانًا كبيراً من الضيف الروسي ومرافقيه الذين جاءوا إلى أسوان لحضور حفل التشغيل الرسمي للسد العالي وكانت هتافاتنا مثار استغراب الجميع وفي هذه الأيام الخالدة شاهدنا في أسوان حفلة راقصة للجوقة النوبية التي قدمت معزوفات لأغنية عبد الحليم حافظ «أسوان بلدي وطني الغالي ... فيها بنينا السد العالي» ولا أزال احتفظ في ذاكرتي طيلة حياتي هذه الأغنية الوطنية الشهيرة وتركت أثراً

عميقًا في نفسي تلك الأمسيات الأدبية والموسيقية بنادي الوافدين والزيارات الجماعية للمسارح ودور السينما والرحلات المشتركة للمعالم الأثرية والسياحية والتعارف على المصريين البسطاء واللقاءات العديدة من المؤرخين والأدباء والصحفيين المحليين فضلاً عن مواظبتنا على حضور المحاضرات والندوات التي نظمتها كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، وكانت فرصة طيبة لتبادل الآراء والأفكار مع أساتذتها الذين ارتبط معهم بعلاقات وثيقة استمرت مع دوران الزمن حتى الآن ومنهم على سبيل المثال الدكاترة: ماهر ومصطفى سلام، نادية سلطان، مكارم الغمري ومحمد عباس وغيرهم.

وخلال بعثتي العلمية والتعليمية أثناء عشرة أشهر عكفت على أن أنهل من المراجع والمصادر بهدف كتابة ديلوم التخرج بعنوان «الطبقة العاملة في مصر خلال الفترة من 1952 - 1968م» والطريف أنني أردت الاحتفاظ بهذه الكتب فوضعتها في عشرين كرتونة ذات حجم كبير ونقلتها للإسكندرية تمهيداً لإبحارنا إلى أوديسا ـ بروسيا وواجهت صعوبة حيث بذلت قصارى جهدي في إقناع كمسارية القطار الذي استقليتهت كي يسمحوا لي بنقل هذه الكمية الضخمة من الكتب إلى موسكو والتي اعتبرها أكبر ثروة معرفية حصلت عليها إذ لا أزال استعين بها حتى كأهم المصادر والمراجع التي استقي منها معلوماتي في كتابة البحوث عن تاريخ واقتصاد وآداب وثقافة مصر.

وأتوقف هنا أمام مرحلة هامة كان لها تأثير إيجابي في مسار حياتي العملية حيث قضيت أقل من عام في الاتحاد السوفيتي بعدها أنهيت الفرقة السادسة في الجامعة ناقشت خلالها دبلوم التخرج في جامعة موسكو.

وتم التحاقي بالخدمة العسكرية الإلزامية في الجيش السوفييتي وكنت محظوظًا عندما تم إيفادي لمصر للعمل مترجمًا عسكرياً مع الخبراء الروس في الجيش المصري وهنا أنهيت جامعة ثانية مع الضباط والجنود المصريين ولن أخوض في تفاصيل هذه التجربة التي سأنشرها باللغة العربية قريبًا في مؤلف مستقل لكن لا أنكر ما لها

من فائدة كبيرة لي كمؤرخ ومستعرب وأتاحت لي فرصة للتعرف عن قرب على الشعب المصري وعلى عاداته وتقاليده ومعدنه الأصيل فضلاً عن معرفة ثقافته وأصبحت أجيد اللهجة المصرية الدارجة وكذا اللغة العربية الفصحى والعامية على حد سواء والتي أفادتني كثيراً في قراءة النصوص العربية وكلماتها وجملها وبكل حركاتها حتى آخرها.

واسترعى انتباهي أن الضباط والجنود المصريين مثل بقية الشعب المصري يتمتعون بخفة الدم وروح الفكاهة التي هونت من مدة الخدمة العسكرية التي قضيتها مدة عامين برحابة صدر وسط أهلي من أبناء مصر الذي أعتز بهم حيث عدت إلي جامعة موسكو للالتحاق بالدراسات العليا وبعد الانتهاء منها تفرغت لمناقشة أطروحتي وموضوعها: «الطبقة العاملة المصرية ووضعها المادي في المرحلة الناصرية» وتطلب الأمر دراسة تاريخ العرب الحديث والمعاصر في قسم الشرقين الأوسط والأدنى في معهد بلدان آسيا وأفريقيا بجامعة موسكو الذي أصبحت أحد كوادره الأكاديمية فكنت أعمل مع طلاب وطالبات السنة الثالثة والرابعة من خلال المحاضرات والندوات والمناقشات كما أتولى الإشراف على الدراسات الخاصة بالرسائل العلمية والماجستير والدكتوراه.

وفي ذات الوقت كنت مستمراً في أبحاثي العلمية واستجبت لنصيحة بعض زملائي بضرورة مطالعة الوثائق الأرشيفية مما غير نمط عملي البحثي بشكل جذري فتعمقت في دراسة التاريخ المصري في القرنين التاسع عشر والعشرين وبصفة خاصة بدايات القرن العشرين.

وكان دافعي الرئيسي للعمل في الأرشيفات هو مواصلة واستكمال الدراسات العلمية ومناقشة دكتوراه الدولة (البروفيسور) ومن البديهي أن أقرر الكتابة عن مصر وعن الطبقة العاملة المحبوبة لي... عن تاريخها المبكر والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن رسالة أخرى تناولت فيها عدد العمال المصريين في المرحلة الناصرية وتركيبتها وأجورها الاسمية والفعلية وذلك بالأرقام والحسابات

واستخدمت تعدادات السكان والكتب السنوية والدوريات والإحصاءات المختلفة وهذا المجهود كان يتطلب مني انتهاج الأسلوب العلمي المتعلق بعلم الإحصاء وعلم الاجتماع والرياضيات والاقتصاد السياسي.

وأتذكر أنني عندما انتقلت من مسقط رأسي - سيبريا إلى موسكو للدراسة في جامعتها العريقة وتعلم اللغات والآداب والتاريخ وغيرها من العلوم الإنسانية كنت لا أحبذ العلوم الطبيعية، وكنت أعزف عن دراستها في المدرسة من رياضيات وفيزياء وكيمياء وبعد مرور السنين وبينما كنت أطالع الأرشيفات والوثائق أجدها لا تخلو من البيانات الإحصائية إلى أن أصبحت مغرمًا بالرياضيات واخترت موضوعًا لأطروحة الدكتوراة (البروفوسيور) عن: «نشأة الطبقة العاملة المصرية في ظل الاستعمار (1841 - 1914م)» وتعكس مدى اهتمامي بالعمال المصريين الأعزاء من الطراز الرأسمالي حيث كان مهما بالنسبة لي طريقتهم في التعبير عن مطالبهم عن طريق الإضرابات والاعتصامات وتشكيل نواة النقابات العمالية.

وعندما ركزت جل اهتمامي لجمع المادة العلمية لكتابة أطروحة دكتوراة الدولة استعنت واستعملت عشر أرشيفات تقريباً مصرية وروسية وأوكرانية استفدت منها كثيراً وتمكنت من إيجاد تواصل تاريخي أفادني كثيراً في موضوع الدكتوراة إذ اختوت تلك الأرشيفات على بيانات ومعلومات تتعلق بالعلاقات المصرية - الروسية والمناسبات الثقافية الهامة التي كانت تزخر بها مصر وروسيا وتهم مصالح بلدينا وشعبينا.

وبينما كنت أسجل على هوامش مسوداتي الأرشيفية ملاحظات عن التقارير والبلاغات والبرقيات والمراسلات الدبلوماسية اكتشفت الوقائع الطريفة عن زيارات قام بها كتاب ورسامون وفنانون روس إلي مصر وعن افتتاح المعارض المختلفة وعقد الاتفاقيات وعن الواقع السياسي في مصر وما حولها وكانت تتراكم في ذاكرتي كل الطرائف الممتعة المدونة في الملفات والأرشيفات.

وفي عام 1968 تسنى لي مرافقة الطلاب المستعربين إلى مصر فانتهزت هذه

الفرصة لمطالعة الصحف القديمة بحثًا عن وثائق حول نشأة الطبقة العاملة المصرية المؤرخة من السبعينيات في القرن التاسع عشر حتى بداية الحرب العالمية الأولى، وعلى مدى أربعة عقود تقريباً عكفت على قراءة ما تنشره الصحف المصرية بوصفها أهم المصادر للدراسة والبحث خاصة صحف «الأهرام»، «المنارة السكندرية»، سمنارة بور سعيد»، «لاريفوم»، «لاكير»، «ايجيبشين جازيت» باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية.

وإلى جانب المادة العلمية التي كنت احتاج إليها لكتابة أطروحتي تمكنت من جمع العديد من البيانات عن الأوضاع السياسية والثقافية وعن الحوار الروسي - المصري الحضاري والثقافي بالذات.

وكان من الطبيعي اكتمال تعارفي على مصر التي وصلت إليها لأول مرة بعد مغادرتها في سنة 1971 عدنما كانت قناة السويس مغلقة بسبب الحرب التي وقعت في شبه جزيرة سيناء حيث زرت منطاق عديدة فيما بينها سانت كاترين هذا الدير الذي يعتبر صفحة هامة في تاريخ العلاقات الروسية - المصرية وسافرنا مع طلاب آخرين من خلال إدارة الوافدين إلى مرسى مطروح لأول مرة أيضًا.

وكنت شغوفًا بكتابة أطروحة الدكتوراه العلمية للدولة والتي كانت هدفي الرئيسي ومناقشتها وتمت بنجاح في يناير 1996 إذ يتطلب الأمر الفراغ من مناقشة أطروحة الدكتوراه العادية للحصول بعد بذل قصارى الجهد لوقت طويل على دكتوراة البروفيسور وينطبق ذلك على حالتي هذه حيث فرغت من أعلى درجة للدكتوراه حصلت عليها وكانت سببًا في تحقيق شهره واسعة وسمعة طيبة ومن ثم أتاحت لي فرصة سانحة للترقي الوظيفي والمكانة الأكاديمية المرموقة والتي بفضلها تمت دعوتي للمشاركة في مؤتمرات وندوات ورحلات والقيام بمأموريات ومهمات بالخارج فضلاً عن فائدتها لي لتحفيزي على البحث العلمي وفرغت من موضوع «الطبقة العاملة المصرية» التي استحوذت على اهتمامي بوصفها ثروة في معلوماتها وبياناتها على مدى ثلاثين عامًا وأعكف حاليًا على تركيز أوقاتي

ومجهودي على موضوع «العلاقات الروسية ـ المصرية الثقافية» بمعناها الواسع وينبثق منه الحوار الروسي المصري الحضاري والثقافي فضلاً عن رغبتي في القيام بأعمال ذات ابع اجتماعي ومنذ ذلك الوقت أعمل مستعربصا فكنت أحرص على حضور فعاليات جميعية الصداقة السوفيتية بين الشعوب والتي باتت تسمى الآن «المجلس الدولي للعلوم والثقافة بموسكو» التابع لها المركز الثقافي الروسي بالإسكندرية.

وفي عام 1964 أتذكر أنني كنت أحد النشطاء للقاء شبابي ضم مجموعة من الطلبة السوفيبيت والعرب التابع لهذه الجمعية وكنت أتولى توزيع دعوات الحفلات التي كانت تنظمها جميعة الصداقة بين شعوب الاتحاد السوفيتي والبلدان العربية وكنت أناقش برامج الفعاليات بالتعاون مع الوفود العربية وبتنسيق مع أليكس بودسيروب الذي يشغل حاليًا منصب سفير روسيا الاتحادية لدى الجمهورية التونسية.

وأتذكر أيضًا تلك الزيارة التي قام بها وفد الشباب المصري في الستينيات لموسكو برئاسة دكتور مفيد شهاب رئيس منظمة الشباب الاشتراكي في الجمهورية العربية المتحدة (وزير التعليم العالي للدولة للبحث العلمي حاليً) للمشاركة في الأسبوع الأول للصداقة بين الشباب السوفيبيتي والمصري وكنت أترجم لهم وعشنا معًا أيامًا ممتعة كنا نغني مع الشباب المصري: «يا منظمة يا جيل شباب اشتراكي» عن طريق جمعية الصداقة السوفيتية العربية التي أصبحت تسمى الأن: «جمعية أصدقاء مصر في روسيا» والتي أتاحت الفرصة لي للحضور إلى مصر ثانية عام 1990م حيث ألقيت عدة محاضرات في النادي الدبلوماسي المصري وفي كلية آداب جامعة الإسكندرية وقتما كان الدكتور عمر عبد العزيز عميداً لها، وكان يرأس تلك الجمعية الدبلوماسي الروسي البارز فلاديمير فينوجرادوف نائب وزير الخارجية للاتحاد السوفيتي سابقًا وسفير سابق للاتحاد السوفيتي وبعد وفاته 1997م آلت رئاستها لوزير القوميات الروسي السابق رمضان عبد اللطيف ، والذي

يعمل الآن رئيسًا لجمعية شعوب روسيا ونائب البرلمان الروسي عن محافظة سمارا كما انتخبت أنا نائباً لرئيس جمعية أصدقاء مصر في روسيا.

وقبيل وفاة فلاديمير فينوجرادوف قمنا بترتيب زيارة رسمية لجمهورية مصر العربية عام 1996 وهي تلبية لدعوة تلقيناها حيث التقينا بالدكتور أحمد فتحي سرور رئيس مجلس الشعب المصري ورئيس جمعية الصداقة المصرية ـ الروسية وكان الوفد الروسي مكونًا من ثلاثين شخصية فاعلة منهم المحاربون القدامى الروس الذين اشتركوا في العمليات الحربية في مصر في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات وهم شكلوا جمعية المحاربين القداماء التي تضم في عضويتها أكثر من ألف محارب ووجدنا نحن أعضاء الوفد الروسي الرسمي خلال زيارتنا لمصر عام١٦Ë+06 حفاوة بالغة حث نلنا شرف استقبال الرئيس محمد حسني مبارك لنا بكل ترحاب ودفء، وأثناء هذه الزيارة تشرفت بمعرفة السفير دكتور رضا شحاتة سفير جمهورية مصر العربية لدى موسكو وقتئذ والذي تصادف وجوده في القاهرة ومنذ ذلك الوقت وكلانا يحتفظ بعلاقات طيبة ووثيقة وكالعادة توليت الترجمة لأعضاء الوفد الروسي خلال لقاءهم بالدكتور فتحي سرور في مكتبه بمجلس الشعب المصري.

وبعد عام من تلك الزيارة حضر وفد جمعية أصدقاء مصر في روسيا برئاسة رمضان عبد اللطيفوف من جديد إلى مصر حيث التقى الوفد بالدكتور أحمد فتحي سرور أيضًا في حضور الدكتور محمد عبد الله رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشعب وقتئذ الذي لا زلت أحتفظ بعلاقات وثيقة معه حتى الآن.

وبعد مرور عام حضرت مرة أخرى إلى مصر للمشاركة في الندوة الدولية بعنوان: «روسيا والعالم العربي في النضال من أجل تعدد الأقطاب» وبع١٦وظ« تهاء جلسات أعمالها توجهت لمدينة الإسكندرية برفقة مدير المركز الثقافي الروسي بالقاهرة للتعرف عن قرب على نشاط المركز الثقافي الروسي بالإسكندرية من مديره روبرت ارزمانيان الذي حللت محله.

وإلى جانب اشتراكي في الندوات السياسية بعدما ناقشت أطروحة الدكتوراة العلمية نشطت بعثاتي العلمية إلى العالم العربي فكنت أشارك في الندوات التي كانت تنظمها الجمعية التاريخية المصرية برئاسة الدكتور رءوف عباس الذي تعرفت عليه وقتما كنت في زيارة لجامعة القاهرة عام 1986 حيث كتب الدكتور رءوف عباس العديد من الأبحاث العلمية المكرسة لتاريخ الطبقة العاملة المصرية فضلاً عن نشره لعدة مقالات منها: «ثورة عرابي باشا وبراعم الحركة العمالية في مصر» استناداً إلى بعض المصادر والمراجع الروسية ـ مصر الحديثة عدد 22 القاهرة 2003 ص 13 - 42 ومنذ فترة عَهِدَ إليَّ بكتابة مقال عن «مصر في الأرشيفات الروسية» الذي صدر أخيراً في الحولية المصرية للوثائق «الروزنامة» وعددها التي صدرت باللغة العربية. ومرت هكذا الرحلة التي تلت مناقشة راسلة دكتوراه البروفيسور بالنسبة لي بكثير من الرحلات السياسية والعلمية التي قمت بها في اغلب الأحيان إلى جمهورية مصر العربية.

وفي عام 2000 تغير مسار حياتي بعد تكليفي بالعمل مديراً للمركز الروسي للعلوم والثقافة بالإسكندرية وبدرجة نائب قنصل روسيا الاتحادية بالإسكندرية والآن بعد مرور ثلاثة أعوام لانشغالي في الإسكندرية تولدت عندي أفكار ثقافية تم تسجيلها وتدوينها تتعلق بالفعاليات التي قمت بتنظيمها كمدير للمركز الثقافي الروسي وتم نشر معظمها في الصحف المصرية منها: «تحديات ثقافية»، «القاهرة»، يالتجمع»، «الأخبار» وباللغة الروسية في الصحف الروسية: «المبشر الدبلوماسي»، و«آسيا وأفريقيا اليوم». وبالتالي تم الاحتفاظ بتلك المقالات.

والأفكار التي جمعتها خلال فترة 40 عاماً كمستشرق مستعرب أدرجت جزئياً في هذه المجموعة الأولي من المؤلفات والتي أطلقت عليها تسمية «جيناديات» نسبة إلى اسمي «جينادي» والتي ساعدني في إعدادها أسرة العاملين بالمركز الثقافي الروسي المكونة من السيدات والآنسات لاريسا بينشكوفا ولاريسا عمر ومديحة رضا ويفجينا حافظ وأولجا السيد وتانيا صابر وجميع العاملين والعاملات

بالمركز، وكما تقولون في مصر «وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة» هي زوجتي الوفية: جالينا إيفانوفنا.

وبوصفي مديراً للمركز الثقافي للعلوم والثقافة بالإسكندرية أتيحت لي فرصة مرافقة السيدة/ فالنتينا تيرشكوفا أول رائدة فضاء في العالم عند زيارتها الرسمية لمصر مطلع عام 2001 حيث توليت الترجمة لها في مقابلاتها التي أنجزتها خلال الزيارة المذكورة والتي التقيت على هامشها بكل من:

* د. يوسف والي نائب رئيس الوزراء ووزير الزراعة.

* السيد/ صفوت الشريف وزير الإعلام.

* د. ممدوح البلتاجي وزير السياحة.

* د، علي الصعيدي وزير الكهرباء والطاقة.

واللافت للنظر حقًا حفاوة الاستقبال الذي قوبلنا به في تلك اللقاءات الرسمية والتي عهدناها دائماً من الشعب المصري المضياف الأمر الذي كان له عظيم الأثر في نفوسنا جميعًا ولاحظنا صدى الزيارة جليًا من الاهتمام الإعلامي بتغطية تفاصيل مقابلات السيدة/ فالنتينا تيرشكوفا (الرئيسة الحالية لمراكز الروسية للعلوم والثقافة بموسكو». إذ نشرت مجلة «حواء» على غلافها وداخل عددها الصادر في يناير 2001 موضوعًا مطولاً عن نجاحات وإنجازات السيدة/ فالنتينا تيرشكوفا أعدته السيدة إقبال بركة رئيس تحرير مجلة حواء القاهرية المزدهرة واسعة الانتشار وأكسبتني هذه الزيارة زخمًا رسميًا وخبرة في التعامل مع كبار المسئولين المصريين الذين التقينا بهم.

وأشيد في هذا السياق باللقاءات التي نعقدها على هامش الاحتفال الكبير الذي يقيمة اللواء محمد عبد السلام المحجوب محافظ الإسكندرية في مقر مكتبه بالإسكندرية صباح اليوم الأول للأعياد الدينية كعيد الفطر المبارك وعيد الأضحى المبارك وهو ما يمكن وصفه بـ «الدبلوماسية الشعبية» حيث نلتقي برموز المجتمع السكندري من شخصيات عامة ونواب وبرلمانين وأكاديميين وإعلاميين ورسميين

وقيادات تنفيذية وغيرهم وتتسم بالمصداقية والبساطة والود وكرم الضيافة بالنسبة لنا.

إن العمل الذي أقوم به كمدير للمركز الثقافي الروسي بالإسكندرية ولقاءاتي وصلاتي المستمرة العملية والثقافية مع أهالي الإسكندرية والنخبة المتميزة من مثقفي ومبدعي الإسكندرية الذين يواظبون على حضور أنشطة المركز سواء كانت حفلات موسيقية وعروض مسرحية وفنية وأفلام ومعارض للفن التشكيلي والباليه والبيانو والصالون الأدبي وأداء عملي للدراسين للغة الروسية وكل ذلك ساهم في إثراء النشاط الثقافي للمركز الروسي كما ساهم في تنفيذ الفكرة التي طالما روادتني طويلاً وهي تعميق الحوار الروسي ـ المصري الحضاري والثقافي.

**عزيزي القارئ:**

إن أهمية الجزء الأول من كتابي «جيناديات» تكمن في توثيقه وتأريخه لكل الفعاليات الثقافية والكلمات والخطب والدراسات المرتبطة بالأحداث الثقافية التي نظمها المركز الروسي للعلوم والثقافي بالإسكندرية ونأمل أن تنال استحسان الجمهور المصري بصفة عامة والجمهور السكندري بصفة خاصة بوصفه من المساهمين في كل إنجاز قد تحقق على أرض الواقع وما سيتم إنجازه مستقبلاً من أجل تنشيط العلاقات الروسية ـ المصرية في مختلف المجالات واعداً إياكم ببذل أقصى الجهد لسرعة إصدار المجموعة الثانية «جيناديات٢» التس ستكون أكثر عمقًا وطرافة.

**د/ جينادي جارياتشكين**

**الساحل الشمالي/ صيف عام ٢٠٠٣**



# الفصل الأول

# دور المركز الثقافي الروسي في تطوير مسرح الشباب في الإسكندرية

ولد ستوديو «تشايكا» بالمركز الثقافي الروسي عام 1998 غير أنه نتيجة للظروف التي أحاطت بمن تولوا قيادتها بالمصادفة في ذلك الوقت حيث أنهم لم يكونوا ملمين تمامًا لا بالديالوج المصري ولا باللغة العربية الفصحى بالإضافة لأسباب أخرى لم تكلل الأعمال الأولى لهذا الأستوديو بالنجاح. وحتى نهاية عام 2000 لم يقدم الأستوديو مسرحية واحدة.

وفي أواسط عام 2000 اختلط بالأستوديو «تشايكا» وتولي أمرها قوى جديدة تمثلت في الطلبة والخريجين من قسم المسرح بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، ومن هواة المسرح بالثقافة الجماهيرية. فهم على سبيل المثال حمدي سالم – رمضان عبد الحفيظ – محمد الزيني وغيرهم. ومنذ عام 2000 قدم ستوديو «تشايكا» أكثر من 30 مسرحية من أعمال مؤلفين روس ومصريين ومن بلدان أوروبا الغربية، من هذه المسرحيات «الزواج ل جوجول»، «محاضرة في أضرار التبغ»، «الدب»، «حفل اليوبيل» لانطوان تشيخوف، «الحريق» عن قصة لراسبوتين، «ما أجملنا» لمحفوظ عبد الرحمن، «جلجلة حبيبتي» تأليف عصام أبو سيف، «نزهة في الجبهة» لفرناندس وهلم جرا.

وبهذا الشكل أمكن تكوين مجموعة طيبة جداً من المحبين للمسرح والذين يجمعهم فكر واحد. وإنما كان المجد الحقيقي لأستوديو «تشايكا» عندما قام في خريف عام 2002 بتنظيم أول مهرجان مسرحي بين جدران المركز الثقافي الروسي وتحت إدارته للمونودراما والديودراما حيث تم عرض أكثر من 10 مسرحيات شهدها أكثر من ألفين من الأشخاص.

**من بينهم فنانون ونقاد وتم فيه تكريم كل من:**

1- الأستاذ الفنان: أمين هاشم.

2- الأستاذة الفنانة: السيدة الرمح.

3- الأستاذ الفنان: ناجي أحمد ناجي.

4- الأديب والفنان: حجاج أدول.

5- الأستاذ الفنان: فتحي يوسف.

6- الأستاذ الفنان: رمضان الفرن.

7- اسم المرحوم الفنان: مصطفى شوقي.

وقد ضمت لجنة التحكيم للمهرجان الشخصيات البارزة في المجتمع السكندري المهتمين بالمسرح مثل الدكتور أيمن الخشاب الأستاذ بقسم المسرح بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، والفنان علي عاشور والأديب ماهر الشريف.

وكانت تدور المناقشات بعد كل عرضين مسرحيين بشكل مستفيض وجاد وكانت تشمل مجمل المسرحيات والمشاكل الملحة في إطار من النظام وفي اليوم الأول للمهرجان تسلم المكرمون من الفنانين هداياهم وشهادات تقدير بإسم إدارة المركز الثقافي الروسي وقد حضر ضيوف شرف من القاهرة من بينهم المؤلف المسرحي لينين الرملي / صاحب مؤلف نحو 60 مسرحية والمخرج عصام السيد مدير المسرح الكوميدي، وفي ختام اليوم الأول للمهرجان والذي حضره أكثر من 300 شخص أقامت فرقة أمواج الفنية وهي تابعة للمركز حفلها الفني.

وفي ٢٢ سبتمبر 2002 إختتم المهرجان أعماله بتوزيع الجوائز على أحسن الأعمال والتي تضمنت ثماني عروض ثم أعقب ذلك مؤتمر صحفي حول محصلة المهرجان شارك فيه كل من الدكتور أبو الحسن سلام الرئيس السابق لقسم المسرح بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية والمؤلف المسرحي السيد حافظ والمخرج المسرحي السيد الدمرداش ومدير المركز الثقافي الروسي وقدم المتحدثون الشكر لإدارة المركز الثقافي الروسي حيث إنها وفرت الإمكانيات لإقامة المهرجان المسرحي الأول

وقارنوا ذلك بتلك المساعدات التي كان يقدمها الاتحاد السوفيتي حينذاك لمصر، وقدموا في ملاحظاتهم أن تنظيم المهرجان قد نجح في إبراز المواهب الجديدة وفي العروض الأثنى عشر والندوتين الكبيرتين وفي المناقشات اليومية كان مجموع الحاضرين فيها أكثر من ألفين (2000) من الأشخاص معظمهم من الشباب السكندري.

**وأصدرت اللجنة المنظمة للمهرجان نشرتين كما تم تنظيم ندوتين كبيرتين:**

**الندوة الأولى:** عن التحديث في المسرح المعاصر وأدارها لينين الرملي.

**أما الثانية:** فقد كانت تحت عنوان ـ مشاكل وآفاق المسرح السكندري وأدارها النقاد والمؤلفون المسرحيون أمثال السيد حافظ والسيد الدمرداش والدكتور أبو الحسن سلام، ويمكن القول بأنه في ظروف الوضع العام للمسرح الشبابي المصري فإن المهرجان الأول لمسرح الممثل الواحد والممثلين كان نجاحًا كبيراً. وعن ذلك وبشكل خاص نقول الحقيقة الآتية بأن الملف المسرحي للمركز الثقافي الروسي يحتوي على أكثر من 20 مقال في الصحف والمجلات المصرية عن نتائج ذلك المهرجان ومن مجمل التوصيات الختامية للمهرجان توصية يطلب من إدارة المركز الثقافي الروسي بتنظيم مهرجان مماثل بعد عامين يشترك فيه مجموعات أكثر لكن بعروض من فصل واحد أو من فصلين لا تزيد مدتها عن ساعة واحدة وتقدمت إدارة المركز الثقافي الروسي بالشكر لضيوف الشرف من أعضاء لجنة التحكيم واللجنة المنظمة للمهرجان وللممثلين والمخرجين وكتاب المسرح وأكدت للجميع بأن المركز سيكون على أتم الإستعداد في أن يحتضن المهرجان القادم بين جدرانه ويقدم المكان المناسب للشباب السكندري الموهوب من أجل إبراز وصقل مواهبه.

وتجدر الملاحظة أنه وفي هذا الوقت لم تظهر مجموعة مسرحية مماثلة واحدة في المراكز الثقافية الأجنبية التسعة وأصبح المسرح مشهوراً في مدينة الإسكندرية بحيث يمكن القول بأنه لا توجد خشبة مسرح كلاسيكي مثل خشبة المسرح الصيفي

في المركز الثقافي الروسي. وإن كانت شهرة هذا الفريق لا تقتصر على المسرح الصيفي فحسب.

بل إن خمسة عشر شخصًا يجمعهم فكر واحد تحت قيادة المخرج ذو الخبرة والمنظم المسرحي حمدي سالم والمتحمسين بحق لقضيتهم والمحبين للمسرح والأوفياء للمركز أصبح ستوديو «تشايكا» أكثر شهرة بعد المهرجان المسرحي الأول ففي الإسكندرية يوجد - مركز للإبداع - المركز الثقافي الأمريكي والفرنسي واليوناني والسويدي ومركز الجزويت الثقافي وذلك كفريق دائم في هذه الأماكن وعلى أن يقوم بتقديم العروض في المكان الواحد فقط وكانت المغريات كبيرة جداً جداً ذلك أن العديد من المراكز الثقافية تملك التمويل ولا تبخل في صرف الأموال على الثقافة ومنها البنود المسرحية وحتى في تقديم عروض منفردة في المركز الأمريكي والسويدي وأيضًا في مكتبة الإسكندرية يقدمون مبالغ طائلة. إلا أن أعضاء فريق ستوديو «تشايكا» لم يلبوا تلك المطالب طالما أن المركز الثقافي الروسي استطاع فقط أن يقدم لهم المكان. وقام أعضاء فريق «تشايكا» وعلى نفقتهم الخاصة بتجهيز نظام الإضاءة في المسرح الصيفي، وفي إطار التعاون بين المركز الثقافي الروسي واليوناني قدم الفريق وفي مقر المركز اليوناني مسرحية انطوان تشيخوف «محاضرة في أضرار التبغ».

من جانب آخر تم نوع من الإنشقاق في فريق «تشايكا» إذ أن البعض من أعضائه أخذ يعمل بشكل مستقل في مركز الجزويت الثقافي لكن «تشايكا» أبقت على الصلات معهم لأن مصلحة المركز الثقافي الروسي التعاون مع المراكز الثقافية الأخرى في الإسكندرية وبشكل عام إحتفظ ستوديو «تشايكا» بوجهه الخاص ودعم مواقعه.

أن تنظيم المهرجان المسرحي الثاني من 20 إلى 28 سبتمر من عام 2003 بين جدران المركز الثقافي الروسي يدل على ثبات ورسوخ فريق «تشايكا» حتى وعلى الرغم من عملية الترميمات الداخلية في مبنى المركز الثقافي الروسي والاكتفاء بالمسرح الصيفي فإن الفرق المشتركة في هذا المهرجان بلغت 10 فريقًا من الإسكندرية والقاهرة ومدن الدلتا وكذلك من الصعيد من المنيا وبدأ ستوديو

« تشايكا » الاستعداد لهذا المهرجان من قبل الموعد المحدد بثلاثة أشهر وتم إختيار إسم «اسكندراما » شعاراً لهذا المهرجان كما تم تجهيز برنامج المهرجان والدعوات والشهادات الممنوحة والجوائز المتواضعة من أجل الشخصيات الصديقة للمسرح السكندري والفائزين في المسابقة وكذلك وكما كان في العام الماضي تم عرض مسرحيتين في اليوم الواحد يتم بعدها مناقشة بين حين وآخر ومع تجدد وجوه المشتركين ومحتوى قصير عن عمل اليوم المنصرم. في اليوم الأول للمهرجان وبعد كلمة الترحيب التي ألقاها مدير المركز الثقافي الروسي تحدث الفنان المشهور محمد وفيق ثم زوجته الفنانة كوثر العسال ثم الدكتور سامي عبد الحليم عميد معهد الفنون المسرحية بالإسكندرية ثم الفنان مدحت بسيوني فالفنان سيد الدمرداش وآخرون وفي كلماتهم دوت عبارات التحية والاستحسان للمهرجان المسرحي الثاني وآخرون والدعوة للشباب لحب وتطوير التقاليد المجيدة للمسرح السكندري، أما وقد برز المسرح المصري المعاصر في العاصمة الثانية للبلاد فقد عبر المتحدثون عن شكرهم لإدارة المركز الثقافي الروسي لتوفيرها الإمكانيات لتنظيم «اسكندراما » وذكر الكثيرون وبفخر أعمال المركز الثقافي السوفيتي في الفترة من أعوام 1960 إلـى 1970 واشتراكهم المباشر في هذه الأعمال والنشاطات ومع التصفيق الحاد للحاضرين والمصاحبة للموسيقى قام الفنانون الجديرون العاملون في المسرح والذين سبق لبعضهم إعتلاء خشبة المسارح في الهمبرا ومحمد علي بالإسكندرية قاموا باستلام شهادات الشرف والتقدير من أوراق البردي تكريمًا لهم ولدورهم في المسرح والمكرمون هم الفنان محمد وفيق، الفنانة كوثر العسال، الفنان الدكتور سامي عبد الحليم عميد معهد الفنون المسرحية بالإسكندرية، الفنان كرم النجار، الفنان أحمد أبو العينين، الفنان علي الجندي، الفنان حمدي رؤوف، الفنان مدحت بسيوني، الفنان عارف عبد الرسول، الفنان موسى خليل، وقد بدت الدموع تغطي عيون أغلب رواد المسرح، وكان يحضر يوميًا لمشاهدة العروض والمساهمة في المناقشات من 250 إلى 300 فرد بل وأكثر من ذلك، لقد حضر أكثر من خمسة آلاف شخص في الأيام التسعة لمهرجان «اسكندراما ».

وفي اليوم الأخير للمهرجان أعلنت لجنة التحكيم التي تتشكل من الأستاذ عادل شاهين - الأستاذ السيد الدمرداش - الأستاذ مؤمن عبده وكان قرارها

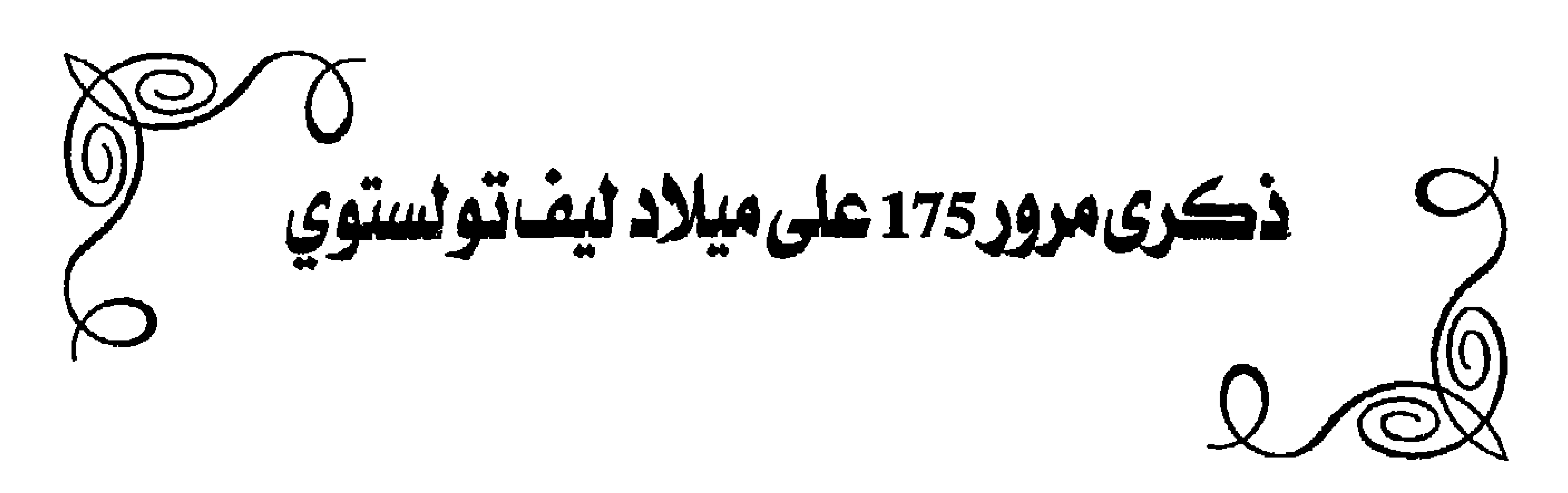
كالتالي:

- جائزة التمثيل رجال: المركز الأول: محمد مرسي.
- جائزة التمثيل سيدات: المركز الأول: سامية جمال.
- جائزة السينوغرافيا: المركز الأول: محمد منصور.
- جائزة الإخراج: المركز الأول: محمد عبد الفتاح.
- جائزة التأليف: المركز الأول: سامي عثمان.
- جائزة أفضل العروض: سامح الحضري.
- جائزة الموسيقى والألحان: مناصفة بين محمد شمس وهيثم مدحت بسيوني.

لقد جمع مهرجان «اسكندراما» ممثلي كل أجيال فن المسرح في مصر وقادت كل الحاضرين إلى فكرة توحيد كل محبي المسرح تحت شعار واحد وهو وضع الأساس الخاص للمسرح في الإسكندرية مع جذب الشخصيات الثقافية الكبيرة البارزة ورجال الأعمال وكل الوجوه التي لها اهتمامات في هذا المجال ويمكن القول بأنه قد اتخذت خطوات عملية في هذا الاتجاه وكان لفريق «تشايكا» بالمركز الثقافي الروسي بالإسكندرية الدور الكبير في ذلك.

والآن بدأ الفريق في عمل البروفات لمسرحية الكاتب الروسي الكبير انطوان تشيخوف «تقاسم على العنبر أو عنبر رقم 6» وبالإضافة إلى ذلك يقوم الكاتب أبو بكر يوسف المترجم السابق في دار نشر «التقدم» لأربعة من المجلدات لمختارات تشيخوف والمقيم حاليًا في موسكو يقوم بإعداد مسرحيات من القصص القصيرة للكاتب الروسي تشيخوف وذلك بناء على طلب المركز ورغبة المشاهدين والمسرح المصري المعاصر. كما يتم الإعداد أيضًا للاحتفال بيوبيل أ.ن. اوستروفوسكي، وإلى الأمام في خطط مستقبلية أخرى.

* * * *



# ذكرى مرور 175 على ميلاد ليف تولستوي

في شهر سبتمبر من العام الحالي يكون قد مر 175 عامًا على ميلاد الكاتب الكلاسيكي العظيم في الأدب الروسي والعالمي.

أولاً وقبل كل شيء فإن ليف تولستوي معروف لدى القارئ برواياته الثلاث الشهيرة:

«الحرب والسلام»، «البعث»، «أنّا كارينينا»، التي صور فيها واقع الحياة في المجتمع الروسي في ذلك الوقت بمختلف شرائحه وفئاته تصويراً دقيقًا شاملاً» بدءاً من صفوة الطبقة العليا من النبلاء وكبار الاقطاعيين من ملاكي الأرض حتى الطبقة الدنيا من الفلاحين والبسطاء وسكان المدن المعدمين، وأدوارهم في المجتمع، وتفاعلهم فيما بينهم. يبين تولستوي التفاعل بين مختلف طبقات المجتمع الروسي على ضوء المشكلة الرئيسية التي يتناولها في رواياته بوجه خاص في رواية «الحرب والسلام» وهي مشكلة الحرب وبطولة الإنسان الروسي وجسارته في الذود عن الوطن. ولعل قارئ رواية «الحرب والسلام» يتذكر عبارة الكاتب الشهيرة التي يقول فيها: «... لقد ارتفعت هراوة الحرب الشعبية كي تهوى بكل قوتها على الفرنسيين الغزاة وتطيح بهم». انهم هم أنفسهم الذين اجتاحوا روسيا بقيادة نابليون بونابرت في عام 1812 وحرقوا مدينة موسكو عن اخرها وحولوها إلى كومة من الرماد.

تجلت عبقرية تولستوي في تصويره في روايته «الحرب والسلام» الحرب في القارة الأوروبية من عام 1805 حتى عام 1815 بصورة كاملة.. تلك الحرب التي شنها نابليون بونابرت من أجل السيطرة على العالم كله بعد هزيمته النكراء في

حملته على مصر، عندما أراد أن يكرر مسيرة الإسكندر الأكبر الذي تطلع إلى الاستيلاء على الشرق معتبراً أن السبيل إلى السيطرة على العالم إنما يتم عبر الشرق.

يطرح تولستوي في روايته الأخرتين «أنّا كارينيا» و «البعث» موضوعات اجتماعية أخلاقية تختص بالدرجة الأولى بالدور الذي تلعبه المرأة في المجتمع. وبالمناسبة أيها الأصدقاء الأعزاء فإننا سنعرض عليكم اليوم فيلم «أنّا كارينينا» باللّغة الإنجليزية. بالنسبة لموضوع هذه الأمسية فإنه في المقام الأول يتعلق بصلة ليف تولستوي بالشرق. فإلى جانب أن أجداد تولستوي كانوا مرتبطين بالشرق وأن تولستوي نفسه قد درس بمعهد الاستشراق بمدينة قازان. وعلى الرغم من أنه لم يستكمل دراسته كمستشرق، فإن الكاتب الروسي العظيم كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بصورة عملية بالشرق، حيث اشترك في حرب القوقاز وحرب شبه جزيرة القرم. وكان نتيجة هذه التجربة القتالية أن ظهر مؤلفاه «حاجي مراد» و«حكايات سيفاستوبول». في قصة «حاجي مراد» يسبر تولستوي أغوار وأعماق النفس البشرية لأبطال قصته، مستخدمًا في ذلك معرفته بالخصائص المميزة للشرق. لم يقتصر تناوله لموضوع الشرق على هاتين القصتين المذكورتين فقط، بل لقد امتد موضوع الشرق إلى العديد من مؤلفاته الأدبية الأخرى.

تعد المكاتبات والرسائل المتبادلة بين ليف تولستوي والمصلح المصري العظيم الشيخ محمد عبده بالنسبة لنا على جانب كبير من الأهمية، فقد كان الشيخ محمد عبده يريد تحديث الإسلام وتطويره حتى يتماشى مع المتغيرات والمستجدات الاقتصادية والسياسية في المجتمع المصري على عتبة القرنين التاسع والعشرين.

## ليف تولستوي والمستنيرون العرب

إن فكرة أن العالم وحدة واحدة لا تتجزأ وأن هناك ارتباطًا وثيقًا متبادلاً بين مختلف دول وشعوب العالم - تلك الفكرة ذات المغزى العميق والبساطة في ان واحد - لا تزال حتى الآن لم تتغلغل بعد الصورة الكافية في الوعي الفكري والشعور

الجـمـاهـيـري لسكان العـالم. لم يكن من السـهل بحال من الأحوال التـخلي عن استخدام العبارات الدارجة والألفاظ المبتذلة والاعتراف بأن سعادة وازدهار البعض قد يقوم في بعض الأحيان على حساب تعاسة وشقاء وضياع الاخرين. لذلك ففي مشارف القرنين التاسع عشر والعشرين عندما بدأ النظام الرأسمالي في التطور بخطى حثيثة، قام المفكرون الشرفاء من ذوي الفكر الثاقب وبعد النظر بالتلميح إلي ما يحمله ذلك النظام في طياته من تناقضات عميقة صارخة، لكن من يلتفت إلى تلميحاتهم واشاراتهم هذه ولم يعرها انتباهًا إلا قلة قليلة. بينما كانت الغالبية العظمى من المفكرين المعاصرين لتلك الحقبة الزمنية أشبه بالقرود التي يتم تصويرها في قصص وحكايات الفلكلور الهندي. فقد بهرتهم منجزات العلم والتقنية الحديثة وتغاضوا عن أن كل تلك النجاحات التي حققها النظام الرأسمالي إنما كانت تتم على حساب نهب المستعمرات وسلب مواردها. وفوي كل مكان وعلى وجه الخصوص في القرية تلاشى ذلك التواؤم والتناسق والتوافق الذي كان يميز نمط الحياة التقليدي القديم وأدت تلك التغيرات الاقتصادية الجديدة إلى التنوع في العلاقات بين أفراد المجتمع.

كان لابد من حدوث تصادم بين الطبقات الدنيا في المجتمع التي كانت تعاني من المستوى الثقافي الهابط والفقر المدقع وبين عدم الاكتراث واللامبالاة من جانب الطبقات العليا والأوساط الحاكمة المتشامخة، المتعجرفة والمتغرطسة، ما ولّد التناحر والتنافر بين هاتين الطبقتين الذي غذى بدوره العداء المستحكم فيما بينهما سواء العداء الديني أم القومي أم الطبقي أليست هذه التناقضات العميقة هي التي تولد في وقتنا الحاضر ليس فقط التفكير السياسي الجديد والكفاح من أجل بقاء الإنسانية والمحافظة عليها من التدمير، لكنها تؤدي أيضًا إلى اتساع الهوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة واشتداد الأنانية سواء الأنانية القومية أم الفردية وكرد فعل طبيعي لكل ذلك يتزايد الصراع الديني والسياسي.

كان الكاتب الروسي العظيم والفيلسوف ليف تولستوي في عداد أوائل المفكرين

والكتاب الذين قدموا اقتراحاتهم عن كيفية علاج هذا المرض المستفحل.

خلافًا لهؤلاء الذين كانوا يعقدون الأمل في درء أوجه الشر المترتبة على المدنية الحديثة اعتماداً بوجه الاستثناء على التقدم العلمي والفني أو عن طريق إعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد المجتمع تنظيمًا جذريًا مؤثراً، فقد كان تولستوي يرى أنه لابد من إعادة تجديد واصلح الإنسان معنويًا وأخلاقيًا، حيث كان يعتقد أنه من الضروري تحرير الإنسان من الغرائز التي في أصلها غرائز بيولوجية مثل الأنانية، والرغبة في سد كافة الاحتياجات... وغير ذلك، كما يلزم بعث واحياء تلك الصفات الطيبة الأصلية التي منحتها الطبيعة للإنسان لكن ظروف الحياة الغير عادلة المحيطة به قد مسختها وشوهتها.

كان تولستوي بأفكاره ومعتقداته هذه أقرب ما يكون لأفكار معاصريه من المصلحين الدينيين في الشرق في بحثهم عن سبل جديدة للاصلاح الاجتماعي. بالطبع ظهرت أفكار تولستوي هذه كحركة دينية ـ اجتماعية بصورة متكاملة على الأرض الروسية في الثمانينيات من القرن التاسع عشر في حقبة زمنية كانت تعرف بالرجعية السياسية وتدهور الحركة الثورية في روسيا. لقد ظهرت تلك العقيدة الجديدة التي كان تولستوي يكابد ويعاني منها أشد المعاناة بصورة جلية واضحة في العديد من مؤلفاته الأدبية مثل:

«الاعتراف»، «عقيدتي التي أدين بها»، «كريتسيروفا سوناته»... وغيرها، وأدت به إلى اعتناق فكرة أن تواجد الطبقات العليا في المجتمع إنما هو قائم ومبني على أسس مخادعة. كما أدي شعور تولستوي ووعيه بعدم جدوى الحياة عمومًا وبخاصة أمام مواجهة الموت... تلك الحقيقة التي لا مفر منها إلى تقوية الوازع الديني لديه. علاوة على ما كان يتصف به الكاتب في السابق من انتقاده لدعاة نهج النظرية المادية ومذهب الإيجابية في سبيل تحقيق التقدم ودعوته إلى البساطة، أضيف إلى كل ذلك اعتراضه واحتجاجه الشديد العنيف ضد نظام الدولة الطبقي والكنيسة البيروقراطية، ضد الامتيازات الخاصة وضد نظام المعيشة اذي تنتهجه

طبقات العمال في المجتمع التي نشأت وترعرعت في ظل التقاليد الاقطاعية... تلك الطبقات الاجتماعية الفاسقة، الفاسدة التي أوجدتها وأنشأتها البرجوازية وبيروقراطة الحكم المطلق.

اقترح أتباع تولستوي والمؤيدون لآرائه وأفكاره اعادة بناء وتنظيم واصلاح المجتمع عن طريق اصلاح النفس البشرية دينيًا وأخلاقيًا وقاموا بالدعاية بأن يسود الحب والوئام بين الجميع وبعدم اللجوء إلى القوة والعنف من أجل قهر الشر والظلم. انتقاد العقائد والتنظيمات والمؤسسات الكنائسية القديمة الجامدة التي عفا عليها الزمن، والإنكار والرفض السلبي لحكم الفرد المطلق، ونشر وعمل الدعاية لمبادئ العدل والموازنة، والتقارب مع المنشقين المرتدين عن الطوائف الرسمية للكنيسة الأرثوذوكسية.... كل ذلك دعا إلى مطاردة وملاحقة مؤيدي مبدأ تولستوي ومروجي أفكاره وآرائه من جانب رجال الكنيسة والبوليس القيصري. وفي عام 1897 تم إعلان أن مبدأ تولستوي إنما هو عقيدة ضارة محرمة. وفي عام 1901 حرّم على تولستوي أن تكون له أية علاقة أو اتصال بالكنيسة، أما مناصريه ومؤيدي أفكاره فقد تعرضوا للملاحقة والطرد والنفي. وعلى النقيض من ذلك ففي نفس هذه الحقبة الزمنية لاقت أفكار تولستوي وآراؤه انتشاراً وتأييداً في دول أوروبا الغربية واليابان والهند والصين وغيرها من سائر الدول الأخرى حيث ازدادت في تلك الدول أعداد أتباعه ومريديه ومشايعيه، الذين لم يكتفوا فقط بمجرد الاعتراف بتلك الآراء الفلسفية لتولستوي بل أنهم أيضًا في الأعوام من - 1900 1880 حاولوا إقامة وتنظيم جاليات خاصة بهم في بلادهم مثلما حدث على سبيل المثال في انجلترا وجنوب افريقيا.

ووفقًا لأفكار تولستوي فإن الديانة المسيحية بعد تنقيتها من كل ما يشوبها من تشويه وتحريف وأخطاء قديمة عتيقة مضت عليها قرون طويلة وكذلك من الطقوس الدينية الكنائسية الشكلية البيروقراطية لابد في شكلها المتجدد أن توحد وتربط جميع أفراد العالم بأفكار الحب والتسامح. بالإضافة إلى كون تولستوي ناقداً حاداً

لاذعًا للواقع الاجتماعي لا يعترف بالحلول الوسطية فإنه كان يدعو إلى عدم مقاومة الشر بالقوة والعنف معتقداً أن الوسائل الوحيدة السديدة التي تتسم بالعقل والحكمة التي يمكن استخدامها في الكفاح ضد الشر هي فضحه وكشف النقاب عنه بصورة علنية، والعصيان الحازم والسلبي في نفس الوقت للسلطات، وذلك بغض النظر عن التنكيل والاضطهاد الذي قد يحدث من جانب هذه السلطات. أما السبيل إلى التجديد والتحديث والاصلاح المستقبلي لكل فرد على حدة وللبشرية جمعاء على وجه العموم فكان يرى أن ذلك إنما يتحقق عن طريق العمل مع كل فرد بصفة ذاتية من خلال جانبه الروحي، وفي تحسين وتطوير وتهذيب شخصية الفرد معنويًا وأدبيًا وأخلاقياً. إلى جانب هذا فإن تولستوي قد رفض ونبذ أهمية النضال السياسي واتسم موقفه من العمل الثوري بالسلبية والنفي والاستنكار.

وقد انتقد تولستوي بشدة عيوب ونقائص المدنية الحديثة والأعمال المشينة التي يرتكبها المستعمرون الأوروبيون في البلدان التي يحتلونها. يظهر ذلك بصورة جلية واضحة في رسائله وأبحاثه التي كتبها ضد النظام الرأسمالي منها على سبيل المثال:

«ما الذي يمكننا عمله؟»، «السيطرة الإلهية على عالمنا الداخلي»، «العبودية في وقتنا الحالي»، وكذلك في مقالاته مثل: «إلى الإيطاليين»، «حربان»، و«توبوا إلى رشدكم»، «رسالة إلى أحد الصينين»، «رسالة إلى هندوسي».

ويبدي تولستوي في هذه المؤلفات الأدبية عطفه نحو شعوب الشرق بما في ذلك الشعب العربي.

لم يكن اهتمام ليف تولستوي بالشرق وبالعالم الإسلامي وليد الصدفة المحضة، بل أنه قد نشأ وتولد لديه فجر الصبا وارتبط ذلك ارتباطًا وثيقًا بالعديد من الأحوال والظروف التي كانت تحيط به فقد كان تولستوي لدرجة ما متأثراً ومرتبطًا بالتقاليد والموروثات العائلية. وفي الواقع فإن مؤسس فرع عائلة الكونت تولستوي النبيل بيتر آند ريفيتش (1645 - 1729)، الذي كان في عهد الامبراطور العظيم

بطرس الأول أول سفير دائم لروسيا في الامبراطورية العثمانية من عام 1702 حتى عــام 1714. وقد كان بشهادة معاصريه وحسب آرائهم إنسانًا مثابراً وشجاعًا في الدفاع والذود عن المهمات التي يكلف بها. وقد اعتقله الأتراك وحبسوه مرتان في أحد السجون الشهيرة بمدينة اسطمبول وصور هذا السجن ذو الأبراج السبعة في شعار عائلة النبيل تولستوي. لقد كان بيتر آند رييفيتش تولستوي شخصية دبلوماسية بارزة، فائقة المواهب. ويعتقد الباحثون أن الفضل الأكبر يرجع إليه في تنمية العلاقات الروسية ـ التركية لصالح روسيا في تلك الحقبة الزمنية الهامة بالنسبة للدولة الروسية. وأخيراً فقد ترك مذكرات يومية غنية المضمون اطلعت عليها كل الأجيال التي تعاقبت بعد الفترة التي عاشتها عائلة تولستوي. لذلك فعندما طرح موضوع اختيار المستقبل الوظيفي للشاب الصغير ليف فإن أقرباؤه أرادوا أن يصبح دبلوماسياً في الدولة العثمانية خصوصًا وأن «المسألة الشرقية» في الأربعينيات من القرن التاسع عشر كانت واحدة من أهم الموضوعات بالنسبة للسياسة الأوروبية.

فضلاً عن تأثير المعارف والأقرباء فإن عبق الشرق الفواح بمدينة قازان حيث أصبح ليف يعيش بعد فقده لوالديه كان لابد وأن يثير في وجدان الشاب الصغير المرهف الحس الاهتمام بالشرق والتطلع إليه. وقد أشار الكاتب الاجتماعي الروسي الشهير جيرتسين في عام 1836 إلى أنه: «إذا كان مقدراً لروسيا نقل الغرب إلى آسيا وتعريف أوروبا بالشرق ـ كما تنبأ الامبراطور العظيم بطرس الأول ـ فإنه لا يوجد هناك أدنى مجال للشك في أن مدينة قازان تعد القافلة الرئيسية على طريق نقل الأفكار الأوروبية إلى آسيا، ونقل الطابع الآسيوي إلى أوروبا. وقد توصلت جامعة قازان إلى تلك الحقيقة. وإذا كانت جامعة قازان قد حصرت رسالتها فقط لنشر العلوم الأوروبية وجعلتها قاصرة على ذلك أذن لتراجعت أهميتها إلى المرتبة الثانية ولم تتمكن لفترة طويلة من اللحاق بالمستوى التعليمي ليس فقط كما في الجامعات الألمانية، بل وأيضًا كما في الجامعات الروسية مثل جامعة موسكو وجامعة ديربت (حاليًا جامعة طرطوس في استونيا). وهي الآن تقف جنبًا إلى جنب

مع الجامعات الروسية والألمانية وفي مصافها، حيث تشغل مكانة أصيلة قائمة بذاتها تنتمي إليها من واقع المكان الذي أنشئت فيه. تدرس بأقسام جامعة قازان الآداب الشرقية على نطاق واسع وتعرض في متاحفها مجموعات كبيرة من الملابس والمخطوطات من الأزمنة القديمة ومختلف العملات النقدية من شتى بلاد العالم كالصين ومنشوريا والتبت وكذلك من الدول الأوروبية».

كتب أحد أستاذة جامعة قازان يقول: «علاوة على الأعداد الهائلة من أساتذة الجامعة المتميزين من ذوي الشهرة الواسعة في دول أوروبا الذين تعطي محاضراتهم للمستمعين تصوراً من الناحية النظرية عن اللغات الشرقية، فإن جامعة قازان تقدم للطلبة الدارسين بها خدمات علمية أخرى لا تقدمها الجامعات الأوروبية ففي جامعة قازان يوجد مجال واسع للطلبة للتطبيق العملي لهذه اللغات. فمدينة قازان هي المدينة الوحيدة في العالم التي يوجد بها جامعة تتوافد إليها هذه الأعداد الضخمة من طالبي العلم من كل حدب وصوب من الفرس والمنغول والأتراك والتتار الأرمن وغيرهم».

في هذا المناخ المفعم بعبير الشرق بدأ إعداد الشاب اليافع تولستوي للالتحاق بجامعة قازان، حيث درس لمدة عامين كاملين اللغتين التركية والعربية لدى أفضل الأستاذة الذين لاحظوا الموهبة الفذة التي يتمتع بها الفتى تولستوي بالنسبة لدراسة اللغات الشرقية. وكان نتيجة لهذا الإعداد الجيد أن حصل تولستوي في عام 1844 في امتحانات الالتحاق بالجامعة على الدرجات النهائية في اللغتين العربية والتركية وتم قبوله كطالب بكلية اللغات الشرقية. لكنه سرعان ما تحول للدراسة بكلية الحقوق. لكن ارتباطه بالشرق كان قد بدأ.

وعلى الرغم من أن ليف تولستوي لم يصبح مستشرقًا من الناحية المهنية، لكن جذوة اهتمامه بالشرق وحبه له وولعه به لم تخبو أبداً في يوم من الأيام وكثيراً ما كان يظهر هذا الاهتمام وهذا الولع بصورة مفاجئة وغير متوقعة في مؤلفاته الأدبية والفلسفية.

لقد اجتذب الشرق القديم تولستوي قبل كل شئ بعمق أفكار فلاسفته وأصحاب العلم والمعرفة بالعقائد والأديان واهتمامهم الزائد بالجوهر الروحي للإنسان. كانت علاقة تولستوي بحكمة الشرق التي كان يعني بها قبل كل شئ علاقة الإنسان الفطري بحكمة الشرق القديم قبل فترة ظهور المستعمرات علاقة معقدة بالغة الصعوبة. فهو لم يتخيل حضارات الشرق القديمة بصورة مثالية ففيها كان نظام الرق والاستبعاد والحكم الاستبدادي وانعدام الحقوق، لكنه كان يرى في الحضارة الغربية البرجوازية المعاصرة له التناقضات الصارخة مع وجود أقل قواعد الأخلاقيات الإنسانية. أما في الشرق فقد اجتذبه قبل كل شئ عدم وجود ذلك التأثير الفاسد البغيض لقدم الرأسمالية، التي كان النبيل والاقطاعي الروسي يعرف عيوبها ومساوئها بعمق وكان ينتقدها ويبدي ملاحظاته الثائبة عنها.

كان معروفًا عن تولستوي أيضًا علاقته المتميزة والمحابية للمجتمع الريفي التقليدي القديم وبتصوره عن ذلك المجتمع بأنه مجتمع الطيبة والبساطة والعدالة. كانت أخلاقيات هؤلاء الناس البسطاء هي نقطة الانطلاق التي كان تولستوي يسترشد بها في حكمه على عالم الظلم والاستغلال. وهكذا فإنه كان يرى في مجتمع القرية الروسية التقليدي عناصر «النظام الإلهي المثالي» والعدالة، كان يراه مجتمعًا متحرراً من ظلم الحكومة والبوليس والقضاء والكنيسة الرسمية. من هنا كانت نداءات تولستوي إلى شعوب الشرق بالانعزال والابتعاد عن الحضارة والتمسك بالقديم التقليدي واتباع المبادئ التي حضت عليها تعاليمهم الدينية والأخلاقية.

وقد كان لمقالات تولستوي الملتهبة التي تضم نداءاته مع النقد الحاد اللاذع للنظام الاستعماري أثراً كبيراً في إيقاظ الشعوب المستعبدة وتفعيل تطلعاتها نحو الحرية والاستقلال. كان معروفاً ذلك الإعجاب الذي أحيط باسم تولستوي من جانب واضعي النظرية الأيديولوجية لحركة التحرر الوطني في الهند من أتباع المهاتما غاندي. قام بترجمة مؤلفات تولستوي الأدبية وعمل الدعاية اللازمة لها كبار

الكتاب والشعراء والمفكرين بالشرق أمثال غاندي، لوسين، محمد عبده، مصطفى لطفي المنفلوطي، أمين الريحاني، عمر فاخوري، محمود تيمور وغيرهم كثيرون.

كان تولستوي بدوره يقدر التراث الثقافي ـ الفلسفي الإسلامي تقديراً كبيراً انطلاقًا من تصوره أن جميع العقائد القديمة متشابهة ومتماثلة في الأسس التي قامت عليها. وكان يجد في القرآن الكريم توجيهات إلى الفضائل والصفات الحميدة مثل جعل الأمر فيما بين الناس شورى والتواضع وحب العمل والإخلاص والتفاني فيه واتقانه والحلم والتسامح والمسالمة والحب في تعامل الإنسان مع المقربين منه. كما اجتذب تولستوي في تعاليم الدين الإسلامي نهيه عن السرقة والقتل وأن يحيا الإنسان المسلم حياة تتسم بالقناعة والرضا وضبط النفس والعفة والبعد عن الموبقات والعيش في بساطة وزهد وتقشف دون بذخ أو ترف أو افراط أو اسراف. وتخير تولستوي بعناية فائقة العبارات والأقوال المأثورة من القرآن التي تحمل في طياتها هذه الأفكار والمعاني ثم أعاد صياغتها وأوردها في كتبه للقراءة والاتعاظ. ولكن ظهرت في تلك الفترة بعض الآراء السلبية عن الإسلام نتيجة لما اقترن بتطبيق سياسة الامبراطورية العثمانية خلال العشر سنوات الأخيرة من تواجدها من تعصب ديني بلغ درجة القسوة والوحشية.

وقد استرعى هذا الجانب الديني ـ الفلسفي بالذات في مؤلفات تولستوي في المقام الأول انتباه المترجمين العرب وأتباع تولستوي ومؤيدي أفكاره ولفت نظرهم وأصبح يطلق عليه «مبدأ تولستوي». وأمكن للقارئ العربي أن يتعرف على المؤلفات الأدبية الرائعة لتولستوي وعلي وجه الخصوص رواياته الطويلة الشهيرة في وقت لاحق لتلك الفترة. ذلك أن مواضيع هذه الروايات ذات النمط الروسي التي تستلزم لفهمها وإدراك كنهها المعرفة والدراية الجيدة بخصائص تاريخ وثقافة وحضارة روسيا وطبيعة الحياة والمجتمع بها في القرن الاسع عشر لم تكن دائمًا مفهومة ومستوعبة بالقدر الكافي بالنسبة للقارئ الأجنبي.

كما لعب الكاتب الاجتماعي الشهير سالم قوبين دوراً كبيراً لا يستهان به في

تعويد القارئ العربي على قراءة مؤلفات تولستوي الأدبية وتعاليمه وارتباطه بهذه المؤلفات ذلك أنه كان يترجم هذه المؤلفات بصورة مباشرة من اللغة الروسية. حصل سالم قوبين على مؤهله العلمي بمدارس الجمعية الروسية الفلسطينية الأرثوذكسية وكان ضمن خريجي الدفعة الأولى من مدرسة المعلمين بفلسطين في عام 1892. وكان يعرف اللغة الروسية والثقافة الروسية بصورة باهرة وكان متزوجًا بسيدة روسية. لذا فلم يكن من المستغرب بأي حال من الأحوال أن ينجذب شاب بمثل هذه العقلية بشغف وولع لأفكار وتعليمات ذالك المفكر الروسي العظيم.

حضر قوبين إلى مصر في عام 1901 حيث تمكن من توسيع أعمال الترجمة والنشر. فنشر في القاهرة في عام 1901 على أساس مؤلفات ليف تولستوي وأعمال روسية أخرى كتاب «تعاليم تولستوي»، ثم ترجم بعد ذلك في عام 1904 كتاب «انجيل تولستوي» وقصة «لحن كرويتزر». والواقع أن قصة «لحن كرويتزر» ظهرت مترجمة من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية في عام 1902 بمدينة ريودي جانيرو أي قبل ترجمة قوبين لها بالقاهرة بعامين. أما رواية «البعث» فقد تم نشرها مترجمة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية في حوالي عام 1900 بالقاهرة حيث قام بترجمتها رشيد حداد. لكن هاتان الترجمتان لم تكونا على المستوى الكامل من الاتقان. في عام 1909 ترجم قوبين قصة «تجديد جهنم» من اللغة الروسية من نسخة الرواية الصادرة في برلين.

لم تكن مؤلفات تولستوي فقط هي التي وجدت لها أتباعًا ومريدين من بين العرب، بل أيضًا أسلوبه المتميز في الكتابة الذي يعبر تعبيراً صادقًا عن واقع الحياة في ضوء تعليماته وأفكاره، كان سالم قوبين كغيره من معتنقي تعليمات تولوستوي في روسيا وبعض الدول الأخرى يحلم أن يعيش في إحدى قرى تولستوي النموذجية المثالية كتلك القرى التي كانت حينئذ موجودة بالفعل في روسيا وجنوب أفريقيا وأثيوبيا وبعض البلدان الأخرى.

ظهر على ساحة الأدب العربي الكلاسيكي في تلك الفترة أيضًا الشاعر

ميخائيل نعيمة الذي أنهى كذلك دراسته بمدارس الجمعية الروسية ـ الفلسطينية الأرثوذوكسية ثم استكمل دراسته في إحدى المدارس الثانوية الدينية في مدينة بولتافا بأوكرانيا.

بعد عودة ميخائيل نعيمة من أمريكا في عام 1932 إلى أرض الوطن أخذ يعيش في جبال لبنان محتذيًا بطريقة حياة تولستوي ولم يغادرها أبداً. كتب ميخائيل نعيمة يقول: «لقد أصبح منزل تولستوي في منطقة ياسنايا بوليانا» بالنسبة لي كالمنارة التي تضئ لي طريق حياتي».

أما المترجم الثاني المتحمس لأفكار تولستوي ومبادئه والقائم على نشرها والدعاية لها في جميع أرجاء العالم العربي فقد كان فرح أنطون، الذي كان يترجم للغة العربية من اللغات الأوروبية. ومثل صالح قوبين فقد كانت دراسته لصيقة الصلة بالثقافة الروسية حيث أنه كان يدرس في وقت من الأوقات في أحد المعاهد الدينية المسيحية الأروثوذوكسية الواقعة شمال مدينة طرابلس الشام. جاء فرح أنطون إلى تولستوي من خلال بحثه عن حقيقة فهمه للديانة المسيحية ومن خلال ولعه وشغفه بمؤلفات المؤرخ الفرنسي رينان الذي كان يعيش في القرن التاسع عشر عن المسيحية المبكرة. كان لرينان مؤلف شهير بعنوان «تاريخ ظهور الديانة المسيحية» حاول فيه إدراك وتفهم أساطير الانجيل بصورة منطقية وعقلانية بعد إبعاد وإزالة ما يفوق الحد الطبيعي وما هو خارق للعادة منها. كتب المستعرب السوفييتي البارز الأكاديمي كراتشكوفسكي عنه قائلاً: «يعد فرح أنطون مثالاً نموذجيًا للفيلسوف العربي المعاصر أو بمعني آخر أدق مفكر حر صاحب اهتمام بالغ بكل المسائل المتعلقة بالفلسفة الدينية أكثر من تلك المتعلقة بالنظام الاقتصادي للمجتمع». وأشار كراتشكوفسكي إلى أن فرح أنطون ظل دائمًا مصلحًا في المجال التثقيفي والتنويري الذي كان يهتم أولاً وقبل كل شئ بما يعانيه الإنسان من مشاكل ويبحث عن حقيقة عالمه الروحي وعن ذاته ويعمل جاهداً على حل مشكلة تثقيف وتنوير الفكر الشرقي».

في ضوء هذه الحقائق التي أوردناها من قبل فيما يتعلق بالاهتمام المشترك المتبادل من ناحية اهتمام تولستوي بالشرق ومن ناحية أخرى اهتمام طبقة المثقفين بدول الشرق بالإنتاج الأدبي لتولستوي وبشخصية الكاتب الروسي الفذة المتفردة، فإننا نعتقد أنه لم يكن بمحض الصدفة البحتة أن يتم تباعًا لذلك تبادل للمكاتبات والرسائل بين الكاتب الروسي ليف تولستوي ورجل الدين المصري الشيخ محمد عبده في الفترة من عام 1903 حتى عام 1905.

يرجع الفضل في تعرف ليف تولستوي بالشيخ محمد عبده وتبادل الرسائل والمكاتبات معه إلى وساطة الانجليزي سيدني كروكريل - وهو أحد المتخصصين في مجال الفن، الذي كان مهتمًا أيضًا بمشاكل مصر الاجتماعية والسياسية والذي أرسل خطاب الشيخ محمد عبده إلى تولستوي في مقر إقامته في ياسنايا بوليانا. ولا يزال تولستوي على رسالة كوكريل المؤرخة من 29 أبريل حتى 12 مايو 1904 موجوداً حتى الان ونورده فيما يلي:

إلى سيدني كوكريل.

1904، 29 من أبريل (12 مايو). ياسنايا بوليانا

عزيزي السيد كوكريل،

استمحيكم المعذرة على عدم اجابتي على رسالتكم وعدم شكركم على كتب ريوسكين. الآن تلقيت رسالة من المفتي، وأنا ممتن لكم كثيراً على ارسالها لي. إن رسالة المفتي مكتوبة بأسلوب اطرائي شرقي رفيع بحيث يصعب عليَّ الإجابة عليها.

ولكنني سوف أحاول فعل ذلك وأنا مسرور جداً للتراسل مع شخص ممتع إلى هذ الحد.

المخلص لكم ليف تولستوي

قام الكاتب المصري المعروف محود عباس العقاد بنشر هذه الرسالة التي من

المرجح أنها كانت في البداية مكتوبة باللغة الفرنسية وأن الشيخ محمد عبده كان يعرف هذه اللغة وقد كتب تولستوي إليه الرد باللغة الفرنسية. نحن أيضًا لا نعرف على وجه التحديد الدافع الذي حفز الشيخ محمد عبده إلى الكتابة إلى تولستوي. يخبرنا محمود العقاد بصورة مختصرة أن الدافع إلى ذلك يفسر بعلاقة التعاطف والتقارب التي ربطت بين المفتي المصري وليف تولستوي الذي تم حرمانه من الكنيسة وإبعاده عنها. وبالفعل فإننا نلاحظ وجود تلميح وإيماء إلى ذلك في الخطاب التالي: (رسالة محمد عبده إلى ليف تولستوي).

(أيها الحيكم الجليل مسيو تولستوي)

لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكنا لم نحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائكم ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها ووقفك على الغاية، التي هدى البشر إليها فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود ليثبت بالعلم ويتم بالعمل، ولأن تكون قوته تعبًا ترتاح به نفسه، وسعيًا يبقى به يربي جنسه، وشعرت بالشقاء، الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة ربما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها. فبها كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم.

ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه. فكما كنت بقولك هاديًا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي به الضالون، كان مثالك في العمل أملاً يقتدي به المسترشدون وكما كان وجودك توبيخًا من الله للأغنياء كان مدداً من عنايته للضعفاء والفقراء. وأن أرفع مجد بلغته، وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والرشاد هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والابعاد. فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين. فأحمد الله على أنهم فارقوك في أقوالهم، كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم.

هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك. وأنّا نسأل الله أن يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم مقولك، ويسوق النفوس إلى التأسي بك في عملك، السلام.

مما سبق نرى أن أسلوب صياغة خطاب الشيخ محمد عبده الرفيع المستوى الصعب المعقد إنما يعكس بصورة كبيرة ما يتمتع به من ذكاء حاد وبصيرة نافذة وإخلاص وصراحة وصدق. يشير المفتي رأى أنه يمكنه غيابيًا عن بعد أن يضع تصوراً عن ذلك الرباط الروحي الوثيق وتلك الأفكار السديدة التي تربط الكاتب والفيلسوف الروسي بسائر المثقفين والمستنيرين في شتى أنحاء العالم. وفي رأيه أن الله قد اختار تولستوي واصطفاه من بين الناس أجمعين ووجهه إلى «الطريق القويم إلى المعرفة». وأكبر الظن أن ذلك إنما يرجع إلي ما يتمتع من أخلاقيات ومعنويات روحية وإصرار على تحقيق «الهدف الذي يسعى إليه جميع البشر».

وهكذا فسر لنا الشيخ محمد عبده في هذه العبارات المنمقة الرفيعة المستوى وبصدق شديد أهم ما تتضمنه تعليمات تولستوي، البعيدة كل البعد عن التعصب والتطرف الديني وضيق الأفق والتي على حد قوله: «مزقت حجب التقاليد ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد بين كل الأديان».

وكما سنرى فيما بعد فإن ليف تولستوي قد التقط هذه الفكرة من الشيخ محمد عبده واقتبسها منه ففي رده على خطاب الشيخ محمد عبده نجده ينمى هذه الفكرة القريبة إلى نفسه ويطورها، فهو يرى أن العقائد والأديان قد تختلف وتتعدد، لكن الإيمان الحقيقي ـ واحد لا يتغير.

كان الشيخ محمد عبده يرى أن الجانب القوي لدى تولستوي هو اتصاله واحتكاكه بالجماهير وتوجهه بأفكاره وتعليماته بصورة مباشرة للناس. وكما أشار بأعلاه أنه استطاع أن يصل بفكره إلى عقول الناس وأن يجعل من نفسه مثلاً يحتذى به. وأن مبدأ تولستوي هذا بالذات هو الذي جعل «الجهلاء» من رجال الكنيسة يعلنون أبعاد ونفي تولستوي.

من الواضح أن خطاب الشيخ محمد عبده قد لقى لدى تولستوي صداً واسعًا واهتمامًا كبيراً إذ أنه في اليوم التالي مباشرة بعد تلقيه خطاب كوكريل المختصر يكتب الرد على خطاب الشيخ محمد عبده الذي نورده فيما يلي:

صديقي العزيز

تلقيت رسالتكم الطيبة، والفائقة الاطراء، وأسارع للإجابة عليها، كي أؤكد لكم أنها أثارت في نفسي ارتياحًا شديداً كونها وضعتني في تعاشر مع شخص مثقف، رغم أنه يعتنق دينًا آخراً غير الدين الذي نشأت وتربيت عليه، ولكنه يدين معي بإيمان واحد، لأن المعتقدات مختلفة وكثيرة العدد، ولكن الإيمان واحد فقط هو الإيمان بالحقيقة. أظن أنني لم زخطئ إذا افترضت حسب رسالتكم أن الإيمان الذي اعتنقه هو الإيمان عينه الذي تعتنقوه أنتم أيضًا وأنه يكمن في الاعتراف بالرب، وسنته، وبصحبة القريب وبأن تفعل لغيرك ما تود أن يفعله لك. أعتقد أن جميع المبادئ الدينية الحقة تنبع من ذلك وأنها هي عينها سواء بالنسبة لليهود أم بالنسبة للبراهمانيين والبوذيين والمسيحيين والمسلمين. وأظن أنه كلما ازداد تشبع الأديان بالعقائد المتحجرة والأوامر والأعاجيب والخرافات ازداد تفريقها للناس، بل وحتى توليدها العداء بينهم، وعلى العكس فكلما تزاد بساطة ونقاوة تصبح أقرب إلى بلوغ الهدف الأمثل للبشرية. التوحد العام، لهذا السبب أحدثت رسالتكم في نفسي انطباعًا طيبًا جداً وإنني لأود مواصلة التعاشر معكم.

ما رأيكم في مذهب باب بهاء الله وفي أتباعه؟

تفضلوا حضرة المفتي محمد عبده العزيز بقبول خالص مشاعر صديقكم

ليف تولستوي

يتضح من رد تولستوي على خطاب الشيخ محمد عبده أنه كان سعيداً جداً بإمكانية «أن يتعاشر مع شخص مثقف رغم أنه يعتنق دينًا آخر غير الدين الذي نشأ وتربى عليه، ولكنه يدين معه بإيمان واحد لأن المعتقدات مختلفة وكثيرة العدد ولكن الإيمان واحد فقط. هو الإيمان بالحقيقة». وفي رأي تولستوي: «أنه هو

والمفتي المصري يعتنقان نفس الإيمان الذي يكمن في الاعتراف بالرب وسنته وبمحبة القريب وبأن تفعل لغيرك ما تود أن يفعله لك».

من واقع مضمون الخطابات المتبادلة بين المفتي المصري الشيخ محمد عبده والكاتب الروسي العظيم ليف تولستوي يتضح لنا بصورة جلية لا تدع مجالاً للريبة والشك أن العقيدة التي يعتنقها كل منهما أي الإسلام والمسيحية متقاربتان ومتشابهتان في العديد من النقاط والبنود والمواضع. وأن كل منهما كان يعاني أشد المعاناة في نفس الفترة الزمنية تقريبًا من انهيار حاد في روحه المعنوية على الرغم طبعًا من أن الأسباب الموضوعية المحددة الملموسة والمحسوسة لهذا الانهيار كانت مختلفة.

كما ذكرنا آنفا فخلال فترة الثمانينيات من القرن التاسع عشر كان تولستوي يعاني معاناة شديدة من انعطاف وتحول فكري عميق أدى بدوره إلى زيادة اهتمامه بالمشاكل الاجتماعية المتفاقمة في تلك الحقبة الزمنية التي كان يعيش من بينها المشاكل التي تعاني منها الدول المستعمرة. كان النبيل الروسي يشعر ويحس بمدى حدة المتناقضات المتضاربة في الواقع الذي يعيشه، مما جعله يتخلى عن اعتقاده في عقلانية وعدالة المجتمع والمؤسسات الحكومية القائمة على هذا المجتمع. لعل تولستوي هو الكاتب الأوحد في العالم كله في تلك الفترة الذي عارض باقتناع شديد في وطنه للحضارة والثقافة الشرقية مثلما فعل ذلك تولستوي في روسيا.

أما تدهور العالم الروحي الداخلي للمفكر والداعية المصري الشيخ محمد عبده فقد كان مرجعه في الغالب لسبب خارجي: ألا وهو الهزيمة الساحقة التي مني بها أحمد عرابي في ثورته ضد المحتل الإنجليزي بالرغم من أن الشيخ محمد عبده لم يكن مؤمنًا بشرعية الكفاح المسلح لجماهير الشعب العريضة.

في عـــام 1880 عندما تم تعيين الشيخ محمد عبده رئيسًا لتحرير جريدة «الوقائع المصرية الرسمية» بدأ في الدفاع عن فكرة القيام بالاصلاحات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية في مصر بصورة تدريجية. وكان يعتقد أن ثورة

أحدم عرابي باشا قد تؤدي إلى احتلال الانجليز لمصر. وعند قيام انتفاضة عامي 1881 - 1882 اعتبر أن واجبه الوطني يقتضي دعم أحمد عرابي وأنصاره والوقوف إلي جانبهم.

بعد هزيمة أحمد عرابي تم نفي الشيخ محمد عبده إلى بيروت ثم إلي باريس وكانت سنوات النفي والاقصاء بالنسبة للمصلح المصري وقتًا عصيبًا للتأملات الفلسفية والروحية العميقة عندما فقد الشيخ محمد عبده ثقته وإيمانه بإمكانية تحرير مصر من نير الاستعمار البريطاني أصبح يتخذ موقفًا حياديًا تجاه الإنجليز من أجل تطوير الحركة الاجتماعية والتنويرية الواسعة في البلاد. كما أدي اتصاله المباشر بحضارات الشعوب الأوروبية إلى تمام الاقتناع بضرورة تحديث مصر وتطويرها في طريق التنمية الحديثة ولكن مع مراعاة الاحتفاظ بكل خصائص الحضارة المصرية القومية.

كانت الحلول التي يراها كل من ليف تولستوي والشيخ محمد عبده للخروج من المأزق الفكري تسير في اتجاه واحد، فكلاهما كان يعتقد أنه لابد من تحديث وتطوير الدين سواء الدين المسيحي أو الدين الإسلامي، وتنقيته من كل ما يشوبه من أفكار دخيلة بعيدة كل البعد عن أصل الدين.

كان تولستوي يبحث عن عقيدته الخاصة ساعيًا لتقريبها من تصورات الشعب البسيط عن العدالة والمساواة، وينتقد بكل شدة الكنيسة الرسمية نظراً لأنها كانت تخدم فقط عالم الأغنياء. وقد وجدت مؤلفات تولستوي الأدبية المعادية للكنيسة الأرثوذوكسية الروسية والتي حرم نشرها وإصدارها في روسيا والتي تمت ترجمتها إلى سائر اللغات الأوروبية الأخري... وجدت قراءها في الشرق أيضًا. وطبقًا للملاحظة التهكمية التي أبدتها موسوعة «بريطانيا» فد قبل الكتاب الشرقيون من مصر إلى الهند الإسلامية نقد تولستوي للمسيحية بالترحاب.

بعد عودة الشيخ محمد عبده إلى مصر من منفاه كرس كل جهوده من أجل ادخال بعض الاصلاحات اللازمة على الدين الإسلامي معتقداً أنه بذلك يمكن وضع

أساس للتقدم التدريجي للمجتمع المصري والإسلامي ككل. وقد ساعد تعيينه مفتيًا لمصر في عام 1899 في تحقيق هذه الفكرة. عند تفسير القرآن والسنة طبقًا لروح العصر برهن الشيخ محمد عبده وأنصاره على أنهم بعملهم هذا إنما يعيدون الإسلام إلى شكله الأصلي الخالي من كل ما يشـوبه من نصـوص دخيلة وأنهم يرفضون كل محاكاة وتقليد.

كانت هناك أيضًا نقطة تلاقي في أفكار بين هذين المفكرين العملاقين ألا وهي فكرة التنوير. كانت لديهما معايير متماثلة فيما يختص بتقييم البرجوازية (عند ليف تولستوي) والثقافة الأوروبية (عند الشيخ محمد عبده). كان الشيخ محمد عبده يتوخى الحذر والحيطة بالنسبة للاستفادة من الثقافة الأوروبية: فقد كان يستنكر التقليد السطحي الأعمى لبعض العادات الأوروبية، تخوفًا من أن يؤدي انتشار شبكة المدارس الأوروبية في مصر إلى أضعاف الروح القومية وتدعيم سلطة الاحتلال الأجنبي.

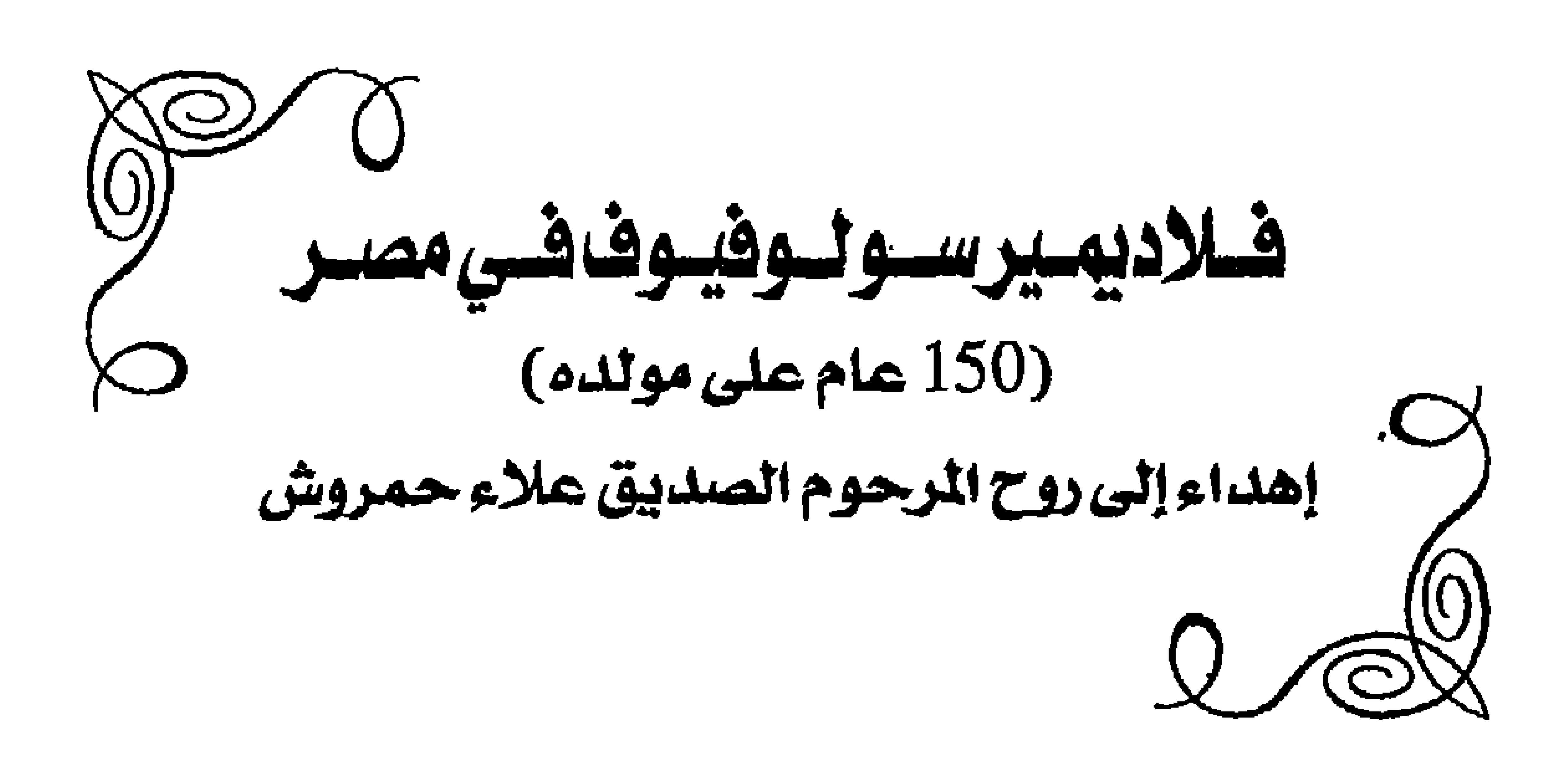
وكان يعتقد أنه يجب أن تكون تعاليم الإسلام الأصلية هي الأساس للتربية والتعليم (بالنسبة لتولستوي تعاليم المسيحية الأصلية)، ذلك أن التعاليم الإسلامية الأصلية تعد تجسيداً حقيقيًا لكل الحقائق والمثل العليا حيث تشتمل على جميع الأفكار الفلسفية والعلمية والاجتماعية المعاصرة. لقد كان هذا الحذر والحيطة فيما يتعلق بالثقافة الغربية والخوف من الابتعاد عن الانجازات والتقاليد الخاصة بكل من شعبيهما سببًا رئيسيًا في التقريب فيما بين هذين المفكرين العظيمين.

لم يكن ليف تولستوي على علم تام ودراية كافية بما يحدث في الإسلام من تغيرات ومن اصلاحات، أما ما كان يعرفه في هذا الخصوص فلم يكن مرضيًا له. لذا فقد كان من الطبيعي أن يتواصل هذا الكاتبان العظيمان فيما بينهما عن طريق تبادل الرسائل والمكاتبات والأفكار. لكن للأسف فإن هذا الحوار لم يستمر طويلاً: فـفي 11 يونيـه من عـام 1905 قضى الشيخ محمد عبده نحبه. وهكذا انقطع

التواصل فيما بينهما سريعًا بصورة تراجيدية وضاع الأمل في أن يحقق كل منهما طموحاته في إثراء معارفه وتجاربه التي كان يتمتع بها كل منهما.

مما تقدم يتضح لنا مدى التقارب والتواصل والتجاذب بين المفكرين العظيمين الذي يجسد كل منهما حضارة وثقافة الشعبين العريقين المصري والروسي.

* * * *



# فلاديمير سولوفيوف في مصر

## (150 عام على مولده)

### إهداء إلى روح المرحوم الصديق علاء حمروش

اهدي هذا الموضوع إلى روح صديقي الدائم علاء حمروش.. فلكم تحدثنا فيه معًا وأنا أتناوله في كتابي (روسيا ومصر) الذي نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 2002 وكنا نفكر معًا في إصدار كتاب «فلاديمير سولوفيوف» لكنه سبقني إلى العالم الآخر ولم يره منشوراً..

*وله مني كل الحب والتقدير حتى نلتقي*

عندما كان سولوفيوف يطالع في مكتبة المتحف البريطاني في المو ضوع لديه «صوفيا» سمع صوتًا يناديه من داخله يقول «فلتكن في مصر»!. هكذا يبدأ بالنسبة لنا وبالنسبة له نفسه هذا الموضوع المفاجئ عن مصر لكنه وفيما بعد يصبح الموضوع الطبيعي والمنطقي. وقد أثار هذا انتباهي وانتباه المرحوم علاء حمروش. لقد كنا نحن الاثنين معًا، فأنا مستعرب وهو فيلسوف ونحن الاثنين إنهينا معًا الدراسات العليا في جامعة موسكو وقررنا معاً أن نكتب دراسة قصيرة عن الشاعر والكاتب الاجتماعي الرائع فلاديمير سولوفيوف.

لقد أثر الكتاب الروسي الكبير فيودور دستويفسكي على تشكيل عقيدة سولوفيوف تأثيراً كبيراً، كما أن سوفوفيوف لعب بدوره وبشكل كبير كمبشر للرمزية وتجسدت أفكاره وتصوراته لدى الرمزيين أصحاب التيار الأدبي الثقافي الروسي في «الأنوثة الأبدية» وذلك في بداية القرن العشرين في روسيا وبشكل خاص في أشعار الشاعر الروسي العبقري الكسندر بلوك في «السيدة الجميلة»

وأما سطوره من قصيدته «اتباعا المنغولية العظمى» أصبحت عبارة مقتبسة لإشعار بلوك الشهيرة «اسقوفيون» وكتب فلاديمير سولوفيوف مقالة رائعة وموضوعية عن الإسلام.

إن كل ما أشرفنا إليه آنفًا كانت ستندرج في الكتاب الذي قررنا أنا والمرحوم علاء حمروش نشره عن حياة وإبداع فلاديمير سولوفيوف والذي أعطيناه اسمًا مسبقًا هو «فلاديمير سولوفيوف في مصر» وقد تم إرسال جزء من مسودة الكتاب إلى المرحوم علاء حمروش في القاهرة وقد تمت ترجمته إلى العربية. لكنه وفي ذروة العمل لإعداد هذا الكتاب للنشر فقدنا علاء حمروش.

لذلك وفي هذه المناسبة اهدي كلماتي إلى المرحوم الصديق علاء حمروش.

ولد الشاعر الفيلسوف فلاديمير سيرجيفتش سولوفيوف عام 1853 وتوفي عام 1900 عن سبعة وأربعين سنة من العمر وهو ابن المؤرخ الروسي المعروف صاحب كتاب (تاريخ روسيا منذ أقدم الأزمنة)، وتعددت دراسات فلاديمير بين العلوم والآداب واللاهوت والفلسفة فقد التحق بجامعة موسكو وتلقي فيها دروسًا في الرياضيات والطبيعة كما درس التاريخ وعلوم اللغة والآداب ودرس اللاهوت والفلسفة في أكاديمية موسكو الدينية واهتم بالمعتقدات الإنسانية وقدم فيها أبحاثًا هامة جلبت له شهرة واسعة وحدد هدفه في الحياة بمساعدة البشرية على الجمع بين المادي والمثالي.

وعمل مدرسًا بجامعة موسكو وعمره عشرين عامًا وحصل على الماجستير في أزمة الفلسفة الغربية ووصل إلى منصب رئيس كرسي الفلسفة.

والذي يهمني هنا عرضه من حياة سولوفيوف العريضة هو زيارته لمصر مرتين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر مما جعل لمصر أثر عميق على تفكيره الفلسفي والاجتماعي.

## الزيارة الأولى:

فـي 11 نوفـمبر 1875 في عهد الخديوي إسماعيل حضر سولوفيوف إلى مصر قادمًا من لندن أثناء دراسة في المتحف البريطاني للفلسفة الهندية، وفجأة قرر أن يزور وادي النيل ليتعرف على واحة سيوة بصفتها أول مكان مصري للديانة المسيحية كما كانت لعبادة آمون من قبل آملاً أن يهبط عليه إلهام «صوفيا» آلهة الحكمة التي حاجج بشأنها الفلاسفة وهي في نظره «الأنوثة الخالدة» أثناء توجهه سيراً على الأقدام إلى واحة سيوة منطلقًا من القاهرة، أسره البدو بالقرب من القاهرة لمدة ثلاثة أيام بدء من 25 نوفمبر 1875، ولم تثنه هذه الواقعة عن حب مصر التي جاء إليها يبحث عن «صوفيا» في هيئة لازور وكوني لامتناهي، ذي وجه نسائي كما تصوره أثناء دراسته للفلسفة الهندية في إنجلترا، وهي في حالة انفعالية تأملية فريدة.

وفي هذه الزيارة التي سنعرف تفاصيل عنها في رسائله إلى أمه حرص سولوفيوف على زيارة معالم مصر وبوحي من مصر كتب فيما بعد عودته بحثًا بعنوان (صوفيا Sophie) وهو بحث صوفي فلسفي سياسي أسطوري في شكل حوار بين الفيلسوف وصوفيا التي تعبر عن جوهر فلسفته في تضافر المثالي والمادي معًا.

وقد بقي سولوفيوف في القاهرة لمدة أربعة أشهر حتى غادرها يوم 12 مارس 1876.

## الزيارة الثانية:

بعد اثني وعشرين عامًا من الزيارة الأولى عاد إلى مصر عام 1898 ـ قبل وفاته بعامين ـ ويقال أن سبب هذه الزيارة أسطورة أن من يشرب من ماء النيل يعود إليه ثانية وأيضًا رغبته في استعادة ذكريات الشباب ولم تتوفر لنا معلومات دقيقة عن هذه الزيارة ولكنها أثمرت عدداً من القصائد منها قصيدة (دلتا النيل).

وبعد مغادرته القاهرة زار أصدقائه من آل خيتروفو قرب سانكت بطرسبورج

ليعرض الزواج على صوفيا بتروفنا خيتروفو ابنة أخت صوفيا اندريفنا تولستايا زوجة الشاعر الروسي اليكي تولستوي لكنها اعتذرت عن الارتباط به وظل طوال حياته يكن لها حبًا جمًا، وفي قرية بوستينكا نظم قصيدة (ثلاثة مواعيد) متأثراً برحلتيه إلى مصر مصوراً الأنوثة الخالدة لصوفيا المتجلية في لازوردية السماء وفي وجه المرأة في نفس الوقت وهذه القصيدة من أهمن أشعار سولوفيوف ـ كما يرى هو ـ

والآن نعرض لبعض الوثائق وهي مقتطفات من بعض رسائله إلى أمه ثم مختارات من أشعاره.

**من خطابات الزيارة الأولى:**

1- **والدتي العزيزة، القاهرة في** 18**نوفمبر** 1875:

اجتزت فرنسا وايطاليا دون توقف ركبت الباخرة الإنجليزية فيرنديزي ووصلت إلى ميناء الإسكندرية بعد ثلاثة أيام دون توقف، بعد مشاهدتي مدينة الإسكندرية خلال بضع ساعات انطلقت بالسكة الحديد إلى القاهرة.

2- **والدتي العزيزة، القاهرة في** 25**نوفمبر** 1875:

إنني أعيش في القاهرة منذ أسبوع، يستحيل على المرء إيجاد مكان أفضل من هنا لقضاء فصل الشتاء والطقس هنا كما في شهر مايو عندنا وطوال فصل الشتاء تحدث 3 أو 4 أيام ممطرة.

المعيشة هنا أغلى من لندن، لقد شاهدت هنا جميع الأماكن المشهورة تقريبًا، تسلقت هرم خوفو ونزلت إلى المدافن تحت الأرض وسبحت في النيل وشاهدت أبا الهول الحقيقي ونزلت إلى قاع بئر يوسف كما شاهدت الجوامع الرئيسية ودار الآثار المصرية الرائعة.

سوف أبقى هنا رثيما أتعلم اللغة العربية أي حوالي 4 أو 5 أشهر ثم أعود مباشرة إلى روسيا لأنه ليس لدي ما أفعله في أوروبا الغربية.

اليوم سأتوجه إلى الصحراء بعيداً عن الأماكن الرائعة هنا، عندما تتسلمين هذه الرسالة سأكون في سيوة على بعد 212 كيلو متراً تقريبًا من هنا في مكان موحش وجاهل ليس فيه بريد ولا يمكن الوصول إليه إلا سيراً على الأقدام، سأبقى حوالي شهر، تعرفت على البعض منهم نوبار باشا بسمارك الجالية الأرمينية هنا.

تحية لكِ من أبي الهول وسائر العجائب.

3- **والدتي العزيزة، القاهرة في** 28 **نوفمبر** 1875

الرحلة إلى سيوة التي كتبت عنها في رسالتي الماضية تبدت مستحيلة فبعد ابتعادي حوالي كيلو مترين عن القاهرة كاد يقتلني البدو الذين ظنوني شيطانًا أثناء الليل ولذلك عدت أدراجي.

أرجو من والدي أن يرسل 200 روبل بأسرع ما يمكن فابتداء من الأسبوع سأصبح مضطراً للعيش بالدين في الفندق ولا وجود لشقق رخيصة في القاهرة، تعرفت على البعض هنا وزرت وزير الخارجية أنه شخص أرمني داهية ولكنه غير شيق بالنسبة لي.

4- **والدتي العزيزة، والدي العزيز، القاهرة في** 8 **نوفمبر** 1876

الحادثة التي وقعت لي مع العرب سلتني أكثر مما أفزعتني سأخبرك بالتفاصيل عند لقائنا، أنا في صحة جيدة ولكنني أشعر بالملل لأن الشيء الذي سافرت من أجله يبدو مستحيلاً.

والدي العزيز، اللجنة المالية الإنجليزية التي جاءت لاستملاك مصر تلقت صفعة حادة من الخديوي وانطلقت إلى مصر العليا بخفي حنين ومن ثم عادت أدراجها إلى بلادها أما القنصل الإنجليزي فقد أعلن أن ذلك كله مجرد سوء تفاهم.

**من خطابات الزيارة الثانية:**

**والدتي العزيزة، القاهرة في** 14 **ابريل** 1898

انتقلت من الفندق إلى شقة ظنًا مني بأنها ارخص لكن ذلك كان من نسج خيالي

ولم الق هنا أي غذاء روحي وسوف أغـادر من 8 أيام إلى ايطاليا لأقيم شهراً في سوريـنتـو لأكتب مؤلفًا له محتـوى صـوفي لاهوتي فلسـفي شعـوذي سـيـاسي ديالكتيكي.

**نماذج من شعر سولوفيوف من قصيدة «دلتا النيل»:**

حقول ذهبية زمردية

سوداء التربة

فلست بالبخيلة أنت

أيتها الأرض الجهيدة الصامته

هذه الأرض المعطاء

كم من القرون استقبلت طائفة البذور والموتى

**ومن قصيدة «وطني العزيز» التي كتبها في القاهرة في أوائل 1876:**

قريبا، بعيد، لا هنا ولا هناك

في ملكوت الأخيلة الصوفية

في عالم لا تراه الأعين الفانية

في عالم بدون ضحك ودموع

هناك، عرفتك لأول مرة

يا آلهتي في الليل العقيم

كنت طفلاً غريبًا يرى أحلامًا غريبة

وظهرت أنت وصوتك يدوي غامضًا

وظللت أراك كائنًا مبهمًا لحلم طفولتي

والآن تظهرين لي من جديد بلطف وحب

ويصعقني هديرك بكلمات غامضة

اسمع في كلماتك رنين كلمة وطني العزيز

صوت الوطن في كلمات سحرية

في نور عيون لازوردية

وبريق الوطن في أشعة أثيرية

في ذهب الجدائل الرائع

**مقاطع من قصيدة (ثلاثة مواعيد):**

«كن في مصر!»

دوي صوت باطني

وإلى باريس، إلى الجنوب يحملني البخار

وحتى الشعور لم ينازع عقلي الصامت كالأبله

ها هي في أحضان البحر المختلج الأزرق

تسرع لي باخرة بريطانية حتى مصر

وفي القاهرة سمعت همسًا للنسيم في وقت هادئ بالليل:

(أنا في الصحراء ابحث عني هناك سيرًا على القدمين).

وضحكت أنت حقًا

وقد ظهرت أنا في وسط الصحراء

في قبضة عالية ومعطف فظنوني شيطانًا

وارتجف البدوي الدين لما أثرته فيه من ذعر

وكدت اقتل وسط الضجيج

وتشاور الشيوخ بالعربية

وأوثقوني من يدي كالقبر

وبلا كلام ساقوني إلى بعيد

ثم فكو قيدي وانطلقوا بنبل وكراهية

ها أنا أضحك

فالآلهة والناس على السواء

يضحكون للمصائب فور اجتيازها

واستلقيت على الأرض

وفجأة عوى الذئب وكاد يأكلني في أمانيه

ولكني لم أرفع عصا عليه

ابن آوي هذا ليس بمصيبة أما البرد فرهيب

## في ذكرى مرور مائة وسبعين عاما على ميلاد الموسيقار الروسي العظيم

# الكسندر بورودين

ولد الكسندر بورودين في 31 أكتوبر من عام 1933 بمدينة سانكت - بتروبورج. كان والده أميراً جورجيًا، أما والدته فكانت تنحدر من عائلة برجوازية تعيش في مدينة بتربورج.

حصل في طفولته على تنشئة منزلية رفيعة المستوى فقد كان يجيد التحدث بعدة لغات أجنبية وتعلم العزف على ألة الشيلو والفلوت والبيانو كما قام بتأليف بعض المقطوعات الموسيقية كهاو. في سن التاسعة ألف مقطوعة موسيقية «بولكا» للعزف على الببيانو بأربعة أيدي، أما في سن الرابعة عشر فقد حاول تجربة مقدرته الفنية في التلحين لإحدى فرق موسيقى الحجرة.

لكن الموسيقى لم تكن هي الشئ الوحيد الذي جذب اهتمام الصبي الموهوب الذي أصبح فيما بعد شاباً يافعًا نابهًا متعدد المواهب فقد اجتذبه أيضًا عالم الكيمياء التي صارت فيما بعد مهنته الأساسية. وفوي الفترة من عام 1850 حتى عام 1856التحق بالدراسة بالقسم الحر بأكاديمية الطب والجراحة بمدينة بتربورج، حيث عمل بها أستاذاً بعد الإنتهاء من دراسته بها. وفي عام 1858 حصل على درجة الدكتوراة في الطب. ثم أرسل في مهمة علمية من عام 1859 حتى عام 1862 في أوروبا الغربية.

وأثناء تواجده بالخارج يلتقي الكسندر بورودين بعازفة بيانو هاوية شابة من موسكو هي يكاترينا بروتوبوبوفا التي بتعرف من خلال العزف معها على عالم الموسيقى الرومانتيكية العاطفية لأشهر الموسيقيين مثل شوبان وليست وشومان. وسرعان ما توجا حبهما بالزواج.

بعد عودة بوروديـن إلى روسيا عمل كمساعد أستاذ بأكاديمية الطب والجراحة ثم كأستاذ ثم أصبح بعد ذلك رئيسًا للقسم. وأثناء عمله بالأكاديمية استرعى انتباهه على وجه الخصوص مركبات البروم الحمضية ومشتقاتها التي كتب عنها العشرات من الأبحاث العلمية. إن اسم بوروديـن كعالم وكباحث في مجال علم الكيمياء ليستحق أن يوضع عن جدارة في مصاف أكبر علماء الكيمياء وأشهرهم سواء في روسيا أو في أوروبا الغربية.

أجل.... مُؤلف موسيقى وعالم كيمياء ولكن ليس هذا هو كل شئ. فلقد طبقت شهرته الآفاق في مجال الحركة الاجتماعية فاسم الكسندر بوروديـن يجب أن يحتل مكانة رفيعة مرموقة في تاريخ نمو وتطوير تعليم المرأة وحصولها على أرقى الشهادات العلمية وأعلاها، إذ بفضله حصلت العديد من الفتيات على شهادات دراسية عالية في الطب في المعاهد الطبية العليا بعد الإنتهاء من دراستهن في الدورات الدراسية التي كان بوروديـن يقوم بنفسه بتنظيمها لهن.

ولكن بالنسبة لنا فإن الكسندر بوروديـن قد اكتسب شهرته أولاً وقبل كل شئ كموسيقار رائع أصيل.

وكما قيل عنه فإنه في تأليف الموسيقى من الطفولة المبكرة وقد حالفه النجاح والتوفيق في ذلك فحقق نجاحًا كبيراً. وفي عام 1862تعرف على الموسيقار ميلي بالاكيريف وعقد معه صداقة حميمة كما تعرف أيضًا على جماعته الموسيقية الشهيرة التي كانت تحمل اسم «مجموعة الجبابرة» التي كانت تحمل في نفس الوقت طابعًا اجتماعيًا وتضم بين جنباتها أعظم وأشهر الموسيقيين أمثال: ريمسكي كورساكوف، موديست موسورسكي وغيرهم من كبار وأشهر الموسيقيين. وقد بدأ بوروديـن العمل في تأليف سيمفونية «مي - بيمول ماجور» متأثراً بصورة مباشرة بهؤلاء الموسيقيين العظام.

ينتقل الكسندر بوروديـن بعد ذلك من مرحلة الهواية السطحية في التأليف الموسيقى إلى مرحلة المهارة والاتقان الفني... من الهواية إلى الاحتراف. ونلاحظ

في مؤلفاته الموسيقية ظهور عنصرين أساسيين يتجليان بصورة واضحة ساطعة هما العنصر الروسي والعنصر الشرقي. وقد برز العنصر الشرقي عند بورودين بطريقة أكثر قوة وتميزاً وثراء مما نستشعره في موسيقى موسورسكي وريمسكي كورساكوف وغيرهما من ممثلي المدرسة الروسية الحديثة في الموسيقى الذين يطلقون على أنفسهم «مجموعة الجبابرة».

وقد حققت سيمونية بورودين «مي - بيمول - ماجور» عندما عزفت لأول مرة بقيادة الموسيقار الروسي الشهير بالاكيريف نجاحًا كبيراً منقطع النظير وشهرة واسعة لبورودين في جميع الأوساط الموسيقية في روسيا. وكان لهذا النجاح أثره البالغ الفعال في زيادة حماس بورودين الذي شرع في تلحين سيمفونيته الثانية وفي نفس الوقت واصل تلحين أغاني الروماني العاطفية. وفي عام 1885 انتهى من وضع لحن «ميلوديا عربية» لأشعار الخاصة به.

وقبل ذلك بوقت طويل بدأ الكسندر بورودين في التفكير في كتابة رائعته التالية وهي أوبرا «الأمير ايجور» بعد أن وضع السيناريو الخاص بها. من أجل ذلك أخذ يدرس بكل دقة وعمق روائع الأدب الروسي الملحي الشعبي مثل «حكاية عن جيش الأمير ايجور» وغيرها من المصادر الأدبية التي أحضرها خصيصًا له الناقد الأدبي والفني الروسي الكبير ستاسوف.

استغرق الموسيقار في إعداد هذه الأوبرا وقتًا طويلاً جداً. وستميز توزيع الألحان بين آلات أوركسترا هذه الأوبرا بالأصوات العالية المدوية الرنانة والتناغم والانسجام فيما بينها والذوق الراقي الجميل في انتقاء واختيار الأجراس والمزج فيما بينها، ولكن نادراً ما يقع في بعض الأماكن ثقل لا لزوم له. وتتميز عبقرية بورودين وملكة الموسيقى المتفردة لديه بالعظمة والفخامة ووحدة المعنى العام وبالإنشراح والابتهاج وبالرصانة والاتزان الروحي والنفسي، ولكن ومع ذلك لا يستبعد الحماسة والاندفاع العفوي والرقة والعذوبة والرخامة.

يتجلى ولع الكسندر بورودين بالشرق واهتمامه به في العديد من مؤلفاته

الموسيقية من بينها: «في سهول أسيا الوسطى»، «أغنية عربية»، وكذلك في بعض أجزاء من أوبرا «الأمير ايجور». ومن البديهي والأحرى بنا أن نتوقف قليلاً عند «في سهول آسيا الوسطى» لنلقي بعض الضوء عليها باعتبارها واحدة من أهم مؤلفات بورودين الموسيقية التي يتطرق فيها إلى موضوع الشرق. وهي قصيدة سيمفونية ألفها الكسندر بورودين في عام 1880 بمناسبة اليوبيل الفضي لاعتلاء القيصر عرش روسيا، وهي على الرغم من قصرها إذ أنها في مجملها لا تتعدى السبع دقائق إلا أنها قد ساعدت أكثر من أي عمل آخر له على انتشار شهرة مولفها عالمياً ليس فقط بين المتخصصين والمتذوقين ولكن أيضًا بين عامة الناس.

في خريف عام 1879 طلب اثنان من منظمي الحفلات المرموقين من بورودين ومن بعض المؤلفين المشهورين الآخرين (وكان عددهم اثنى عشر مؤلفًا) أمثال: تشايكوفيسكي ومورسورسكي الاشتراك في مشروع فني ضخم للاحتفال باليوبيل الفضي لتولي القيصر الكسندر الثاني عرش الإمبراطورية الروسية بتقديم «تابلوهات حية» تصور الانجازات التي تحققت خلال العهد الميمون للإمبراطور. تحمس بورودين للفكرة فأسرع بتأليف القطعة الموسيقية القصيرة التي اشتهرت تحت عنوان «في سهول اسيا الوسطى» والتي أسهمت أكثر من أي عمل آخر له في تعميق شهرته. ولأسباب عديدة توقف المشروع بأكمله ولم ير النور وكان بورودين قد أتم تأليف المقطوعة الموسيقية المعهودة إليه فقام بتقديمها للجمهور في 27 أغسطس من عام 1882 بقيادة المؤلف الروسي الشهير ريمسكي كورساكوف وأهداها إلى الموسيقار المجري العظيم فرانسز ليست اعترافًا منه بجمائل الأخير عليه حيث كان أول من حثه على تأليف القصائد السيمفونية.

في سهول آسيا الوسطى... الليل عميق... والصحارى ممتدة إلى ما لا نهاية.... ينبعث من الأفق البعيد أول الأصوات الخافتة لأغنية روسية هادئة تتداخل مع الأنغام الشرقية الحزينة.... إنها القافلة... تخترق الصحراء الشاسعة تحت حماية الخيالة الروس... تسير ببطء وتقترب في طمأنينة... تدق على الرمال

ضربات حوافر الخيول وأرجل الجمال... في الهواء الصافي تنتشر الموسيقى... تتقدم القافلة... ويختلط على المسامع المارش العسكري الروسي والأغاني الشرقية للبدو والرحالة... في هذا الامتداد الصارخ يدوي الصدى طويلاً ويبقي... لكنه يأخذ في الانخفاض رويداً رويداً حتى يضمحل ويتلاشى تمامًا في الأفق البعيد.. فتكون القافلة قد مرت. تتسم مؤلفات بورودين الموسيقية بأنها تضم العديد من الموضوعات المختلفة التي يتم دمجها ببعضها البعض بمهارة فائقة مما يجعلها تتميز بالطبيعة والوضوح. لقد ألف بورودين ولحن جميع أشكال وأنواع الموسيقى تقريبًا التي يتضح فيها جميعًا عبقريته الفذة الفريدة النادرة. فأعماله كانت متعددة الجوانب والمزايا. وفي إحدى خطاباته التي أرسلها لزوجته يعترف لها فيها بأنه كان يتعين عليه أن يكون «في وقت واحد عالمًا ورئيس جوقة وممثلاً وموظفًا حكوميًا وفاعل خير وطبيبًا بل ومريضًا أيضًا في بعض الأحيان».

أما من ناحية الهيئة والمظهر الخارجي فقد كان بورودين فارع الطول، معتدل القامة، ممشوق القوام، متين البنية، ذو قوة خارقة وكأنه أحد أبطال الأساطير الروسية القديمة، بالإضافة إلى ذلك فقد كان إنسانًا مرحًا طيب القلب هادئ الطبع محاطًا دائمًا بالأصدقاء. وكان يبدو أنه سيعيش طويلاً وأن في جعبته لا تزال هناك العديد والعديد من الأفكار التي سيقوم بتنفيذها في المستقبل. لكن القدر لم يمهله لتحقيق ذلك فقد قضى الموسيقار نحبه فجأة وعلى غير المتوقع أثناء إحدى الأمسيات الاحتفالية التي كان يقضيها مع أصدقائه. حدث في الخامس عشر من شهر فبراير بمدينة سانكت ـ بتروبورج. وتم دفنه في مقابر الكسندر روفسكوي بجوار صديقه المقرب الحميم الموسيقار العظيم موديست موسورسكي.

كان من الطبيعي ومن البديهي أن تشغل بورودين عن الموسيقى وتحوله وتصرفه عنها سائر اهتماماته الأخرى المتعددة مثل: مهمته العلمية التي قضاها بعيداً خارج روسيا بصفته واحداً من أكبر وأعظم علماء الكيمياء المعترف بهم أيضًا خارج روسيا، ثم بعد ذلك التدريس في الجامعة وتوجيه الاهتمام الكبير للهيئة المختصة

بتنظيم دورات لدراسة الطب على مستوى عالي للفتيات وتدبير مختلف الأمور للأفراد الذين يلجأون إليه لمساعدتهم. ولكن إذا كان ميراث برودين الموسيقي الذي خلفه ليس كبيراً من ناحية العدد فإنه يعد عظيمًا جداً من ناحية الجودة. حيث تركت موسيقاه أثراً عميقاً لا يمحى في تاريخ فن الموسيقى كفن أصيل قائم بذاته.

لا شك أن أوبرا «الأمير ايجور» تعد بحق أبرز وأقوى إبداع فني موسيقي حققه بورودين علي وجه الإطلاق، لكن لم يتم الانتهاء من تلحينها وتوزيع الموسيقى للأوركسترا إلا بعد وفاته حيث قام بذلك أصدقاؤه من الموسيقيين أمثال: ريمسكي كورساكوف والكسندر جلازونوف وتم عرضها لأول مرة في عام 1890. وتعد السيمفونية الثالثة الغير مكتملة وأيضًا القصيدة السيمفونية» في سهول آسيا الوسطى» من مولفات بورودين القريبة جداً في تركيبها من التركيب الموسيقى الأوبرالي حيث يطالعنا هنا عالم الأمجاد والبطولات في روسيا في الماضي، ذلك الماضي الذي أحيا تلك الموسيقى التي تتميز بالقوة النابضة الفائقة وبالأصالة والتفرد الغير عادي والتناغم الرائع، بل إنها في بعض الأحيان تتميز بشعور نادر بالهزل. وعلى الرغم من أن الكسندر بورودين لم يكن يتمتع بمهارة معينة في التأليف المسرحي، إلا أن الأوبرا التي ألفها قد حازت على مشاهد من العالم أجمع وذلك بفضل ما كان يتمتع به بورودين من مهارات موسيقية على أعلى مستوى.

❋ ❋ ❋ ❋

## في ظل رئاسة مصطفى النحاس للوزارة:
## حكومة الوفد ترعى إقامة العلاقات الدبلوماسية السوفيتية - المصرية الاحتفال بمرور ٦٠ عام علي تبادل السفراء بين البلدين

الإسكندرية في ١/ ١٠/ ٢٠٠٣

سعادة الأستاذ الموقر / عباس الطرابيلي

نائب رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير جريدة الوفد - القاهرة.

تحية طيبة وبعد،،

أبعث لسيادتكم بأصدق معاني التقدير والاعتزاز لشخصكم الكريم كما نعرب عن رغبتنا في دعم العلاقات الثنائية بين مصر وروسيا.

ومن هذا المنطلق نأمل من سيادتكم تسليط الأضواء على ذكرى مرور ٦٠ عام على تأسيس العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في ظل حكومة الوفد برئاسة صاحب المقام الرفيع/ مصطفى النحاس باشا والذي يصادف شهر أغسطس ٢٠٠٣ وذلك بنشر مقالنا التاريخي المرفق.

*ونحن إذ نشكركم على عظيم تعاونكم*

*نتمنى لكم موفور الصحة والسعادة*

*مع أسمى تحياتي*

ممثل المركز والمدير العام
للمراكز الثقافية الروسية
في جميع جمهورية مصر العربية
أوليغ فومين

مدير المركز الروسي
للعلوم والثقافة بالإسكندرية
إ.د. جينادي جارياتشكين

«يرجع تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين مصر والاتحاد السوفيتي إلى ستين سنة مضت وبالتحديد في 26 أغسطس عام 1934 حيث تبادل نائب مفوض الشعب للشئون الخارجية في الاتحاد السوفيتي إيفان مايسكي ورئيس وزراء مصر ووزير خارجيتها مصطفى النحاس بإسم حكومتيها مذكرتي تفاهم تم بموجبها إقامة علاقات دبلوماسية ابتداء من السادس والعشرين من شهر أغسطس وتقضي الاتفاقية التي تم التوصل إليها بتبادل السفراء في أقرب وقت».

## «الدبلوماسي المرموق»

ووفقًا لشهادة اثنين من أبرز المستشرقين الروس وهم الدكتور أوليج فومين مدير المراكز الروسية للعلوم والثقافة الحالي لدى جمهورية مصر العربية والدكتور جينادي جارياتشكين مدير المركز الروسي بالإسكندرية للتاريخ فقد أكدا على تعيين الدبلوماسي السوفيتي المرموق نيكولاي نوفيكوف سفيراً فوق العادة كامل الصلاحية للإتحاد السوفيتي في مصر في 14 أكتوبر 1943،و وفور وصوله إلى القاهرة باشر القيام بمهامه في 23 نوفمبر من العام ذاته وبعد مضي يومين استقبل النحاس باشا السفير نوفيكوف وقال له:

«أنا سعيد بأن أحيي في شخصكم أول رسول رسمي للإتحاد السوفيتي إلى مصر وإني لأشعر بالارتياح الكبير من كون الحكومة التي أرأسها بادرت إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع بلدكم القدير وأن مبادرتنا لقيت صداها ومجيئكم إلى هنا لا اعتبره نجاحًا دبلوماسيًا لمصر فحسب بل وبداية مرحلة جديدة من تاريخنا القومي».

## «العلاقات القنصلية»

ويقول المستشرقان الروسيان أوليج فومين وجينادي جارياتشيكن إن العلاقات القنصلية بين البلدين كانت قد بدأت منذ أن كانت مصر بعد ولاية من ولايات السلطنة العثمانية وقد أقيمت بمرسوم الإمبراطور يكاترنيا الثانية في سنة 1785 وكان مقر القنصلية العامة الروسية بالإسكندرية حينئذ، وكانت خاضعة للسفارة

الروسية في اسطنبول.

وفي عـام 1905 رأس هذه القنصلية العامة أليكس سميرنوف ولم يعترف بثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى ولا بالسلطة السوفيتية وحكومتها وتبعًا لذلك قررت الحكومة المصرية إلغاء العلاقات بين مصر وروسيا، ففي 6 أكتوبر عـام 1923 قررت الحكومة المصرية حل الممثلتين الروسيتين الدبلوماسية والقنصلية وفي فبراير من عام 1924 توفي سميرنوف ودفن بمقابر مصر القديمة.

## «نزعة انعزالية»

إن غياب أية علاقات بين مصر وروسيا السوفيتية لم يكتب له أن يستمر طويلاً خاصة وإن الدول الإمبرالية نفسها راحت تعترف واحدة بعد الأخرى بالجمهورية السوفيتية ابتداء من عام 1922 وفيما كانت الحكومات الغربية تقيم علاقات دبلوماسية واقتصادية وتجارية مع الاتحاد السوفيتي راحت في الوقت نفسه تخيف البلدان الصغيرة ببعبع الشيوعية مانعة إياها من الوصول إلى السوق السوفيتية الرحيبة وكان من جراء هذا أن خسرت الدول الصغيرة كثيراً لارتباطها بالسوق الرأسمالية العالمية.. فضلاً عن أن مصر كان يهمها أن تكون لها علاقات تجارية مباشرة مع روسيا السوفيتية فتتخلص من تسويق القطن عبر بورصة مانشستر حيث الهيمنة للوسطاء التجاريين البريطانيين الذين كانوا يفرضون أسعارهم وهم يغتنمون من وراء ذلك الأرباح الطائلة.

لقد راح نواب في البرلمان المصري طيلة العشرينيات والثلاثينيات يطرحون مراراً وتكراراً السؤال التالي:

لماذا لم تقم علاقات تجارية مباشرة مع روسيا التي كانت قبل الحرب العالمية الأولي تشترى من بورصة الإسكندرية ما يصل إلى 10 بالمائة من القطن المصري الخام؟ وليست سوق روسيا الرحبة وحدها هي التي كانت تولد الحرص على إعادة العلاقات التجارية معها بل هناك أيضًا صادرات روسيا التقليدية إلى مصر من أخشاب وكيروسين... وقد تمكن الساعون إلى التجارة مع الاتحاد السوفيتي من

إحداث شرخ في السياسة الانعزالية المفروضة على مصر من قبل بريطانيا حيال الاتحاد السوفيتي فقام تبادل تجاري وإن كان غير منتظم فبلغت مشتريات روسيا السوفيتية من القطن المصري في سنوات الأزمة الاقتصادية العالمية 1928 - 1931 بما يساوي قرابة 1.7 - 3.1 ملايين جنيه في السنة مما ساعد مصر ولو قليلاً في التغلب على المؤشرات السلبية في الاقتصاد الوطني.

## «قرار سليم»

بعد هجوم الفاشيين الغادر على الاتحاد السوفيتي في يونيو عام 1941 تم اتخاذ عدة إجراءات ساعدت موضوعيًا في تقارب مصر مع الاتحاد السوفيتي وتبادل السفير البريطاني في مصر مع السلطات المحلية عدة رسائل تلخص موضعها في إلغاء الإجراءات القاسية إزاء السفن السوفيتية والتي جرى تطبيقها في الموانئ المصرية منذ عام 1926.

وفي مطلع عام 1943 بزغت مرة أخرى مسألة إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر ثم بدأت في لندن في فبراير من نفس العام محادثات بين إيفان مايسكي وحسن نشأت باشا سفيري البلدين في انجلترا وحينئذ كانت رحى الحرب العالمية الثانية لا تزال دائرة وانتشرت العمليات الحربية في القارة الإفريقية أيضًا وصول فيلق دبابات مارشال روميل على مقربة من الإسكندرية وفي ذات الوقت احكم الأبطال الذين دفعوا عن ستالينجراد الحلقة على حشود ضخمة من قوات الرايخ الثالث عند حصن الفولجا ووقتها كتبت الصحافة العربية التقدمية: «ستالينجراد أنقذت القاهرة وبغداد من خطر مهلك».

ولعل أهم ملامح التغيير على الصعيد الدولي هو ميل كفة ميزان القوى السياسية لصالح قوى التحرر الوطني التي سار الاتحاد السوفيتي في طليعتها وبديهي أن انعطاف الأحداث هذا شمل أيضًا الشعوب العربية وبينها الشعب المصري الذي حاول على مدى 60 عامًا إلقاء نير الاستعمار عن كاهله وتغير أيضًا الوضع السياسي في مصر نفسها.

## «الحكومة الوفدية»

إن نمو مكانة وسمعة الاتحاد السوفيتي بين المصريين وسعى الحكومة الوفدية إلي الاعتماد على حليف جبار في النضال من أجل الاستقلال كانا السبب الرئيسي في المبادرة التاريخية لإقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين التي دعت إليها وزارة مصطفى النحاس باشا... والجدير بالذكر أن دبلوماسيين عديدين قد أرسلوا للنحاس باشا تقارير سرية نصحوا فيها بإلحاح باتخاذ هذه الخطوة وقد اجمعوا في الرأي على أن دور الاتحاد السوفيتي قد نما للغاية خلال سنوات الحرب وأن الاعتراف به يستجيب لمصالح الأمة.. بعد ذلك اتخذت الأحداث المجرى التالي، في جلسة بتاريخ 30 يونيو 1943 أعرب مجلس الوزراء عن موافقته على إقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين وفي سفره من لندن إلى موسكو عرج إيفان مايسكي في زيارة سرية على القاهرة حيث استقبله مصطفى النحاس باشا في مقر رئيس الوزراء، حينئذ دار حديث تفصيلي بناء تم خلاله التوصول إلى قرار بالإعلان بنص موحد وفي آن واحد في القاهرة وموسكو بتاريخ 7 سبتمبر 1943 عن تبادل الدبلوماسيتين وفتح قنصليتين عامتين في البلدين.

وعينت حكومة الوفد كمال عبد الرحيم بك كأول وزير مفوض لمصر في الاتحاد السوفيتي حيث كان قبل تعيينه هذا سفيراً لمصر في تركيا وقد رافقه إلى موسكو كسكرتير للسفارة محمد عوض القوني الذي حل بعد ذلك محل كمال عبد الرحيم وشغل منصب السفير وفي السابع عشر من يونيو 1944 سلم كمال عبد الرحيم أوراق اعتماده لنائب رئيس السوفيتات الأعلى للاتحاد السوفيتي نيقولاي شفيرنيك.

وكان الملك فاروق فيما بعد معارضًا لإقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي إلا أنه رضخ في النهاية حين يئس من استمالة الإنجليز إلى جانبه بالإضافة إلى ذلك كان فاروق يخشى أن يطرح مصطفى النحاس باشا هذه المسألة في البرلمان، الأمر الذي يمكن أن يظهره كمعارض للقرار بتصدير القطن المصري إلى السوق السوفيتية الواسعة.

هكذا انتصر التفكير السليم وحظيت إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي بتأييد أغلبية الشعب المصري التي عبر حزب الوفد وقتها عن إرادتها وتطلعاتها.

## «دبلوماسية النحاس باشا»

حينما تم تكليف نيقولاي نوفيكوف بمنصب سفير الاتحاد السوفيتي في مصر قام في اليوم التالي لوصوله بأول زيارة رسمية لمصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء ووزير الخارجية وبحضور ياسين بك رئيس التشريفات في وزارة الخارجية المصرية وكامل السلاينقلي السكرتير الخاص لوزير الخارجية وعدد آخر من الموظفين شد النحاس باشا بحرارة وسرور على يد السفير نوفيكوف وحيا بود عميق ممثل الدولة المناصرة الوفية لحركة التحرر الوطني وهذا الترحاب الذي خرج عن أطر وقواعد البروتوكول الرسمي إذ قال السفير نوفيكوف:

«لي شرف كبير بتمثيل الاتحاد السوفيتي في بلد كمصر ذات التاريخ العظيم الذي يمتد إلى أعماق القرون»، ويقول نوفيكوف في مذكراته أن مصطفى النحاس باشا لم يبخل في الحديث الذي جرى بينهما فيما بعد حيث قال مصطفى النحاس باشا للسفير عند اقتراب فترة انتهاء مهامه في القاهرة: «على أن أشهد بقناعة راسخة بأن مبادئ الدبلوماسية السوفيتية تتفق وممارساتها العملية والحكومة المصرية ترحب بحرارة باعترافكم بسوريا ولبنان دولتين مستقلتين» وهذا الإجراء أكد بشكل رائع بثبات نهج السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي إزاء العالم العربي وإن لم يشجعنا على السعي إلي تحقيق الاستقلال مثل هذا الدعم فهو يبعث في نفوسنا الثقة بأن أهدافنا الوطنية والقومية ستتحقق مهما كانت العقبات.

## «نموذج مثالي»

في أواخر مارس عام 1944 تم تشكيل لجنة الصندوق المصري لمساعدة المدنيين السوفيت التي جمعت التبرعات واشترت بها الأدوية والملابس والمواد الغذائية ووضعتها تحت تصرف الجانب السوفيتي وكان يرأس هذه اللجنة التي تتكون من

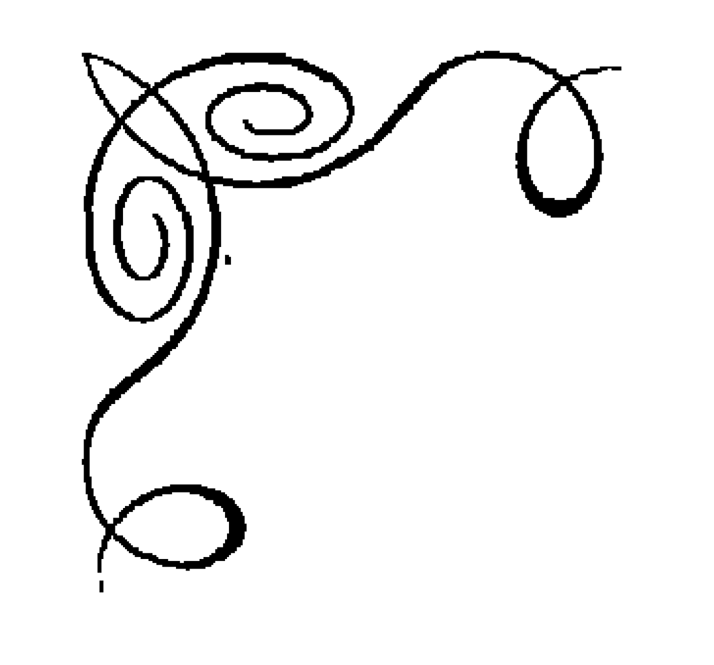
أكثر من عشرين شخصًا شريف صبري باشا رئيس وزراء سابق كما ضمت اللجنة ممثلاً عن الحكومة هو أمين عثمان باشا وزير المالية وأحد قادة حزب الوفد وشغل المفكر والأديب الكبير الدكتور طه حسين منتصب الرئيس الفخري للمكتب الإعلامي للصندوق.

وعندما أخبر كامل البنداري سفير مصر في موسكو في مارس عام 1747 نائب وزير الخارجية السوفيتي ياكوف مالك بأن حكومته قد قطعت محادثاتها مع بريطانيا العظمى حول معاهدة عام 1936 وحول وضع مصر السياسي فقال ياكوف: «إن سياستنا الخارجية تقضي بأن تحرز مصر والبلدات الأخرى المماثلة استقلالها التام وحريتها المطلقة».

وسرعان ما جاءت الأعمال مؤيدة للأقوال فعند مناقشة القضية المصرية في مجلس الأمن الدولي في أغسطس عام 1947 لم يقف إلى جانب المصريين إلا ممثلوا ثلاث دول: الاتحاد السوفيتي وسوريا وبولونيا.

ويختتم المستشرقان الروسيان أوليج فومين وجينادي جارياتشكين شهادتيهما للتاريخ بقوليهما إن العلاقات المصرية الروسية ستظل راسخة لا تتأثر بالأنواء والأعاصير التي تنوء بها من كل حدب وصوب وتشهد ازدهاراً في الآونة الأخيرة بعد الزيارة التاريخية التي قام بها الرئيس مبارك لموسكو ومباحثاته الهامة مع الرئيس فلاديمير بوتين قبل عامين وستظل علامة مضيئة على مسار العلاقات الأزلية التي تربط الشعبين الشقيقين ولعل أبرز ملامحها ترأس الدكتور أحمد فتحي سرور «رئيس البرلمان المصري» لجمعية الصداقة المصرية الروسية التي نتطلع لاستمرار الصداقة المثالية بين البلدين.

❋❋❋❋



## في ذكرى مرور خمسة وثلاثين عامًا على إقامة المركز الروسي للعلوم والثقافة بالإسكندرية

## مراحل الخبرة التاريخية للعلاقات الحضارية والثقافية الروسية - المصرية المتبادلة

في عام ١٩٤٣ تكونت ظروف سانحة ملائمة لإقامة علاقات سياسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر. فبعد ذلك الانتصار العظيم الذي حققه الشعب السوفييتي على جيوش هتلر النازية في معركة ستالينجراد الحاسمة التي أصبحت نقطة تحول كبيرة في مرحلة الكفاح والنضال ضد ألمانيا الفاشية أثناء الحرب العالمية الثانية تبوأ الاتحاد السوفيتي مكانة رفيعة مرموقة على المستوى الدولي وأصبح يتمتع بسمعة طيبة ونفوذ كبير في الساحة العالمية. وفي ذلك الوقت صرح ستالين زعيم الاتحاد السوفيتي علانية بأنه سيتم التخلي عن مبدأ تصدير الايديولوجية الشيوعية إلى سائر دول العالم الأخرى. بعد جهود شاقة مضنية بذلها أعضاء البرلمان المصري لإزالة كافة العوائق والصعوبات اتخذوا قراراً بضرورة الانفتاح على السوق السوفيتية الواسعة لاستيعاب البضائع المصرية. كما طالب أيضًا الدبلوماسيون المصريون العاملون في واشنطن ولندن وفي سائر عواصم دول العالم الأخرى باستئناف العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي. بل لقد طالب السفير المصري بالولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص بضرورة استئناف العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي....

عندما يتطرق الحديث إلى العلاقات السوفييتية - المصرية فإنه يجب علينا أن

نذكر «إقامة» العلاقات الدبلوماسية السوفييتية ـ المصرية في عام 1943، ذلك حيث إن النظام السوفييتي كان متواجداً منذ عام 1917. لكن انطلاقًا من مبدأ «حوار الحضارات والثقافات» فإنه كان من الأصح الاعتراف بمرحلة الصداقة السوفيتية ـ المصرية كفترة زمنية تدخل في نطاق الخبرة التاريخية الروسية ـ المصرية الطويلة المدى في مجال التعاون والتبادل الثقافي. من وجهة النظر هذه فإننا نملك الحق... كل الحق في أن نتحدث عن «مرور ستين عامًا على إقامة أو استئناف العلاقات الدبلوماسية الروسية ـ المصرية».

لذلك فإن إعادة هذه العلاقات الدبلوماسية تحمل بين طياتها خلفية تاريخية طويلة الأمد. ومن المرجح أن يكون ذلك سببًا في أن تكون علاقات التعاون التي أقيمت بعد ذلك أكثر قوة وأعظم رسوخًا وأكبر نجاحًا. وبالفعل فلقد كان نتاج هذه العلاقات التقليدية، وبصورة أساسية العلاقات الجديدة، الحديثة، الضرورية والملحة بين الشعبين الصديقين نتاجًا عظيمًا رائعًا من ذلك على سبيل المثال: بناء السد العالي في أسوان، مد خطوط نقل الكهرباء وإنشاء المحطات الكهربائية الفرعية، انشاء مصنع الحديد والصلب بحلوان ومصنع الألومنيوم بنجع حمادي، والترسانة البحرية لبناء السفن بالإسكندرية، انشاء المشاريع الانتاجية الزراعية بمديرية التحرير، مساعدة وتأييد ومعاضدة مصر في صد العدوان الثلاثي، التعاون في المجال العسكري، إعداد وتجهيز الكوادر المختلفة في شتى المجالات، المساعدة في إعداد كوادر الأوبرا والسيرك والبالية... وغيرها.

لم يكن انشاء المركز الثقافي السوفييتي بالقاهرة في عام 1967 وبالإسكندرية في عام 1968 مجرد اضافة منطقية لما حدث في ذلك الوقت من تعاون مثمر بناء بين مصر والاتحاد السوفييتي في شتى المجالات سواء في المجال السياسي أم الاقتصادي أم التجاري، ولكنه كان أيضًا نتيجة حتمية لتعميق وتوسيع الحوار الثقافي الروسي ـ المصري الممتد قبل ذلك.

وقد ظهر المركز الثقافي السوفييتي بحي باب شرقي بالإسكندرية من جراء قيام

مدير المركز الثقافي السوفيتي بالقاهرة السيد/ وليد أتامالي فيلا سلفاجو الذي كان أحد كبار رجال الأعمال في مصر اشتراها من أرملته وابنته. وهنا ... في واحد من أجمل وأروع مباني مدينة الإسكندرية العاصمة الثانية لمصر قد عمل في السنوات من عام 1986 حتي عام 2000 كمديرين للمركز كل من:-

1- السيد/ عادل قربانوف.

2- السيد الدكتور/ نائيل عثمانوف.

3- السيد/ فاليري فلاسوف.

4- السيد الدكتور/ بوريس روماتشوف.

5- السيد/ بوريس سيفاستيانوف.

6- السيد/ يفجيني جاركوف.

7- السيد/ روبرت أرزومانيان.

الذين كان معظمهم من المستشرقين السوفيت. وقد كان من بينهم من يجيد اللغة العربية إجادة تامة بالإضافة إلى إلمامهم بالتاريخ والأدب العربي وبالحضارة والثقافة العربية أمثال: السيد/ عادل قربانوف، دكور نائيل عثمانوف، دكتور بوريس روما تشوف، وفاليري فلاسوف.

وكان لعملية الإصلاح الشامل لمبنى المركز الروسي للعلوم والثقافة بالإسكندرية في الفترة من سبتمبر عام 2000 حتى أكتوبر عام 2003 أثراً كبيراً ملموسًا ليس فقط في المحافظة على ذلك الابداع المعماري الذي صنعته الأيدي البشرية في عام 1913، بل وقد أتاح أيضًا الفرصة من أجل توسيع وتنويع نطاق الأنشطة المختلفة التي يقوم بها المركز.

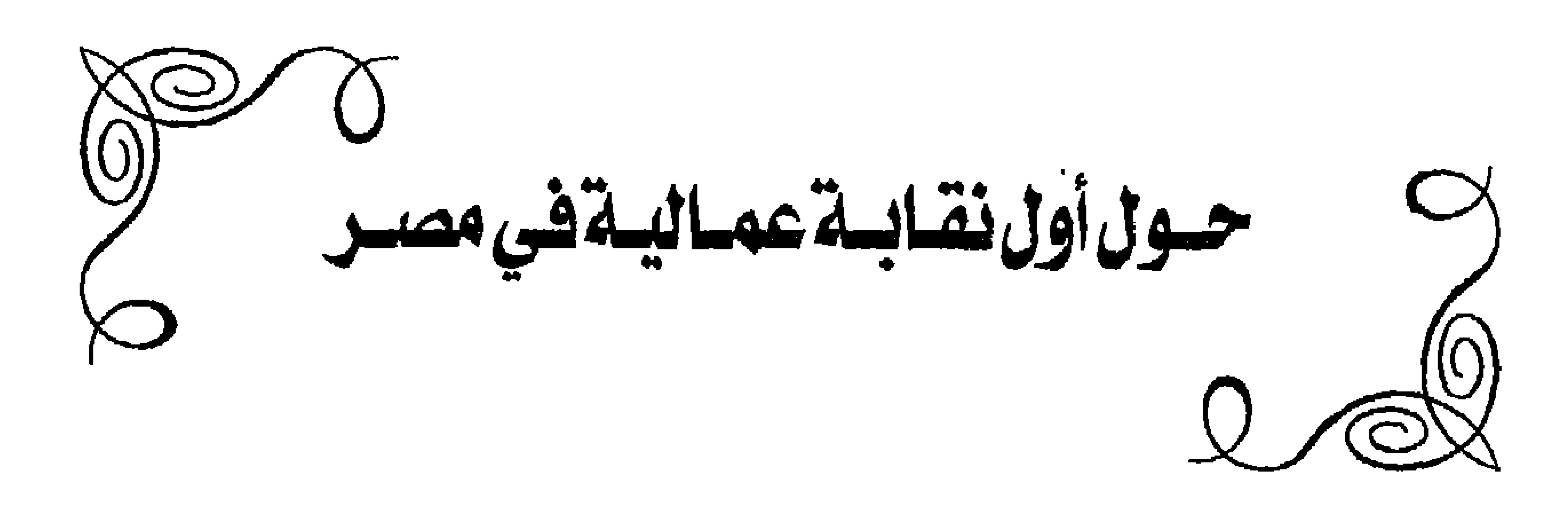
ويرجع الفضل الأكبر في زيادة عدد الاستوديوهات بالمركز وتعميق مستوى العمل بها وتوسيع الحدود الجغرافية لنشاط المركز عما كانت عليه أيام العهد

السوفييتي إلى حد ما حتى أصبح نشاط المركز اليوم يضم مدنا أخرى غير مدينة الإسكندرية مثل مدينة دمنهور إلى العمل المنسق المتكامل الذي تقوم به مجموعة العاملين بالمركز المترابطة المتماسكة التي يمتزج في عملها بنجاح كبير سن النضوج وسن الشباب، الخبرة العملية الواسعة في مجال العمل الثقافي على مدى سنوات عديدة بالمركز وحكمة العاملين بالمركز المسنين والشباب الذين يتمتعون بالإصرار والحزم والحماس والكبرياء وعزة النفس والرغبة الأكيدة في العمل بالمركز.

ومما لا يدع مجالاً للشك فإن نجاح عمل المركز الروسي للعلوم والثقافة بالإسكندرية كان مستحيلاً لو لم تكن هناك قيادة واعية مدبرة حكيمة من قبل المركز الدولي للتعاون العلمي والثقافي بموسكو برئاسة أول امرأة رائدة فضاء في العالم فالنتينا تيريشكوفا. ويدين المركز الروسي للعلوم والثقافة بالإسكندرية بالكثير مما حققه من نجاح كبير للسيد/ الدكتور أوليغ فومين ممثل المركز الروسي الدولي للتعاون العلمي والثقافي لدى وزارة الشئون الخارجية لروسيا الاتحادية والمدير العام للمراكز الثقافية الروسية في جمهورية مصر العربية. كما كان المركز ولا يزال يشعر دائمًا بالدور القيادي الفعال لكل من السيد/ نيكولاي كارتوزوف سفير روسيا الاتحادية بجمهورية مصر العربية والسيد/ نور محمد خولوف قنصل عام روسيا الاتحادية بالإسكندرية.

وبمناسبة ذكرى مرور خمسة وثلاثين عامًا على انشاء المركز الروسي للعلوم والثقافة بالإسكندرية أود أن اتقدم بخالص شكري وامتناني للمساعدة والمؤازرة والدعم الذي يقوم به المواطنون والمواطنات الروس الذين يتواجدون بأي من الأسباب في مدينة الإسكندرية، وكذلك النشطاء العديدين من أصدقاء المركز الذين يحبون روسيا وثقافتها العظيمة.

❋❋❋❋



# حول أول نقابة عمالية في مصر

تنحصر إحدى خصائص نشأة الطبقة العاملة في مصر في أن ظهور الجمعيات العمالية المبكرة في ظروف التحديث الاقتصادي تلازم في آن واحد بالكاد مع حركة الاحتجاج الاجتماعي للعمال المأجورين، وبتعبير آخر، لم يكن هناك فاصل ما بين العمل الاحتجاجي التلقائي والعمل الاحتجاجي المنظم بشكل كبير، لم يكن هناك حد فاصل بينهما بشكل واضح. كان هناك التواصل والانسجام المتبادل بين أعمال الضغط الاقتصادي التلقائية والعمل الجماعي المنظم.

**ويمكن إبراز ينبوع الحركة النقابية المبكرة في الآتي:**

1- المصري الوطني.

2- المختلط الأممي مع تغلب العمال الأجانب ولاسيما عمال الأقليات الأجنبية القاطنة في مصر بالاشتراك مع بعض العمال المصريين.

وفي تقديراتنا أن عدد هؤلاء العمال الإجراء من النمط الرأسمالي قد بلغ في عام 1882 قرابة 40-50 ألفا، كان من بينهم حوالي 10 آلاف من عمال السكك الحديدية و 10-15 ألفا من عمال الموانئ و 10 آلاف من عمال السفن وألفان من عمال شركة قناة السويس. وكان المصريون يشكلون الأغلبية الساحقة من العمال غير المؤهلين ونصف العمال المؤهلين، أما الباقون فهم أساسًا من أبناء بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط وهذا العدد 50 ألف عامل كان يكون حوالي 1.3 - 1.7 بالمائة من إجمالي قوة العمل في البلاد في ذلك الحين، أما على مشارف القرنين التاسع عشر والعشرين وقبل بداية الحرب العالمية الأولى فقد وصل هذا العدد إلى 100 ألف (2.8 بالمائة) وإلى 150 ألف (3.5 بالمائة) على التوالي كان العمال

الإجراء يتمركزون في الغالب، في القاهرة والإسكندرية والقنال وفي قطاعات الاقتصاد المصري المشار إليها آنفًا وبعض الصناعات كصناعة التبغ.

**وهكذا تشكلت الطبقة العاملة الناشئة في مصر تاريخيًا ومن الفصائل الكبيرة الثلاث:**

**1- العمال الوطنيون.**

**2- العمال الأجانب.**

**3- العمال الآثينون.**

ويجدر الإشارة هنا إلى أن هذه التقسيمة تحمل طابعًا تقريبيًا إلى حد ما. ونعني بالعمال الأجانب فئة المأجورون الذين نزحوا من البلدان الرأسمالية المتطورة – انجلترا – فرنسا – ألمانيا – الولايات المتحدة الأمريكية – كندا – النمسا – روسيا – السويد – الدانمارك وسويسرا. والعمال الآثينون هم السوريون واليهود والأرمن والإيطاليون واليونانيون أما العمال المصريون والوطنيون فهم المسلمون والأقباط. وتقدر نسبهم في إجمالي عدد الطبقة العاملة في مصر: 1-2-3- وبتعبير آخر، كان العمال المصريون يشكلون نصف العمال المأجورين كلهم والعمال الآثينون ثلثًا والعمال الأجانب سدسًا.

وتوضح بعض البيانات الخاصة بشركة قناة السويس الصورة عن تقسيمة العاملين بها ونسبهم وجنسياتهم حيث حضروا إلى مصر على مشارف القرنين التاسع عشر والعشرين. فكانت كالتالي: اليونانيون شكلوا 33 بالمائة من إجمالي عدد العاملين بالشركة المشهورة ـ المصريون 31 بالمائة – النمساويون 11 بالمائة الفرنسيون 5٪ والباقون من جنسيات أخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط ووفقًا لمعطيات جان فالية فإنه كان يعمل في مصانع القاهرة الكبري في بداية القرن العشرين حوالي ستة آلاف عامل أوروبي، يصل عدد اليونانيين منهم إلى ثلاثة آلاف، والإيطاليين إلى ألفين والباقي من الجنسيات الأخرى نصفهم فرنسيون وفي

أواسط التسعينيات للقرن التاسع عشر كان من بين 1200 عامل الذين كانوا يشتغلون في مصانع التبغ كلها في عموم مصر ثمانمائة عامل مصري - مائتا عامل يوناني - والباقي كانوا يمثلون الأرمن والسوريين واليهود وأبناء الامبراطورية النمساوية.

ويميز جان فاليه الذي أجرى دراسة ميدانية لأوضاع العمال المشتغلين في الصناعة الكبيرة بالقاهرة في 1910 - 1911 ثلاث فئات بين عمال الطوائف نظراً لمستواهم المهنيْ وشروط إيجارهم واستمراريتهم في العمل. وكانت أكبر فئة عدداً يشكلها المهاجرون حديثوا العهد وهم من غرباء غالبًا وليس لهم أي تحصيل أو اختصاص، قادتهم إلى مصر الرغبة في الإثراء السريع. فهؤلاء لا يفكرون في الغد وينتقلون باستمرار من عمل لآخر ويتقاضون - حسب رأي المسؤولين - أجوراً لا يستحقونها. لذلك فأصحاب العمل يفضلون الاستغناء عن خدماتهم.

وإذ يجد هؤلاء إذ ذاك أن مغامرتهم قد فشلت يضطرون عادة إلى العودة إلى ديارهم على حساب القنصلية أو الجمعيات الخيرية. وخلافًا لهذه الفئة التي يسميها جان فاليه بـ «القوة العاملة العابرة» يبقى العمال المؤهلون في مصر مدة طويلة إن لم يستوطنوا إلى الأبد. فهؤلاء يتمتعون بثقة أصحاب العمل ويترقون سريعًا إلى درجة الملاحظين وكثيراً ما يتيسر لأمثالهم خلال السنوات ادخار قدر من الرأسمال الذي يتيح لهم فتح ورشاتهم الخاصة. ويقول فاليه «إن العقدين من الصبر والمعاناة يعودان عليهم بثروة لم يحلموا بها في بداية الأمر». أما الفئة الثالثة فتضم ذوي اختصاصات دقيق ونادرة ممن يستدعيهم أصحاب العمل من شتى البلدان الأوروبية ويعقدون معهم اتفاقات العمل.

وعند حديثه عن العمال من أبناء الطائفة اليونانية والذين يشكلون أكبر مجموعة عدداً يقول فاليه إن معظمهم «محرومون من أية مصادر للدخل ومستعدون لأداء أي نوع من العمل. إن هؤلاء يميزهم ذكاؤهم وشطارتهم الفطرية وحيويتهم واستعدادهم عند الضرورة للتقشف وتحمل الصعوبات وقدرتهم على اتقان أية مهنة

خلال مدة وجيزة. إنهم ما يطليون البقاء في العمل الذي يتطلب منهم جهداً يدوياً ويفضلون توفير ما يسر لهم من أجورهم الحقيرة لمزاولة التجارة كخدم أولاً ثم يفتحون دكاكينهم الخاصة. وهكذا فإن الطبقة العاملة اليونانية في مصر يشكلها إلى جانب مجموعة قليلة نسبياً من العمال المؤهلين كثيرون من العمال الذين ما زالوا بعد في بداية طريقتهم المهني.

وكان العمال من أبناء الطوائف الأجنبية المحلية من حيث أحوالهم المادية يحتلون مكاناً بين العمال المصريين والعمال القادمين من أوروبا، حيث كانت أجورهم تقل عن تلك التي يتقاضها الإنكليز والفرنسيون والألمان وتزيد على أجور العمال المصريين. فيما كان سائقوا القاطرات الإنكليز يتقاضون يومياً نحو 80 قرشاً وأكثر ويتقاضى الفرنسيون والألمان ما يقل عن ذلك 20-30٪ ويتقاضى العمال المصريون في فروع الإنتاج الجديدة ما يتراوح بين 10 و15 قرشاً كانت أجور اليونانيين والطليان والأرمن ورعايا الامبراطورية النمساوية تتراوح بين 15 و30 قرشاً نظراً لتأهليهم واختصاصهم.

أما ظروف عملهم فكانت بالكاد تختلف عن تلك التي عمل فيها المصريون. فكانت الإصابات الإنتاجية بين المجموعتين كثيرة للغاية، الأمر الذي تشهد عليه الصحف في 1894، ويصف لي كاربينتيه ظروف العمل في معامل السجائر بالقاهرة قائلاً: «أنها مهنة مضرة لصحة الإنسان. فمعظم العمال وجوههم منهكة مصفرة وهم يعانون من الأمراض الصدرية والقلبية نتيجة عملهم خلال 10-12 ساعة يومياً في جو خانق مسموم. وكان العمال من أبناء الطوائف الأجنبية المحلية يسكنون فيما يسمى «بالأحياء الشعبية» التي كانت أجور السكن فيها واطئة نسبياً إلا أن الظروف الصحية ووسائل الراحة فيها كانت سيئة للغاية. ويصف فاليه معيشة عدد من الأسر المقيمة هناك قائلاً أنها «فقر مدقع وفوضى وقذارة».

ولكن سوى الظروف العملية والمعيشية إلى جانب طابع العمل والخبرة الاجتماعية - مهما كانت ضئيلة - التي أتوا بها إلى مصر من بلدان ذات تقاليد

متطورة نسبياً للصراع الطبقي العمالي هي التي دفعت العمال من الطوائف الأجنبية المحلية قبل غيرهم إلى إعلان الاضرابات وتنظيم النقابات المهنية حيث أتموا فيها تحصيلهم الطبقي. ففي أكثر من نصف الاضرابات الخمسة والعشرين الأولى التي تذكرها المراجع قبل حادثة دنشواي المشهورة في عام 1960 لم يشرك سوى العمال من الطوائف الأجنبية المحلية وحدهم. وكانوا في هذه الفترة يتقدمون في اضراباتهم بمطالب اقتصادية بحتة مثل رفع الأجور وتخفيض ساعات العمل وتحسين ظروفه وإلغاء الغرامات والخصومات وضمان أيام العطلة وفرصة للغذاء وهلم جرا. وكانت الاضرابات تتسم بقساوة وعنف، وتكتسب في أحيان كثيرة شكل العصيان يستعمل المشتركون فيه الحجارة والعصايات.

أصبح العمال من غير المصريين هم الأوائل الذين بدأوا التحدي في الستينيات من القرن التاسع عشر عن طريق الصحف الأجنبية الصادرة في مصر مثل جريدتي «البروليتاري» و«العامل».

وفي أغسطس عام 1862 أنشئت جمعية المساعدة المتبادلة للعمال الإيطاليين وهي التي بعثت في 5 فبراير 1882 ببرقية تهنئة إلى حكومة محمود سامي البارودي بمناسبة تشكيلها، ولا توجد لدينا بيانات تفصيلية حول تطور هذه الجمعية في القرنين التاسع عشر والعشرين إلا بعض البيانات القليلة التي توضح أن هيئتها كانت تتألف من خمسة عشر عضواً وهم الرئيس ونائبه والسكرتير ونائبه وأمين المخزن ومحاسب واقتصادي وستة مستشارين. وتوضح نفس البيانات إنه كانت هناك صلات وثيقة لهذه الجمعية مع القنصلية الإيطالية في الإسكندرية.

كانت رئاسة جمعية المساعدة المتبادلة للعمال الإيطاليين في القاهرة والتي أنشئت عام 1865 تتألف من 15 عضواً، وكان العمال بالذات يشكلون 40٪ من إجمالي عدد أعضاء الجمعية. وكان أحد التجار يشغل منصب نائب رئيس الجمعية وكانت هذه الجمعية تباشر نشاطًا كبيراً وسط الإيطاليين المقيمين في مصر وكانت تنظم حفلات مختلفة وتصرف الأموال التي تجمعها على أعضائها لشراء الأدوية

وما غير ذلك.

في بداية التسعينات من القرن التاسع عشر كانت تتكون جمعيات حرفية واحدة تلو الأخرى ثم تم تكوين جمعية الحلاقين الأممية في أكتوبر 1891 وفي أبريل عام 1892 تم إنشاء جمعية المساعدة المتبادلة لمساعدي المحامين ويتألف مجلس إدارة هذه الجمعية من 15 عضواً منهم 9 إيطاليين وثلاثة عرب.

وفي بداية وأواسط التسعينيات من القرن التاسع عشر ظهر عدد كبير من مثل هذه الاتحادات ابتداءً من نقابات مهنية مع اشتراك حرفيين وأصحاب أعمال إلى جمعيات الموظفين الحكوميين الاقتصادية والتعاونية واتحادات الكادحين الإجراء. وبتعبير آخر تشكلت كتلة أو عدد غفير من الجمعيات التي لابد وإن تنجم في إطارها نقابات عمالية في الظروف الاقتصادية والاجتماعية المواتية.

ومسألة ظهور أول نقابة عمالية في مصر كانت مثار بحث ودراسة عند مؤرخي الطبقة العاملة والحركة النقابية والعمالية والاشتراكية داخل مصر وخارجها، وكان معظمهم يربط اضراب عمال السجائر في القاهرة سنة 1899 بإنشاء أول نقابة عمالية في مصر بينما يقول آخرون بأنها ظهرت قبل هذا الاضراب وفريق ثالث من الباحثين يقول بأنه بعد ذلك. ويعتقد طارق إسماعيل ودكتور رفعت سعيد بأن أول نقابة عمالية قد تكونت في مصر في عام 1895 على أيدي عمال صناعة الأحذية من الأرمن واليونانيين بقيادة سيكيليا ريدس يناكاكيس.

هكذا، لا نختلف مع قول عيسوي بأن جمعيات المساعدة التي ظهرت مع بدايات تسعينات القرن التاسع عشر «كانت للعمال ذوي الأجور المرتفعة» أي للعمال من بلدان أوروبا وأبناء الطوائف الأجنبية المحلية أو بالأصح كانت عبارة عن روابط قومية مهنية غير طبقية هدفها المساعدة وأعمال البر. وكانت زعامات الطوائف تشجع تأسيس مثل هذه الروابط والجمعيات باعتبارها وسيلة لإقرار مبادئ «السلام الاجتماعي». ثم جاء دور منظمات مهنية كاتحادات لصانعي الأحذية في الإسكندرية التي كانت تضم في صفوفها على قدر المساواة الحرفيين والعمال وكانت

من حيث وظائفها قريبة من النقابات، إلا أن النقابات بمعناها الحقيقي الطبقي. لم تنشأ إلا في غمرة المعارك الطبقية.

كانت لدى الكثير من جمعيات المساعدة المتبادلة مواثيق وكانت تضم عدداً لا بأس به من الأعضاء وكانت تقدم لهم المساعدات المادية وغيرها تسهيلاً لمعيشة العمال.

وكانت بعض هذه الجمعيات من حيث أوضاعها الخاصة وتخصيصها وأهدافها ومهامها والمبادئ التنظيمية ووجود المواثيق وإلخ نقابات عمالية مبكرة.

ونميل إلى اعتبار أول النقابة العمالية جمعية الخيرية والمساعدة المتبادلة للفافي السجائر بالقاهرة التي انشئت قبل اضراب لفافي السجائر بالقاهرة في صيف 1894. وكانت هذه الجمعية تضم ما يقرب 700 عضواً بينهم 200 عامل يوناني والباقون كانوا من السوريين والمصريين واليهود خلافًا عن سائر جمعيات المساعدة المتبادلة تجاوزت هذه الجمعية اختصاصاتها الخيرية وعمدت على المواجهة المباشرة صد أصحاب معامل التبغ. ونظمت وقادت اغتصاب لفافي السجائر وهو أكبر اضراب العمال في تأريخ مصر. وكانت اللجنة الأممية المختصة من اليونانيين والسورين والأرمن والمصريون تدير هذا الاضراب.

وكانت تفرض تركيبتها وطابعها العمالي البحت سعيًا إلى تسوية عادلة في أجور اليونانيين والسوريين والمصريين وغيرهم.

إن اضراب عمال السجائر في صيف 1894 كانت له جذور ترجع إلى عام 1889 عندما توصل أصحاب مصانع التبغ في مصر فيما بينهم إلى اتفاق حول تحديد سعر موحد فيما يخص أجور عمال السجائر رغم تقسيمهم إلى ثلاث درجات - وكان العمال من الدرجة الأولى يتقاضون 26 قرشًا نظير لف 1000 سيجارة والعمال من الدرجتين الثانية والثالثة 24 و22 قرشًا. ولم يلتزم جميع أصحاب العمل بكل شروط اتفاقية عام 1899.

وكان عـمال السـجائر يحذرون الرأسماليين مراراً بهذا الصد وقام عمال إحدى كبريات الفبارق في الإسكندرية في يونيـو عام 1892 باضراب حاسم حتى أصحاب الأعمال بدقة بنود الاتفاقية المشارإليها آنفًا.

وكما يبدو وكما تقول جريدة «البوسفور لاجيسين» القاهرية (1892/6/22) لقد أدت بعض الأعمال الخرقاء لأصحاب العمل إلى أن ينشئ عمال السجائر قبل صيف عـام 1894 جمعية للمساعدة المتبادلة وكانت الصحف تسميها بأنها أكثر جمعية من حيث عضوية العمال فيها أي كانت هذه الجمعية عمالية فقط، وكانت تحمل طابعًا أمميًا، إذ كانت تضم في صفوفها حوالي 700 عـضـو منهم 200 يـونـانـي والباقون من السوريين والمصريين واليهود.

وبدأ الاضـراب في 31 مـايو1894 في معمل اليوناني ثيودور فيفيادس وقد طالب العمال برفع الأجور ورفضت إدارة المعمل مطالب العمال واستبدل المغتصبين وهم في الغالب من اليونانيين بالمصريين ونجمت مشاجرة عنيفة ما بين المضربين والذين تم تشغليهم حديثًا واستخدموا فيها الحجارة والعصي، وتدخل البوليس وفض المضربين ثم بعد ذلك تم القبض على معظمهم وحاول المضربون جذب عمال معامل ميلاخرينو إلى جانبهم بهدف وقف إنتاج السجائر وتوحيد تسعيرة صناعة السجائر في جميع معامل التبغ في القاهرة.

وكان الرأى العام يميل لصالح المضربين وعلى سبيل المثال كتبت جريدة الأهرام تقول «يستمر عندنا اغتصاب عمال السجائر بسبب أجورهم المنخفضة ونأمل من أصحاب البيوت التجارية الكبرى أن يقدموا تنازلاً لعمالهم ويرفعون لهم بعض الشئ من أجورهم التي لا تعوض لهم عملهم المرهق وصحتهم المتدهورة».

ومع انتـهاء الأسبوع الثاني تدخل الأطراف في إطار ذات «مقاييس مقلقة» واستدعى سيتل باشا الناظر العمومي إلى القاهرة كل من القنصل العام نيكولاس سكوتيدس وأصحاب المعامل اليونانية لصناعة السجائر ورئيس اتحاد عمال السجائر ونائبه وخلال المفاوضات التي استغرقت أربعة أيام ظهر بعض التقدم لكن

لم يلب أصحاب العمل مطالب العمال ولم يخف التوتر وكثرت المعارك الدموية بين المضربين والذين حلوا محلهم. وقد حاصر المضربون مشارف معامل التبغ التي تركوها منذ لحظة بداية الاضراب وقد تم القبض على أنشط المضربين ونجح المغتصبون في بعض الأحيان في تخليص زملائهم في يد رجال البوليس، وبدأت التحقيقات وعزز البوليس دورياته أمام بعض معامل التبغ وعلى سبيل المثال أمام معمل ميلاخرينو.

واتضح في ذلك الحين أن طلب العمال تصنيفًا جديداً' يقسم العمال إلى درجتين وطبقًا لهذا التصنيف يتسلم عامل الدرجة الأولي 26 قرشًا نظير لف 1000 سيجارة ويتسلم عامل الدرجة الثانية 24 قرشاً وكا هذا هو المطلب الأول للمضربين وينحصر المطلب الثاني في أن يقبل أصحاب العمل عمالاً حتى من بين أعضاء اتحاد عمال السجائر ولا يجوز فصل من اشتركوا في الاضراب وأراد المضربون عن طريق المطلب الثالث التخلص من التزامهم بدفع من 3 إلى 4 قروش لتلاميذيهم المساعدين وذلك من جيوبهم.

كما أن هناك بعض الأسباب الأخرى لاضراب عمال السجائر إذ كانت ترى جريدة "Le Phare de Port-Said" سببًا وحيداً لهذا الاضراب وهو أن العمال المصريين كانوا يتقاضون أقل من اليونانيين والسوريين وسائر عمال التبغ والنتيجة النهائية لهذا الأمر هو إحلالهم محل الأجانب والاثنين وسف يكون ذلك لصالح أصحاب الفبارق (المصانع) ولذلك طالب أغلب المضربين وهم اليونانيون والسوريون بمساواة المصريين بالاثنيين وكانت جريدة "Le Phara d'Alexandrie" تؤكد خوف العمال الأجانب والاثنيين من لجوء أصحاب المعامل في المستقبل بقبول العمال المصريين والسوريين فقط في العمل لتجنب مثل هذه الحوادث وتدل هذه المعلومات على مخاوف العمال المعينين من استغلال أصحاب العمل ذلك لمصالحهم وطبقًا لجريدة "Le Bosphore egyptien" فإنه لم يظهر بين العمال أي شئ يدل على إنتماءاتهم الوطنية.

وبعـد مـرور ثلاثـة أسـابيع من الاضراب تم حل بعض المسـائل المتـعلقـة بـتكلفـة صناعـة السجائر - لكنه وبشكل عـام لم يتنازل أصحاب الفبارق (المصانع) وسعى كل واحـد منهم إلى حل بعض المسـائل مع عـمـال مـصنعـه وحدثت مشـاجـرات بين العـمـال الذين أرادوا العودة إلى العـمـل وبين الذين أرادوا مواصلة الاضـراب وكـانت جـــريدة "Le Phare de Port-Said" تقـول أنه «من المؤسف أن يتحد العـمـال ولا يتحد أصحاب الأعمال» ووافق أصحاب العمل والعمال على تشكيل لجان للتحكيم من العمال وأصحاب - وقد كلفت هذه اللجنة بتصحيح الأخطاء الموجودة في عملية التكلفة والتسعيرة.

في نفس الوقت كانت جريدة "Le Phare d'Alexandrie" تهـدد وتقـول «إننا نعرف أن القنصلية اليونانية ورجال الأعـمال يتـخذون التدابير الصارمة ضد العـمال إذ لم يخضعوا للشروط الحالية والذين يقفون ويهددون العمـال الذين يوافقون على استئناف العمل «ثم هددت هذه الجريدة المضربين بأنه ترحلهم السلطات القنصلية في مصر إلى أوطانهم. وفي ذروة المفاوضات هددت هذه الجريدة باتخاذ كل الإجراءات الممكنة لإبعادهم عن مـصر عن طريق السلطات القنصليـة إلى جـانب ذلك ربطت الصـحف المصـرية هذا الاضـراب بالفـوضـويين. وحـاولت اقناع الرأى العام بخطورة هؤلاء المضربين ثم كتبت جريدة "Le Phare de-Said" تقـول بأنه لابد من البـحث في ربوع البـلاد عن هؤلاء الفـوضـويين الذين سـبق لهـم وأن ارتكبـوا الجـرائم في ايطاليا ثم هربوا إلى مصر.

وكان من المفترض أن تطرح مقـترحات من الجانبين مع بداية الشوط الثاني من المفاوضات إلا أنه لم يحدث أي تقارب وجرت شائعات بأن الدعم الحالي وتحريض بعض رجال الأعـمال هي التي كانت سببًا في تصليب مواقف العمال على حساب شركات ميلاخرينو واخوان كريازي.

وفي 30 يونيو التقى ممثل عن شركة ميلا خرينو ريسيس واخوان كريازي بممثلين عن المضربين في حضور مدير بوليس القاهرة فارينجتون بك الذي طلب من أصحاب

معامل التبغ قبول شروط العمال ووافق الرأسماليون على أساس 24، 26 قـرشًـا نظيــر لف 1000 سيجارة لكنهم رفضوا الشروط الأخرى وامتنع المضربون على استئناف العمل.

غير أن التهديدات الخاصة بالأبعاد عن مصر مع تلبية بعض المطالب الخاصة برفع الأجور لبعض عمال السجائر جعلهم يتنازلون ويعلنون على موافقتهم على استئناف العمل وعلاوة على ذلك أرسلت شركة ميلاخرينوا كميات من التبغ إلى فرعها في الإسكندرية، مما جعل العمال هناك يوافقون على لف 1000 سيجارة نظير 20 قرشًا فقط وذلك بدلاً من 26 قرشًا في القاهرة والتي كان يطالب بها العمال القاهريون.

وتوجه أصحاب شركة ميلاخرينو إلى بوليس مدينة الإسكندرية من أجل المساعدة وبالفعل نالت الشركة الدعم والتأييد من بوليس المدينة وعمل البوليس السكندري كل ما في استطاعته للحيلولة دون لجوء عمال التبغ إلى الاضراب، وأخيراً استمر الاضراب في القاهرة لأكثر من شهر، وكان المشتركون في الاضراب وأسرهم يعانون من المصاعب المادية ونقص المواد الغذائية والخ.

وحينما شعر المضربون بأن رجال الأعمال أصبحوا يمتلكون المبادرة حاول العمال تصحيح الأوضاع وتوجيه الأحداث إلى مجراها المرغوب فوقع حوالي 150 فرداً من المضربين على خطاب موجه إلى الحكومة المصرية وفي 11 يوليو تم تنظيم اجتماع في مطعم «الدرادو» حضر فيه حوالي 600 فرد وقرر عمال التبغ إيقاف العمل في كل مصانع التبغ في القاهرة حتى إيجاد تفاهم كامل بين أصحاب ميلاخرينو وإخوان كريازي وعمال هذين المصنعين. وقد انتخب المشتركون في الاجتماع لجنة قيادية من المصريين واليونانيين والسوريين والأرمن. وكان ذلك بمثابة اجراءات لتعزيز ودعم نفوذ رئاسة نقابة عمال السجائر.

بعد هذا الحدث اعادت قيادة نقابة عمال السجائر في القاهرة مواقعها وتمكنت من عمل شل جزئي ولمدة معينة في العمل في كبريات مصانع التبغ في القاهرة.

وفـــي 13 يوليو استقبل القنصل سكوتيدس أصحاب معامل التبغ الكبار وطلب منهم الوصول إلى اتفاق مع العمال وثبت رجال الأعمال على مواقفهم وعلى حقهم في قبول أو فصل أي عامل وعلى اختلافهم سواء كان هذا العامل من أعضاء أية جمعية أو من غير ذلك كما أكدوا على موقفهم من تكلفة لف السجائر وأخيراً كون الرأسماليون لجنة تحكيم من رجال الأعمال تتولى حل النزاعات مع العمال وإلى جانب ذلك توصل أصحاب معامل التبغ إلى ضرورة إنشاء اتحاد لهم وعدم تقديم أية فرصة عمل للمضربين الذين يرفضون شروطهم وقد تم إدراج ذلك في المذكرة التي سلمت إلى سكوتيدس ليسلمها بدوره إلى سيتل باشا.

وفـــي 15 يوليو اجتمع نشطاء جمعية عمال السجائر في وزارة الداخلية عند سيتل باشا تم فيه القبول والتصديق على التكلفة الجديدة للسجائر على أساس 24، 22، 26 قرش للف 1000 سيجارة لكن بشرط واحد وهو ألا يزيد عدد العمال من الدرجة الأولى عن 20٪ من إجمالي عدد عمال التبغ.

وكـــتـــبت "Le Phare d’Alexandrie" تقول وهي تقيم هذه الاتفاقية «إنه وبالرغم من ضربات خفيفة نالت المنشقين عن الاضراب إلا أن عمال السجائر لم يصلوا إلى حد التمرد والعصيان وهذا شرف لهم ومن جهة أخرى فإن أصحاب ومديري معامل التبغ قاموا بتنازلات عاقلة للعمال ولا يتبقى لنا إلا تهنئتهم لقاء صبرهم الجميل هذا».

وتطابق هذا التقييم مع تقييم الدبلوماسي الروسي الذي كتب يقول «إن سوء التفاهم بين أصحاب العمل والعمال قد أزيل، وحصل الأخيرون على تنازلات كبرى من التجار وأصحاب المعامل». وتنفيذاً لهذا القرار إنشاء أصحاب معامل صناعة السجائر نقابتهم وجرت فـي 22 يونيـو 1894 انتخابات مجلس الإدارة - وهذا يعتبر نتيجة هامة لنشاط أول النقابات العمالية في مصر والتي من أجلها قمنا بهذا البحث.

وفي النهاية وهكذا كما تأكدنا قام اتحاد عمال السجائر في القاهرة بتنظيم

المعركة الحاسمة مما يدل كذلك على ضرورة تسميته بأول نقابة عمالية في تاريخ الطبقة العاملة المصرية والحركتين العملية والنقابية، وقد دافعت المنظمة الاجتماعية لعمال السجائر بالعاصمة وبعناد عن حقوق أعضائها الاقتصادية مطالبة برفع الأجور وتحريم تشغيل الأحداث على حساب نقود العمال والاعتراف بالنقابة. ولا علم هل كان لدى هذه الجمعية ميثاق أم لا، غير أن النقابة كانت تتميز بالتنظيم الدقيق والثابت نسبيًا

كما كانت لديها أيضًا نواة قيادية أممية تتكون من الرئيس والسكرتير وأمين المخزن. وكما يبدو كانت النقابة تجمع الاشتراكات لكن ذلك لم يكن كافيًا لإنجاح هذا الاغتصاب الكبير ونتيجة لذلك قام المشاركون في هذا النزاع الطبقي باختيار لجنة قيادية من وسطهم لتدير سير الاضراب.

ونتيجة للتنظيم الدقيق فقد نفذت مطالبهم تمامًا كما أدى موقف النقابة الصلب الثابت إلى تشكيل لجنة التحكيم المكونة من العمال وأصحاب العمل.

وربما مع إحراز الأهداف الموضوعة أما المضربين وكما حدث مراراً وتكراراً في تاريخ البلدان العديدة اختفت ضرورة وجود اللجنة القيادية وضعفت معها بالتدريج فعالية الرئاسة الدائمة ونظراً لانخفاض نشاط أعضاء هذه النقابة لم يكن يسمع ولا يذكر عنها شئ لا في الصحف المصرية ولا في أي مصدر آخر يكون في متناول يدنا.

وفي نهاية عام 1896 جاء في جريدة «الشرق» القاهرية معطيات عن تكون نقابة لعمال معامل التبغ في القاهرة بهدف «مراعاة مصالح العمال والدفاع عن حقوقهم» وتشير هذه البيانات إلى محاولة إحياء نقابة عمال السجائر.

وفيما بعد كان نشاط اتحاد عمال التبغ الأممي الذي تكون في خريف 1899 أكثر تأثيراً - ويعتبر هذا الاتحاد في رأينا واعتقادنا الراسخ ليس إلا صورة من جمعية عمال السجائر عام 1894 لكن على أساس جديد من حيث نوعيته.

لكن قارئنا المحترم يعرف ذلك من مؤلفات أمين عز الدين - رؤوف عباس - سليمان النخيلي - عبد المنعم الغزالي وعدد غير قليل من باحثي الطبقة العاملة المصرية الآخرين وانظر أيضًا إلى اطروحتي لدكتوراه الدولة غير المنشورة، ص 348 - 349.

# خاتمـة

وفي الواقع فقد اسفرت الاضرابات على تخوم القرنين عن نشوء أول اتحادات عمالية نقابية ومن بينها الاتحاد الدولي للعاملين في صناعة السجائر الذي كان مجلس إدارته يضم اليونانيين والطليان والمصريين وأبناء قوميات أخرى. وقد قاد هذا الاتحاد اضرابًا اشترك فيه نحو ألف وخمسمائة فرد من العمال اليونانيين والمصريين والطليان واليهود والسوريين والأرمن وحتى الألمان العاملين في أكبر مصانع التبغ التي كانت سجائرها تتمتع بشهوة عالمية وانتهى الاضراب في فبراير عام 1900 بانتصار العمال. غير أن أسياد المصانع لم يلبثوا أن أخذوا بالاتفاق الذي تم التوصل إليه. فقام الاتحاد بتنظيم سلسلة أخرى من الاضرابات التي لم تؤد أية منها إلى نتيجه بل انتهت بأبعاد قادتها اليونانيين من مصر.

ويجب الإشارة هنا إلى الدور الذي لعبته في ابعادهم القنصلية اليونانية. وقد لاقت في ذلك بالطبع كال التشجيع من جانب السلطات الاستعمارية من ناحية، ومن زعامة الطائفة اليونانية، من ناحية أخرى، أي من أصحاب العمل في الفبارق التي شملتها الاضرابات. وبالمناسبة نقول أن وجود النظام الطائفي بحد ذاته بغض النظر عما إذا كان الحديث يدور عن الطائفة اليونانية أو الإيطالية أو الأرمنية او اليهودية أو السورية وغيرها كان بقوته ونفوذه وصرامة تقاليده الداخلية يعترض

كثيراً تطور الحركة العمالية المستقلة في مصر. وكانت لدى زعامات الطوائف - وهي من أصحاب العمل غالبًا - أقوى أدوات التأثير في أي فرد من أفراد المجتمع الطائفي - وهي من أصحاب العمل غالبًا - أقوى أدوات التأثير في أي فرد من أفراد المجتمع الطائفي. فلديها الكنيسة مثلاً والمدرسة والمؤسسات الطبية والخيرية، ولديها الأندية الثقافية والرياضية ناهيك عن عوامل التأثير الأخرى كمؤسسات الإدارة المحلية الطائفية أو حسن العلاقة بالسلطات. وكانت تجيد استعمال كل هذه الأدوات بمهارة لإقرار جو من «السلام الطبقي» عن طريق الارشاد المباشر أو غير المباشر وإقامة نظام من الصلات العمودية الرعاوية. فعامل التبغ السوري الذي فحص ج. فاليه ظروف معيشته كان يتعذر عليه رفع صوته ضد سيده زعيم الطائفة بعد أن كان قد تلقى من الجمعية الخيرية الطائفية بلا مقابل حصته السنوية من المعونة والأدوية التي تقدر قيمتها بـ 600 قرشًا إلى جانب ما كان يتلقى - بلا مقابل أيضًا - من الفحوص الطيبة وفرصة حضور أولاده لحفلة رأس السنة. فمبلغ المعونة كبير لا يسعه رفضه كما لا يجوز الاستهتار بالعناية. أما الذين طال لسانهم فمنهم من كان من نصيبه المقاطعة ومنهم من طردوه من البلاد.

وفي ظروف كون الحركة العمالية متعددة القوميات كان يسهل شق صفوفها. وقد طبقت سياسة مستهدفة من أجل ذلك لأنه كانت الطبقة العاملة عبارة عن كتلة إنسانية غير متجانسة قوميًا ولغويًا. وهذا الواقع كان في بعض الأحيان يعترض كليًا السبيل إلى التضامن والوحدة. وقد أشار إلى ذلك ج. فاليه حين لاحظ أن «... الفوارق العرقية والدينية واختلاف التقاليد والعادات هما اللذان حالا دون الانسجام بين العمال رغم التقارب الذي حدث بينهم في أثناء العمل... إن وعيهم الطبقي لا يزال ضعيفًا للغاية...

كما كانت العلاقات بين العمال المصريين والعمال من أبناء الطوائف الأجنبية المحلية لا تخلو هي الأخرى من المشاكل إذ أن الفوارق الثقافية واللغوية وموقف المصريين التقليدي الحذر من «الخواجات» كانت بالكاد تساعد على التقارب، زد على ذلك أن اليونانيين والطليان وأبناء بعض الطوائف الأخرى كثيراً ما كانوا يخلون بالنظام العام بسكرهم وخناقاتهم العنيفة التي كانت بعضها تنتهي باغتيالات.

ومن ناحية أخرى فإن العمال الأجانب المحليين هم الذين أتوا إلى أوساط العمال المصريين بمفاهيم الصراع الطبقي وأشكال هذا الصراع وأسبابه. ويحظى بدلالة في هذا الصدد ما كتبته صحيفة «المقطم» القاهرية في الخامس من نوفمبر 1901 من أن الكلمات في المهرجان الخطابي لعمال القاهرة كانت تدوي بالطلياني واليوناني والعبري والعربي وحتى بالألماني، وأن المهرجان الذي ضم نحو ألف وخمسمائة شخص قد انتهى إلى مظاهرة سارة فيها ثلاثة آلاف عامل يتقدمهم السوري ميشال خياط وفي يده علم يحمل اسم النقابة مكتوبًا بعدة لغات.

وفي الواقع فقد أصبحت الطوائف الأجنبية المحلية عامة والعمال القادمون منها بالذات نوعًا من جسر يربط بين المصريين من ناحية وبين الأوروبيين وحضارتهم من ناحية أخرى، بما في ذلك تقاليد وتجربة الصراع الاجتماعي المعاصر.

وكان العمال الأجانب المحليون ينقلون إلى العمال المصريين خبرتهم الطبقية وكان ذلك من الأهمية بمكان إذ أن ضعف المصريين السياسي وقلة بمعرفتهم لأشكال وأساليب الصراع الطبقي كانا يجعلانهم عرضة لأشد استغلال من جانب الرأسماليين الأوروبين. وهكذا أخذ العمال المصريون على تخوم القرنين ينجرون بالتدريج إلى حركة الاضرابات والحركة النقابية.

كما كان العمال الأجانب المحليون مع المثقفين اليونانيين والطليان الذين كانوا آنذاك يترأسون النقابات وحركة الاضرابات بين العمال الأجانب المحليين هم الذين دفعوا المناضلين الوطنين المصريين أمثال محمد فريد نحو الحركة العماليه وحملوا قادة الحركة الوطنية المصرية على إدراك العمال المأجورين الخطيرة في حركة التحرر الوطني.





# الإسكندرية بين روسيا ومصر

لا يختلف إثنان على الدور البارز الذي لعبه ولا يزال يلعبه بكفاءة واقتدار الأستاذ الدكتور عمر عبد العزيز ذلك الأكاديمي القدير الذي أفنى عمره لخدمة أجيال وأجيال ممن ينهلون من علمه ويغترفون من معايير حكمته ودماثة خلقه الذي يشهد به القاصي والداني، وكان لزامًا على تسليط الأضواء علس شخصيته الفريدة من نوعها في الأوساط العلمية والأكاديمية بمناسبة الاحتفال بيوبيله أطال الله في عمره ومتعه بالصحة والعافية وزاد من علمه الذي لم يبخل به على تلامذته وزملائه وأقرانه من الباحثين والأكاديميين على حد سواء.. إن تقديرنا واحترامنا للعالم الجليل الأستاذ الدكتور عمر عبد العزيز ليس وليد اللحظة.. بل يعود إلى خريف عام 1990 وقتما كان عميداً لكلية الآداب «جامعة الإسكندرية» حيث نلت شرف لقائه وبحفاوته المعهودة ودفء ورقة مشاعره استقبلني بالترحاب في مكتبه على هامش محاضرة عقدت بكلية الآداب ولم تمنعه مسئولياته الجسام من مناقشة وجهات النظر المختلفة والتي أتاحت لي فرصة الوقوف عن قرب على عمق تفكير وإخلاص الأستاذ الدكتور عمر عبد العزيز وتفانيه في العمل بكل ما أوتي من معرفة وخبرة وعطاء مستمر طيلة عشرات السنين.. لقد تعرفت على الأستاذ الدكتور عمر عبد العزيز من خلال قيامي برحلة في ربوع جمهورية مصر العربية في إطار ما يمكن وصفه بـ «الدبلوماسية الشعبية» ضمن وفد لجمعية أصدقاء مصر في روسيا.. تلك الجمعية التي تهدف لتحقيق التقارب بين شعبينا وبلدينا وكانت رحلة ناجحة إذ على مدي أسبوعين تمكنت من إلقاء محاضرات عدة في المنتديات الثقافية خاصة في النادي الدبلوماسي المصري بالقاهرة، وفي كلية الآداب جامعة الإسكندرية وتركزت محاضراتها بهما على الحديث عن الأوضاع في

الشرق الأوسط وروسيا وعن العلاقات الروسية ـ المصرية في كافة مناحيها ومختلف جوانبها.. ومن هنا يبرز اهتمامي بالدور الذي لعبته مدينة الإسكندرية في تفعيل العلاقات الروسية ـ المصرية وما أعنيه في بحثي هو الحوار الثقافي والحضاري الروسي ـ المصري الذي يشتمل على الجوانب السياسية والتجارية والاقتصادية والثقافية.. فضلاً عن العلاقات المتبادلة بين الحضارتين والثقافتين الروسية والمصرية ومدى التفاعل والنماذج بينهما سواء أكان بصورة مباشرة أم غير مباشرة منذ فترة بعيدة عبر البحرين الأسود والأبيض المتوسط، وكذا عبر بلدان آسيا الغربية وفلسطين وسوريا ولبنان... الخ وعندما نتحدث عن نشأتها يتحتم علينا أن نعود بالذاكرة إلى فترة الحروب العربية البيزنطية وأسرى تلك الحروب والعبيد والتجار والبحارة الشجعان الذين كانوا يصلون إلى سواحل بلدينا ، ويدور الحديث هاهنا عن التقارب والصلات الروسية ـ العربية بصفة عامة والروسية ـ المصرية على وجه الخصوص والتي تعرف بعصور ما قبل الفتوحات العربية التي اتسعت مداها بعد اعتناق روسيا للمسيحية في عام 988، وقد لعبت القسطنطينية دوراً كبيراً بهذا الصدد.. إن أول محاولة ناجحة لبلوغ مصر التي تم التأكيد عليها تؤرخ بالقرن الثاني عشر عندما اعتقد عدد من الباحثين الروس أن زار الكهنة الروس من مدينة نوفجورود إلى جانب سعي الروس إلى زيارة الأماكن المقدسة في مصر.. ومن خلال مصر في فلسطين في مطلع الألفية الثانية حيث كانت مصر وقتئذ عمرها 4 - 6 الاف سنة وكانت مصر مقصداً للروس تجذبهم بتاريخها الممتد عبد العصور.. أما الحضارة الروسية (السلافيه) فلم يتجاوز عمرها الآلاف سنة وتطورت حضارة السلافيين بسرعة كبيرة لذلك كانوا في أمس الحاجة إلى الخبرة الحضارية، ولقد احتفظ التاريخ لنا بأول أثر مكتوب عن وجود الروس في مصر والذي يحكي عن رحلة ايجومن (الكاهن) دانييل إلى الأراضي المقدسة في القرن الثاني عشر وقد شكلت تلك الشهادة مقدمة لتعرف الروس لاحقًا على مصر.. وقد زار مصر عدد لا بأس به من الرحالة الروس فيما بعد وتعرفوا عليها قبل أن ينطلقوا إلى سيناء ومنها إلى القدس وكانت انطباعاتهم أحيانًا متفاوتة، وقد كتب

التاجر فاسيلي جاجارا الذي زار مصر في أواسط القرن الخامس عشر: «في النيل وحش شرير يشبه السحلية لكنه قوي جداً».. ولقد سبق المؤرخون والجغرافيون العرب نظرائهم الروس في وصف الروس وذكرهم الجغرافي العربي ابن خوردابيخ «أبو قاسم» (820 - 850م) حيث أطلق كلمة «الروس» على التجار الروس الذين كانوا ينقلون فراء الثعالب إلى بحر جورجان (أي بحر قزوين) وأحيانًا كانوا ينقلون بضائعهم على الإبل إلى بغداد ويرى الكثيرون من المستشرقين الروس المعاصرين أن ذلك الجغرافي العربي كان أول كاتب مشهور بين العرب يعرف ويكتب عن السلافيين الشرقيين وعن الروس وفقًا لملاحظاته وخبرته الشخصية وينوه ذلك الجغرافي بأن: «أما بالنسبة للتجار الروس فإنهم قبائل من السلاف».

وكتب عنهم أيضًا ابن فضلان في كتابه المسمى «كتاب ابن فضلان» عن رحلته إلى القولجا في 921 -922م والمسعودي وابن المسكافيخ وطبري الأخير في كتابه «أخبار الملوك».. وغيرهم، إن أول وصف للإسكندرية الموثق يعود إلى بداية القرن الـ 18 عندما ترك الرحالة الروس أندري اجناتييف الذي زار الإسكندرية في عام 1707 الإنطباعات الآتية عنها بقوله: «إن الإسكندرية أكثر شبابًا عن القسطنطينية. لكنها مدمرة جداً وبيوتها الكبيرة ليست إلا جبال من الحطام إذ حكمنا ببقايا سور المدينة وأدراجها وبعض البيوت السالمة يخيل إلي أنها كانت أجمل القسطنطينية لا يوجد في الإسكندرية كلها حتى بيت مسيحي واحد إنها تابعة للمسلمين.. إما أتراك وإما عرب فقط، ويوجد بها عدد كبير جداً من اليهود دون شك قد أثرت الحروب الروسية ـ التركية تأثيراً ملحوظًا على استمرارية الحوار الحضاري الثقافي الروسي العربي ومصر كانت إحدى لواءات الإمبراطورية العثمانية وهذا العامل حال دون تطور العلاقات الثنائية وتغير الوضع بعد أن تم توقيع إتفاقية كوتشوك ـ كينارجي وتأسست القنصلية العامة الروسية في الإسكندرية.. إن إقامة العلاقات السياسية سمحت بإقامة حجر الأساس لتطوير الحوار الثقافي بين الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية.. غير أن عدم استقرار العلاقات الروسية والتركية فضلاً عن الحروب الروسية ـ التركية المستمرة حالت

أيضًا دون استـثـمار مـثل هذه الظروف المواتيـة في تطوير هذا الحـوار الذين كـان ينحسر رويداً رويداً.. على الرغم من أن السفن الروسيـة كـانت ترسو في مـينا ء الإسكندرية بين الحين والآخر.. إن تحسين العلاقـات الروسيـة ـ المصرية الثنائيـة وتفعيل دور الإسكندرية فيـهـا مـرتبطان بشكل وثيق بإنشـاء الشركـة الروسيـة للبواخر والملاحة في عام 1856 وتسيير الخطين الملاحيين ما بين الميناء الروسي في أوديسـا والمصـري في الإسكندرية حـيث تأسس في بادئ الأمـر الخط الملاحي السكندري المبـاشـر، وبعـد ذلك الخط الملاحي السكندري الدائري (أوديسـا ـ القسطنطينيـة ـ بيري ـ سميرنا ـ الإسكندرون ـ بيروت ـ يافا ـ الإسكندرية). وكانت تستخدمه ثماني سفن روسية نقلت عام 1858 أثناء 42 رحلة ما بين 12 ، 4 آلاف راكب كان أغلبهم من الحجيج.. أما في عام 1858 حقق الخط الملاحي الدائري نحو 70 رحلة وتم نقل 22، 3 آلاف راكب وساهمت زيادة مستخدمي الخط المذكور في زيادة حجم التبادل التـجاري.. الأمـر الذي أسفـر عن تأسيس الخط السكندري المباشر وأصبحت الإسكندرية صاحبة وكالة الشركة للبواخر والملاحة الأكثر نشاطًا عن ذي قبل، وقد كتب مفتش تلك الشركة عند تفتيش الخط السكندري المباشر في تقريره ما يلي:

**الإسكندرية (مصر):**

الإسكندرية هي ميناء مصر الرئيسي للتصدير والاستيراد على السواء الذي تجري من خلاله كل تجارة مصر الخارجية تقريبًا ولا يبقي سوى 10٪ من الدورات التجارية من نصيب جميع سائر المرافئ الصغيرة الواقعة في بورسعيد والسويس ودمياط ورشيد وغيرها ولا غرابة في أن مدينة الإسكندرية اتسعت وهي تعتبر الآن مركزاً تجاريًا هامًا ويسكنها حتى 100 ألف من الأوروبيين.

إن الدقيق والحبوب تصل إليها من روسيا بصورة دائمة تقريبًا بكمية كبيرة وهذه المنتجات ضرورية للأوروبيين الذي لا يأكلون خبزاً مصنوعًا من الدقيق المحلي.. في الأعوام الماضية كان يجري استيراد كمية كبيرة جداً من المواشي إلى

مصر ولاسيما من روسيا ، ولكن استيرادها يقل عاماً بعد عام ومرد ذلك إلى تطور تربية الماشية في مصر نفسها.. كان يدفع لقاء إيجار المبنى الجديد (لأجل وكالة الشركة الروسية في الإسكندرية) المريح جداً 80 جنيـ ا مصريًا فقط وهو إيجار رخيص جداً.

وتعزز النجاح بإنشاء الغرفة التجارية الروسية عام 1903 وعقد إتفاقية التعاون التجاري والملاحي بين روسيا ومصر عام 1909.. وما يؤكد الأحداث الثورية في روسيا مطلع القرن العشرين حيث كانت تشكل بفضل الوضع المعقد لهذا البلد في العلاقات الدولية موقعًا لمثلي التيارات السياسية الأجنبية من أجل أهدافهم الثورية.. إن مصر التي احتلها الإنجليز 1882 وأصبحت فيما بعد مستعمرة لبريطانيا العظمى بقيت بمظهر الدولة الواقعة تحت الرقابة الدولية على أساس ما يسمى بالامتيازات الأجنبية وفي نفس الوقت كانت مصر تدخل في عداد الإمبراطورية العثمانية، وقد فقدت إلى حد ما التبعية للباب العالي.. إن الصراع الإمبريالي لكسب مصر أعطى النشاطات والأعمال القانونية لممثلي التكتلات السياسية التي تعارض الحكومات الأوروبية ولنظام السلطان العثماني عبد الحميد أعطتها الإمكانية للقيام بهذه الأعمال والأكثر من ذلك فإن السلطات الاستعمارية البريطانية وعلى رأسها المعتمد البريطاني العام اللورد كرومر وهي تأمل أن تظل السيد الوحيد ذات السلطة المطلقة في مصر قد أغمضت أعينها عن نشاطات الأتراك والمعارضين الأوروبيين، وبهذا الشكل كانت تحاول تشويه صورة نظام الامتيارات الأجنبية التي كانت تستخدمها السلطات القنصلية وتمارس الضغوط على السلطان التركي، وقد كان الثوار الروس يضعون في اعتبارهم هذه الظروف المواتية لاستخدام الإسكندرية في أغراضهم بهدف إنشاء «الطريق المصري» لنقل جريدة (الإسكرا) من أوروبا حيث كانت تطبع نظراً لمنعها في الإمبراطورية ذاتها إلى روسيا عبر الإسكندرية وكان يتحتم على هذه الجريدة توفير الظروف الملائمة التي ساهمت في تأسيس حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي الذي أنجز ثورة أكتوبر الاشتراكية في عام 1917 بقيادة لينين.

لذلك أقـام أنصار لينين في حي الجمرك بالإسكندرية «مطعم سيفاستوبول» والذي لم يكن مجرد مركز لنقل المطبوعات الثورية إلى روسيا نظراً لقربه من الميناء فحسب ولكن كان يتم قراءة الكتب الممنوعة وتدور مناقشة المسائل السياسية الساخنة وسط البحارة الروس في هذه المدينة، وبعد ذلك بقليل نقل الدبلوماسي الروسي أليكس سمرنوف في مصر إلى وزارة الخارجية بقوله: لقد لاحظ البعض من العاملين في قنصليتنا في الإسكندرية ومراراً وجود مخالفات وخرق للنظام وسط بحارة الشركة الروسية للبواخر والتجارة وحسب ملاحظات قادة السفن يمكننا التسليم بأن هؤلاء البحارة بوصولهم إلى ميناء الإسكندرية يقعون في مناخ ذا تأثير ضار وتحت هذا «التأثير الضار» كان يتواجد هنا في الإسكندرية ليس فقط بحارة السفن التجارية وإنما أيضًا البحارة العسكريون.. إن السلطات القنصلية قد نبهت مراراً المتعاملين مع الشركة الروسية للبواخر وقادة السفن الحربية بهذه الحقيقة وأنها ألمحت بشكل خاص إلى مطعم «سيفاستوبول» وقام قادة البواخر بدورهم بمنع أفراد طواقم سفنهم من زيارة مكتب يوزيوفوفنش وإلى جانب ذلك حاول الدبلوماسيون الروس جذب إنتباه السلطات البريطانية والمصرية إلى «النشاطات الهدامة» لصاحب مطعم سيفاستوبول.. لكن هذا المسعى لم يأت بنتائج إيجابية ولم يحقق المرجو منها.. وحسب كلمات كوياندير رئيس البعثة الدبلوماسية في القاهرة فإن التوجه إلى الحكومة المحلية كانت بلا فائدة لأنه بالنظر إلى الحماية المكشوفة التي يقدمها الإنجليز إلى جماعات تركيا الفتية التي تقوم هنا بالدعاية المعادية للسلطات وأنهم لا يخجلون من مد هذه الحماية إلى العناصر الثورية الروسية أي أن المسألة لم تكن تخص جماعة تركيا الفتية فقط.

واستكمالاً للحديث الذي بدأناه عن نشاط الثوار الروس في الإسكندرية ففي شهر يناير عام 1907شهدت الإسكندرية مظاهرات عنيفة قادها ممثلو الأقليات الأجنبية احتجاجًا على أسر ثلاثة من الثوار الروس الذين شاركوا في الانتفاضة الثورية في مدينة أوديسا الروسية في عام 1906، ومحاولات السلطات القنصلية الروسية لنقلهم إلى روسيا ولم تتمكن القنصلية الروسية من نقلهم على متن الباخرة

الروسية في ميناء الإسكندرية لكنها استطاعت اقصائهم من مصر عبر بور سعيد.

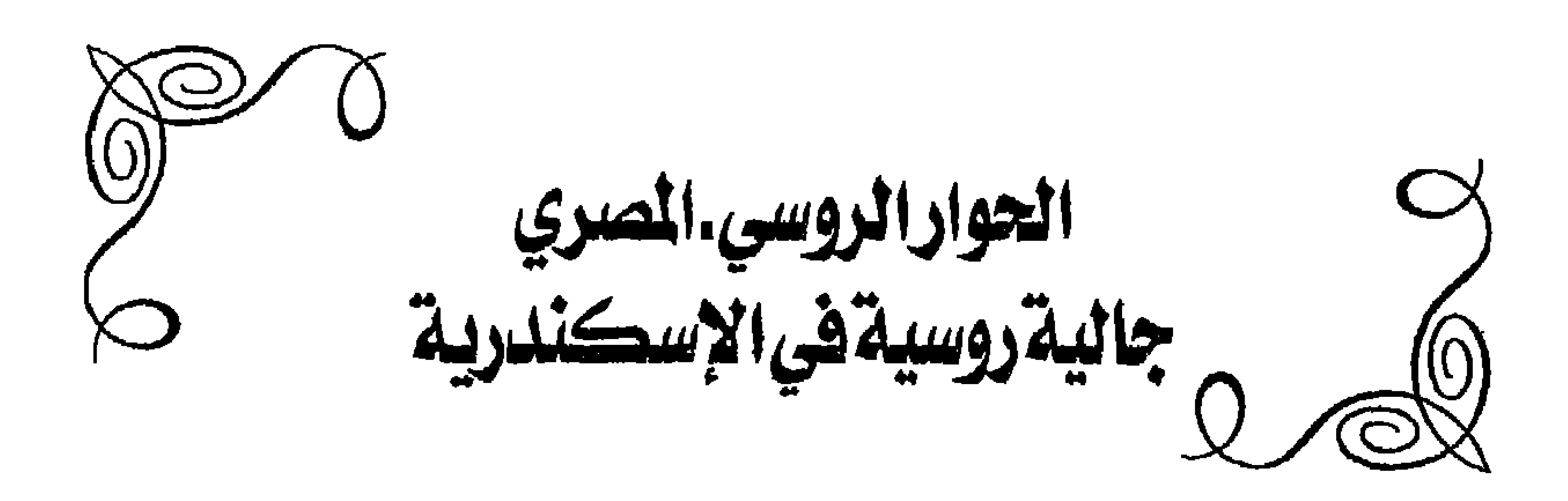
كما توجد صفحات أخرى تشير إلى استخدام الثوار الروس لأرض مصر لتحقيق أهدافهم الموجهة ضد القياصرة.. فقد أنشأوا في عامي 1912 - 1913 مـركـزاً للحركة النقابية الثورية الروسية في الإسكندرية وكان من أهم خدماته إصدار مجلة «مورياك» (البحار) ابتداء من أكتوبر عام 1912 التي تهدف إلى إنشاء نقابة لبحارة البواخر التجارية في البحر الأسود وهيئتها الأساسية كانت تضم قوى كبرى وتقيم صلات وثيقة مع حزب العمال الاشتراكي في روسيا تحت قيادة لينين.

حتى في «الموسم الميت» وأعني به فترة قطع العلاقات الدبلوماسية بين روسيا ومصر في أعوام 1917 - 1943 تبلورت أهمية الإسكندرية في الحوار الروسي - المصري الحضاري والثقافي.. حيث أعطت مأوي لبضعة آلاف روسي من البيض الذين هاجروا روسيا بعد ثورة 1917 وأثناء الحرب الأهلية فيها في سنوات 1920 - 1917 - وجدوا هنا وطنًا ثانيًا لهم وساهموا مساهمة كبيرة في الحياة الثقافية والاجتماعية للإسكندرية على مدى عشرات السنين.

هكذا كان الحوار الروسي - المصري ودور الإسكندرية في ترسيخه ظل مستمراً على الرغم من عدم وجود العلاقات السياسية الثنائية في مطلع الحقبة السوفيتية منه ولم يقتصر الأمر على الحديث عن الصلات السياسية والاقتصادية والتجارية بل إمتد ليشمل كافة جوانب الحوار المستمر والممتد، ولقد كتب الكثير عن الحقبة السوفيتية من علاقاتنا التي بلغت ذروتها وما يؤكد ذلك هو ترسانة الإسكندرية التي ظلت ولا تزال رمزاً للصداقة والتعاون بين البلدين حيث كانت مئات السفن السوفيتية ترسو في الإسكندرية بفضل تواجد الممثلية التجارية والبحرية بها.. وعلي حد تعبير أحد الدبلوماسيين السوفييت القدامى الذي كان يشتغل في القنصلية السوفيتية العامة في عاصمة مصر الشمالية ضمن أكثر من عشرين دبلوماسي والآن يعمل بها ثلاثة فقط «إذ بعد تفكك وزوال الاتحاد السوفيتي والتغيير الكامل والتام الذي طرأ على البنية الأساسية للنظام الاقتصادي

والاجتماعي في روسيا الاتحادية لم تبلغ العلاقات الروسية ـ المصرية مستواها السابق إبان الحقبة السوفيتية ولا يمكن في هذا السياق تجاهل التغيرات والمستجدات التي طرأت عليها والتي بلا شك ستقود العلاقات الثنائية نحو الأفضل وهذا يعني أن دور الإسكندرية في الحوار الروسي ـ المصري سيزداد.. ففي 30 يونيو عام 1991 أثار اهتمامي ولفت انتباهي الخبر الذي بثته إذاعة راديو موسكو واستمعت إليه بإنصات وسجلت محتواه على الورق بينما كنت منغمسًا في كتابة واحداً من أهم مؤلفاتي العلمية.. كان الخبر الذي أعنيه مفاده: إلتقي مراسل الفرع العربي لراديو موسكو في الإسكندرية بوكيل شركة متخصصة في تقديم الخدمات للسفن الروسية في ميناء الإسكندرية على مدار مائة عام فأكثر وكان أحمد صفوت يمثل الجيل الخامس لأسرة (صفوت) التي تخدم السفن الروسية وقد عرض أحمد صفوت عند ذلك للمراسل الروسي حوالي مائة كارت زيارة للمثلي الشركات الأجنبية المختلفة فيما بعد الشركات الروسية وكانت من بين هذه الكروت كارت ف. ميللر مفتش الشركة الروسية للبواخر والتجارة والذي ذكرنا اسمه آنفًا حيث كان يتولى التفتيش على مكتب الشركة بالإسكندرية في عام 1893، وقد تعرف ميللر وقتئذ على صاحب شركة أسرة صفوت وثمن غالبًا خدماتهم الجليلة التي قدموها للسفن الروسية وظلت أسرة صفوت تحتفظ بكارت ميللر طيلة قرن من الزمان، ووفقًا لأخبار راديو موسكو في عام 1991 تم الإشارة إلى استمرار أشقاء صفوت ومنهم الشقيقان حسني وأحمد في خدمة السفن الروسية وهذا يعطي دلالة واضحة على التنبؤ بأن يحذو أنجال وأحفاد حسني وأحمد حذوهما في الاستمرار في تقديم خدماتهم هم الآخرين للسفن الروسية في المستقبل القريب.. إذ كان أحمد قد أنجب ابنًا بلغ عمره عام 1991 عامه الثالث على حد تعبير راديو موسكو.

** * * **



# الحوار الروسي-المصري جالية روسية في الإسكندرية

لعبت الإسكندرية ولا تزال تلعب دوراً بارزاً في العلاقات الروسية ـ المصرية في مختلف المجالات سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو تجارية أم ثقافية وعلاوة على ذلك أثرت الإسكندرية في العلاقات الثنائية على مختلف الأزمنة والأصعدة. فالعلاقات الثقافية بمعناها الأوسع ظلت قائمة حتى في فترة ما كانت تسمى بـ «موسم ميت» وهي الفترة ما بين أعوام 1917 وحتى 1943 بسبب انقطاع وقطيعة العلاقات الدبلوماسية بين روسيا السوفيتية ومصر من سنة 1917 وحتى استئنافها في أغسطس عام 1943.

إلى جانب بعض الأنشطة للدولة السوفيتية مع مصر في مجال التجارة والدبلوماسية بهدف إقامة العلاقات السياسية وفرض الأممية الشيوعية والنقابية الحمراء على مصر. كان يجري الحوار الروسي المصري على أيدي الجالية الروسية التي عاشت في مصر في ذلك الوقت كانت تتواجد الجالية الروسية في مصر في القرن التاسع عشر وما قبله في العقد الأخير ظهرت دراسات علمية وتنويرية مرتبطة بالهجرة الروسية البيضاء والمبنية على استخدام المصادر الجدية على هيئة وثائق أرشيفية وأبحاث ميدانية والآن على أساس الكتب والمقالات وتعدادات السكان والصحف المصرية «المحلية» فضلاً عن شهادات كتابية للمهاجرين بأنفسهم والتي مكنت الباحثين من معرفة البيانات المتوافرة وتقييم وتقدير التوزيع الديموجرافي للسكان والعمالة والنشاط الاقتصادي ومساهمة المهاجرين الروس في الحياة الاجتماعية والثقافية في الإسكندرية. وبموجب تعدادات السكان في مصر بصفة عامة في الفترة الممتدة لأعوام 1927، 1937، 1947 يتضح أن عدد الروس والناطقين باللغة الروسية يتراوح ما بين 1000 و 2500 نسمة لعامة مصر.. هذه

هي بيانات رسمية للإحصاء المصري تعكس إلى حد كبير أرقام واقعية.. في الحقيقة عدد المهاجرين الروس تجاوز العدد المذكور إذ إن غالبيتهم لم يوضعوا في الحسبان وبعضهم كانت لديهم بطاقات هوية مؤقتة.

ووفقًا لحسابات المستعربين الروس بلغ عدد اللاجئين الروس في مصر في النصف الأول من العشرينيات فور هزيمة الحرس الأبيض بقيادة الجنرال فرانجيل في شبه جزيرة القرم في شتاء سنتي 1919، 1920 من 5 ـ 6 ألف شخص وحسب بعض المصادر بلغ هذا العدد إلى عشرة آلاف فرد جاءوا إلى مصر بحثًا عن حياة أفضل من تلك التي كانوا يحيونها.. لذلك سوف نعتمد في بحثنا على البيانات الرسمية للتعدادت العامة للسكان.

وقد بلغ عدد الروبس في سنة 1882في الإسكندرية نحو 340 فرداً من إجمالي 533 في مصر كلها.. وفي سنة 1897 بلغوا 523 (3192) وفي سنة (4225) 1917 - 2373 وفي سنة 1927 - 915 (2410) وفي سنة 1947 - 440 (1147) هكذا كانت تتراوح أعداد الروس السكندريين ما بين 40 إلى 60٪ من مجموع الروس في مصر.

وفي العشرينيات والأربعينيات استقر عدد الروس السكندريين نحو 500 شخص الذين كانوا يمثلون أقرانهم الذين قرروا البقاء هنا إلى الأبد أو على الوصف الواقعي: الذينت قبلوا مصر ومصر قبلتهم وأصبحت مصر بالنسبة لهم بمثابة وطنًا ثانيًا لهم.

أدت ثورة 23 يوليو عام 1952 إلى مغادره الروس سبلاد ظنًا منهم أنها بالكاد تكرار لثورة 1917 البلشيفية.

هكذا كان عدد اللاجئين الروس في مصر محدوداً ويعتبر أقل بكثير مقارنة بالجاليات الأجنبية الأخرى، والجالية الروسية في عاصمة مصر الشمالية كانت أقل عدداً من الجاليات اليونانية والإيطالية والفرنسية والبريطانية بل وأحيانًا من الجالية الألمانية والبلجيكية والأسبانية لكنها جاوزت الجاليات السويسرية

والهولندية والأمريكية، فكانت الجالية الروسية تحتل المرتبة الخامسة بعد الجالية اليـونانيـة والإيطاليـة والإنجليـزية والفـرنسيـة دون الأخذ في الاعـتـبـار الجـاليـات الإسلامية الكبرى كالجاليات السورية والسودانية والتركية.

وبتعبير آخر وإنهاء للحسابات الكمية يمكن القول أن الجالية الروسية كانت أقل من الجاليات الأوروبية الكبرى 10 - 60 مرة.

ولا يمكن بأي حال من الأحوال تناسي أو تغافل الدور الذي لعبه اليـونانيـون والفرنسيون والإنجليز وممثلوا الجاليات الأجنبية الأخري ومساهماتهم الكبيرة في تطوير عاصمة مصر الثانية فالمدينة كانت تتميز بطابع (كوزموبوليتاني).. إن عمال البناء الذين كان معظمهم من الإيطاليين قد انشأوا على أكتاف رجال الأعمال والمقاولين اليونانيين والتجار السوريين واللبنانيين وغيرهم معجزات ومنجزات في الإسكندرية كما عمل سكان الحر متوسطي كثيراً في تثقيف وتنوير السكندريين.

أسس الفرنسيون المراكز الثقافية في المدينة وعلى سبيل المثال مركز الأبحاث الفرنسية كما عمل في الإسكندرية وعاش بها الشاعر اليوناني قسطنطين كفافيس ومن الممكن أن نستمر في ضرب مثل هذه الأمثلة.

والروس البيض تركوا بصماتهم الواضحة في العديد من ميادين العلم والمعرفة والتربية والعمران والثقافة أيضًا رغم قلة عددهم نسبيًا.. للأسف تحدثنا قليلاً عن الروس في الإسكندرية حتى بداية التسعينيات من القرن الماضي عن نشاطهم ودورهم الثقافي والتثقيفي لأسباب سياسية إذ كانوا يعتبرون أعداء للسلطة السوفياتية ونظراً لعدم وجود التعامل الكافي وقطع العلاقات السياسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر لكن اللاجئين الروس برعوا في جذب الشعب المصري في اتجاه إبداعات الثقافة الروسية والاطلاع على مفرداتها وعوضت قلة عدد المهاجرين البيض الذين كان يقدر عددهم خارج روسيا السوفيتية حوالي 2.5 مليون، نسمو بمستواهم العلمي والثقافي حيث كانوا يجيدون عدة لغات أجنبية ووجدوا الملاذ

الآمن والمأوى لهم في مصر ولعل ولعهم بمصر قد ساهم في بزوغ نجوم لعلماء روس تخصصوا في علم المصريات منهم جولينيشيف وبيانكوف وفيكنتييف والأطباء - روكين.

كما تميز نشاط الروس بصورة ملحوظة في الإسكندرية ولعل أبرز مثال على ذلك الرسام الروسي إيفان بيليبين الذي أقام معرضه.

نشر في جريدة لاريفورم في بناير عام 1925م الإعلان التالي: «قامت (جمعية أصدقاء الفن) في الإسكندرية بتنظيم معرض الفنان الرائع بيليبين في صالوناتها الواقعة بشارع فؤاد الأول بالعمارة رقم 13 في الفترة من 5 - 20 يناير. نتمنى النجاح الباهر لهذا ا لحدث الكبير في عالم الفن».

والآن يقع هذا المكان بجوار سينما رمسيس معرض بيع أثاث «الفروق للموبيليا اللمسة السكندرية في عالم الموبيليا».

كتب باتوتسكي في مذكراته قائلاً: «لقد تم بيع معظم لوحات هذا المعرض إلى الأمريكيين واليونانيين. وقد قدرت الصحافة السكندرية هذا المعرض تقديراً عظيمًا

وخلال فترة الإبداع القصيرة بمدينة الإسكندرية عمل بيليبين كثيراً. فمن المعروف أنه قد رسم بورتريه مدام جروبي صاحبة محلات جروبي المشهورة للحلويات.

وكان من بين مقدمي طلبات الرسم لدى بيليبين رجال الأعمال السكندريين الكبار وهم: بيناكي وقسطا غلي. وقد طلب مدحت باشا من بيليبين أن يرسم له بانو. علاوة على ذلك قام بيليبين برسم بانو علي الطراز البيزنطي تبلغ مساحتها 5.5 × 2.5 متراً، ولكننا للأسف لا نعرف مكان وجود هذه الأعمال الفنية. من المعروف فقط أن بيليبين قد رسم بانو كبيرة تسمى «السجود لقيصر وقيصرة بيزنطة» في فيلا بيانكي أغنى تاجر قطن بالإسكندرية. ولكن بعد وفاة بيانكي

الذي لم يكن له أولاد تم بيع البيانو في المزاد العلني.

بعد حصول بيليبين على أتعابه من بيع هذه اللوحات في معرض الإسكندرية تمكن من مغادرة الإسكندرية في نهاية عام 1925م غلي براغ ثم إلى باريس وفي سبتمبر 1936م عاد إلى مدينة سانكت ـ بتربورج التي أصبحت تسمى في ذلك الوقت «لينجراد».

وعمال اللاجئون الروس في شتى المجالات فقد كان من بينهم سائقي التاكسيات وعربات اللوري والميكانيكا الكمسارية وموظفو المحاكم المختلفة وبائعون في المحلات التجارية وعاملون بشركة قناة السويس ومدرسو اللغات والرياضيات والموسيقي ومربيات للأطفال في بيوت الأغنياء وموسيقيون ورسامون وممثلون وعاملون في صالونات الحلاقة ومحلات الكوافيرات وصحفيون وجرسونات وطباخون في المطاعم وعمال في فابريقات السجائر، بل وكانوا أيضًا يخدمون في البوليس المصري، وبكلمة واحدة فقد كانوا يعملون في نفس الأعمال والحرف والوظائف التي كانوا يعملون بها في باريس.

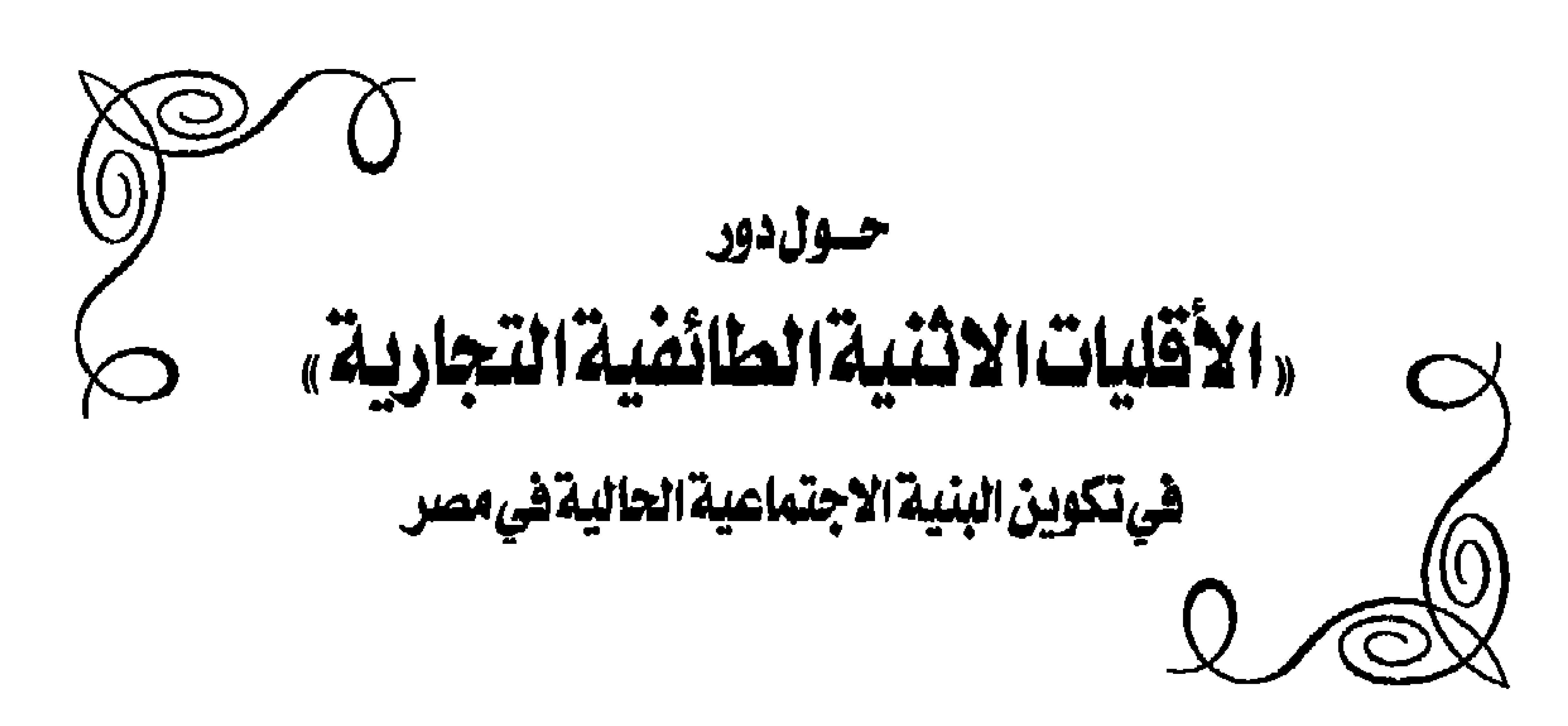
وكثيراً ما كانوا يعرفون في الإسكندرية أيضًا أو موف الذي تزوج السورية المسيحية من أسرة خوري اللبنانية الشهيرة في الإسكندرية حيث كان يقيم منزل أوموف ـ خوري أمسيات وحفلات أدبية وموسيقية مرة كل أسبوع شاركت فيها النخبة المثقفة السكندرية وكان لموف ستة أبناء كونوا نواة لأوركسترا الإسكندرية السيمفوني. ويمكن للمرء رؤية أجمل تمثال نحتي في حديقة انطونيادس بالنزهة «عروس النيل» الذي صممه المصمم الروسي الشهير كليوزيل فريدمان الذي كان يعمل قبل ثورة روسيا الاشتراكية لسنة 1917 في شركة «فابيرجي» التي اشتهرت في العالم كله بصناعة المجوهرات.

وكان اللاجئون الروس يصدرون في الإسكندرية مجلة اسمها «في الغربة» وجريدة «اللاجئ» وكانت الجالية الروسية تمتلك الكنيسة والمستشفى والعيادة والمسرح والجمعيات المختلفة والجوقة السيمونية وفرقة الفنون الشعبية والاتحادات

المختلفة كإتحاد الطلاب الروس واتحاد الضباط الروس وحتى فريق كرة القدم الذي كان يلعب بنجاح على بطولة كأس الإسكندرية.

هكذا انشأ المهاجرون الروس على أرض الإسكندرية المضيافة المجتمع المتكامل المعيشي خارج الوطن وتحولت الإسكندرية بالتدريج من «الغربة» إلى «الوطن الثاني» وبدورهم أعطي أبناء الجالية الروسية كل ما كان في وسعهم للسكندريين ومئات اللاجئين الروس يمكن للمرء العثور عليهم في مقابر الشاطبي بالإسكندرية.

❃ ❃ ❃ ❃



## حول دور
# «الأقليات الاثنية الطائفية التجارية»
## في تكوين البنية الاجتماعية الحالية في مصر

يعود إلى «الشعوب التجارية» وفقًا (لتعبير. ماركس) أو «الأقليات التجارية استناداً (لتعبير ف. فرتهايم) دور كبير في تطوير العلاقات التجارية النقدية والمبادرة الرأسمالية، وفي بلورة الطبقات والشرائح الاجتماعية في المجتمع البرجوازي المعاصر في مصر. فمنذ «الأيام الغابرة تمكنت مجموعات سكانية دخيلة وغريبة على السكان الأصليين قوميًا و (أو) دينيًا في مصر، كالسوريين واللبنانيين اليونانيين واليهود والأرمن والفرس وأهل مالطا والطليان، تخصص ممثلوها في التجارة والربا والحرف والخدمات العامة، من ملء ثغرة معينة في اقتصاد البلاد. وفي ظروف المجتمع التقليدي قبل الرأسمالي بحواجزه الاجتماعية والدينية التعددة حيث ظل جزء كبير من السكان الأصليين بعيداً عن النشاط التجاري النقدي، وفي ظروف وجود العديد من المحظورات والقيود أصبحت الأقليات المذكورة تهيم على تلك الفروع وحتى تحتكرها، خصوصاً وأن الطريق نحو فروع أخرى ومزاولة الزراعة مثلاً ظل مسدوداً أمامها. وهكذا غدت القيود القائمة وكذلك وضع الأقليات ذاته، حيث عاشت في المجتمع المصري كجسم دخيل (أو كـ «غرباء» حسب تعبير زيمل)، حافزاً وحتى شرطًا أوليًا في بعض الأحيان لنجاحها التجاري. ومن ناحية أخرى كان وضعها هذا يحكم عليها بالعزلة والانكماش الطائفي ويفرض عليها ضرورة إيجاد منظومة متشابكة صارمة للصالات الداخلية الطائفية. وبما أنها كانت نتيجة كل ذلك في حاجة دائمة إلى يد قوية تحميها، وكانت في الوقت نفسه تملك رصيداً ملموسًا من الخبرة والمعرفة والقدرة على المبادرة، كانت السلطات المحلية والمركزية ترحب بالتعاون معها باعتبارها أداة

طيعة لممارسة سياسة اقتصادية مناسبة.

ومع استبعاد مصر الاستعماري وانجرارها في السوق الرأسمالية العالمية استمرت الطوائف في النمو العددي وازداد وزنها كثيراً في الحياة الاقتصادية. كما زادت بنيتها الاجتماعية تعقيداً، إذ بدأت فئتها التجارية الربوية التقليدية تتحول تدريجيًا من خلال النشاط الكومبرادوري إلى جناح خاص للبرجوازية الوطنية، ألا وهو برجوازية الأجانب المحليين، كما نمت لدى الطوائف كوادرها من المثقفين والعمال التي أصبحت عاملاً لا يستهان به في الحياة الاجتماعية. وكل هذه التطورات قد تركت أثرها الكبير في مسيرة تكون الطبقات والفئات الاجتماعية الوطنية في مصر، مما يؤكد مرة أخرى خطورة موضوع هذه الدراية وحيويته القصوى. زد على ذلك أن مصر هنا لا تمثل حالة فريدة في بابها إذ يكفينا أن نستعيد في ذاكرتنا الدور الذي لعبه الأرمن والرفس واليهود والهنود في سائر بلدان المنطقة العربية أو الدور الذي لعبه الصينيون في جنوب شرقي آسيا والمحيط الهادي أو دور الهنود والصينين في أفريقيا الشرقية واللبنانيين في أفريقيا الغربية. أن سعة انتشار هذه الظاهرة ـ ودور أهل لومبارديا واليهود في أوروبا يؤكد أن الأمر ليس محصوراً في منطقة الشرق وحدها ـ ثم وجود كثير من جوانب التشابه في نشاط الطوائف وبنيانها وفي فرادة وضعها في المجتمعات المعينة وأخيراً وليس آخراً التشابه المدهش في الأنماط الاثنية ـ يحملنا على الاستنتاج بأننا أمام نوع خاص من التشكيلات الاثني الطائفية التي تركت آثارها العميقة في مسيرة تطور الرأسمالية عامة ومسيرة تطورها في الشرق بوجه خاص.

وقد ارتسمت هذه الظواهر والتطورات في مصر بدقة وشمولية ووضوح. فمنذ عهد المماليك كان حكام مصر لا يتورعون عن اللجوء إلى خدمات الموظفين والتجار والماليين السوريين والأرمن واليهود، خصوصًا في مجال السياسة الاقتصادية. وكانت القاهرة وحدها عام 1798 يسكنها نحو 3000 يهودي وحوالي عشرة آلاف من الأتراك وما يتراوح بين 15 و 20 ألفًا من المغاربة والسوريين

المسلمين وخمسة آلاف من السوريين المسيحيين وما يقارب ألفي فرد من الأرمن وكان أبناء مختلف الطوائف والمجموعات في صراع مستمر فيما بينهم من أجل مناصب المستشارين الماليين القيادية التي فتحت الطريق نحو الرقابة على الجمارك وجباية الضرائب. فكان اليهود يراسلون الإدارة المالية قبيل عهد الخديوي علي بك الكبير وفي بداية حكمه (1763 - 1773) وذلك أن الطائفة اليهودية كانت تتخصص أساساً في الشؤون المالية ـ إلى جانب التجارة والحرف ـ منذ القديم. وكان قد نشأ بينهم من ناحية وبين الحكام والمماليك والتجار المسلمين الأجانب من السوريين والمغاربة ـ وهم الذين كانوا آنذاك العنصر المهيمن في التجارة وليس التجار المصريين ـ نظام التعاون المتبادل المصلحة. ولكن هذا النظام أخذ يتدهور تدريجيًا عندما ظهر على الساحة الاقتصادية عنصر جديد ألا وهو طائفة السوريين المسيحيين ومعظمهم من الروم الكاثوليك. وقد تكونت تلك الطائفة أساساً خلال الفترة الواقعة بين( 1730 - 1780) وهي الفترة التي هاجرت خلالها إلى مصر نحو أربعة آلاف من السوريين المسيحين ممن غادروا دمشق وحلب وأتوا إلى القاهرة ودمياط باحثين عن الأمان الديني وعن الفرص الجديدة للتجارة. فاستناداً إلى خبرتهم وصلاتهم العملية التقليدية مع التجار والشركات في سوريا وفرنسا تمكن هؤلاء من اكتساب مراكز ثابتة في التجارة، لاسيما في التجارة الخارجية. ويستدل من بعض المراجع أن هؤلاء كانوا في أواخر القرن الثامن عشر يشكلون زهاء نصف مجموع التجار الأثرياء في مصر. وذلك رغم المعارضة الشديدة التي لاقاها نشاطهم من جانب التجار المسلمين والتي كانت بضراوتها ومكرها تبلغ في بعض الأحيان مستوى الحرب الحقيقية التي أجاد المؤرخ المصري الجابرتي وصف إحدى صفحاتها المؤلمة.

وبعد أن تمكنت الطائفة من تقوية مراكزها في التجارة بدأ زعماؤها معركة من أجل إقامة رقابتهم على الجمارك وجباية الضرائب. وقد تكللت مساعيهم هذه بنجاح أيضًا، الأمر الذي ساعدت فيه كثيراً رغبة الخديوي علي بك في تحسين شؤونه المالية على حساب الصيارفة اليهود وكذلك موقف السوريين أنفسهم الذين

وعدوا الخديوي بزيادة مساهماتهم المالية في خزانة مصر. كما لعبت هنا دورها أيضًا سياسة الخديوي الاستقلالية. لأن الصيارفة اليهود كانوا خلافًا للسوريين يميلون في نشاطهم العملي أساسًا نحو المركز في اسطنبول التي كانت الطائفة اليهودية تربطها به تقليديًا علاقات عملية وثيقة.

وفي أثناء حملة نابليون المصرية كان ممثلو كثير من الطوائف المسيحية يتعاونون مع الإدارة الفرنسي، مما أدى إلى تصاعد ميول معاداة المسيحية في مصر وحتي إلى وقوع سلسلة من المذابح. ومع ذلك كله فقد تمكن المسيحيون في عهد الخديوي محمد علي (1805 - 1849) من استرجاع نفوذهم الاقتصادي. وقد زاد عددهم في مصر إلى حد ملحوظ نتيجة سياسية الخديوي الذي أخذ ـ رغبة منه في تحديث المجتمع المصري ـ يشجع الاخصائيين الأجانب من الأمريكان والانكليز والفرنسيين والطليان وأهل ماطا والأرمن واليونانيين وغيرهم على القدوم إلى مصر والعمل فيها. وقد استوطن بعضهم مصر وبقوا فيها إلى الأبد. وفي عهد الخديوي محمد علي احتل الأرمن المراكز القيادية في الإدارة المالية. إلا أن ارتباطهم التجاري والمالي بالباب العالي قد أفقدهم تدريجيًا وإلى الأبد مكانهم المرموق في الاقتصاد. فتراجعوا إلى الخلف ليحتل محلهم مرة أخرى أبناء الطائفة السورية اللبنانية والطائفة اليهودية واليونانية. إن مزاولة التجارة وجباية الضرائب في مصر قد اتاحت لبعض رعايا الباب العالي غير المسلمين ـ ومن بينهم القنصل اليوناني التاجر توزيتسا جمع أموال كافية لإقراض الخديوي نفسه. ويشهد أحد الدبلوماسيين الروس في القاهرة في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي على أن التجار من رعايا الباب العالي غير المسلمين في مصر يتمتعون في نشاطهم بكل الحرية. وما يشهد أيضًا على وأن ممثلي الطوائف في الحياة الاقتصادية ما كتبه في أواخر الثمانينات ـ أوائل التسعينيات من القرن الماضي أحد السياح الروس من الإسكندرية حيث أشار إلى أن «صورة المدينة وجبروتها في أيدي اليونانيين، ثم الأردن واليهود، وكذلك الشركات الأوروبية الغربية» بيد أن الطوائف ذاتها كانت في ذلك الوقت تمر بفترة تطورات خطيرة شاملة في وضعها وتعدادها وتركيبها

البنيوي وحياتها الداخلية.

فنتيجة هجرة واسعة إلى مصر من أنحاء الامبراطورية العثمانية وأوروبا زاد تعداد الطوائف السكاني وتغير تركيبها الاجتماعي. ويقدر الاحصاء السكاني لعام 1907 عدد اليونانيين المقيمين في مصر بـ 62 ألف نسمة وعدد كل من الطليان والسوريين بـ 35 ألفًا والأرمن بـ 7.8 ألف واليهود بـ 38.6 ألف والمالطيين بـ 6 آلاف والفرس بألف نسمة . ويعود سبب هذا التيار العارم من المهاجرين إلى مصر إلى عاملين هما: أولاً: التضييقات التي عانوا منها في أوطانهم و ـ ثانيًا ـ فرادة الظروف في مصر ذاتها حيث كانت رغم بقائها رسميًا جزءاً من الامبراطورية العثمانية تتمتع في الواقع باستقلال كامل. كما لعبت هنا دورها مجموعة من عوامل أخرى كارتباط مصر المتزايد بالدول الرأسمالية التي كانت تتنافس من أجل نفوذها فيها، و«انفتاح» مصر لتدفق الرساميل الأجنبية وبداية عملية التمدن في البلاد التي اقتضت القوة البشرية المؤهلة.

ولتنفيذ عملياتهم المالية واستثمار رساميلهم في مصر كان رجال الأعمال الأجانب في حاجة إلى الوكلاء والوسطاء المحليين. وهي منهمة كان أداؤها في مقدور قمة الطوائف القومية فقط نظراً لما لها من الإمكانيات المادية والخبرة الاجتماعية، وكذلك حرصها على تولي المهمة المذكورة التي تضمن لها حماية خارجية. ومع أن العملية كانت بالطبع لا تخلو من المنافسة والمزاحمة كان نشاط رجال الأعمال من أبناء الطوائف الأجنبية المحلية في التجارة والمالية واستصلاح الأراضي يساعد عمومًا في تخصص مصر بزراعة القطن، وتطور العلاقات التجارية النقدية فيها، وكان يلاقي بالتالي تشجيعًا من جانب الإدارات الاستعمارية (بعد 1882) والرأسماليين الأجانب على حد سواء. وقد أصبح هذا العامل الأخير أحد الشروط الرئيسية لبلورة البرجوازية الأجنبية المحلية كفئة قوية. وكان نظام الحماية المذكور يتجسد أساسًا في ضمان سلامة الفرد وسلامة ملكيته بواسطة مجموعة من الامتيازات التي ظلت قائمة حتى عام 1937. فكانت

الجنسـيـة الأجنبـيـة تضـمن للشـخص قـدراً من الاسـتـقلاليـة الذاتيـة أمـام السلطات المحليـة وتمنح له سلسلة من التسهيلات القضائيـة والمالية، لاسيما في مجال دفع الضرائب. وكان الحصول على الجنسـيـة الأجنبـيـة أمراً سهلاً نسبيًا بل وكان البعض يحصلون معها حتى على الألقاب الارستقراطيـة من امبراطورية النمسا مثلاً أو ايطاليا أو بريطانيا. كما كان أبناء أسرة واحدة في بعض الأحيـان يحملون جوازات بلدان مختلفة مما كان يوفر لهم مزيداً من الفرص العملية.

ومع أن اهتمامات جُزء كبير من رجال الأعمال الأجانب المحليين ظلت في أواخر القرن مركزة في التـجارة والمالية والربا كما كانت سابقًا شـهدت هذه الفروع في الفترة المذكورة تغيرات خطيره سواء البنيوية منها أو المتعلقة بأنماط النشـاط. فقد تقدم إلى الخط الأمامي إنتاج القطن بتمويله وشراء محصوله وحلجه وتصديره، كما انتقل مركز الثقل في التجارة من تجارة الترانزيت إلى تجارة المسلمين المصريين حتى من المناطق التي كانوا تقليـديًا يهيمنون فيـهـا أمثال مناطق البـحر الأحمر والسودان. وأصبح مدير العزبة اليوناني الذي يجمع بين تسيير أمور الاقطاع وبين الربا شخصيـة كثيرة الانتشـار في البلدان الصغيرة والقرى المصرية. ويشـهد م. رفعت على أن «فئة المرابين اليونانيين أصبحت في الأقاليم صاحبة الأمر والنهي» أما اليهود فكانوا في بداية القرن الحالي يملكون في الواقع جميع المصارف والبنوك في الإسكندرية والقاهرة (26 من 27) صحيح أن نشوء البنوك الأجنبية قد ازاحهم إلى المكان الثاني إلا أنهم ظلوا مع ذلك عنصراً نشيطًا في المالية مسـتـغلين من أجل ذلك كل الفـرص البـاقيـة لديهم أمثال المصـارف الخاصـ والشركـات الماليـة و البنوك الصغيرة والرقابة على البورصتين وعلى الصحف المالية.

وقد اندفعـوا بحمـاسة إلى «ثورة الاستـثـمارات» على تخوم القرنين مفضلين توظيف رسـاميلهم في المشـاريع الأجنبـيـة. وقد أسست بمساهمتـهم أو بوسـاطتـهم الأغلبية السـاحقـة من شركات المسـاهمـة في تلك الأيام، وحتـى البنك الوطني الذي تولى جزءاً من وظائف البنك المركزي. وهكذا يمكن القول أن البـرجـوازية الأجنبـيـة

المحلية أخذت على نفسها تلك الفترة وظيفة الوسيط بين الرأسمال الأجنبي والسوق الوطنية أصبحت بذلك موضوعياً أداة لتوطيد النفوذ الأجنبي في مصر.

لكن هذ الوضع تغير بشكل جوهري في الثلاثينيات ـ الأربعينيات. فحصول مصر على استقلالها الوطني ـ ولو شكليًا ـ وما ترتب على ذلك من التحولات قد فسح مجالاً معيًا لتطور الصناعات التشكيلية والنقل والبناء. وبلغت حصتها مجتمعة في استثمارات شركات المساهمة عند عام 1946 نحو 60٪ تقريبًا في الوقت الذي كانت حصة الصناعة في عام 1939 لا تزيد علي 8.5٪ فقط. وكان رجال الأعمال الأجانب المحليون إلى جانب احتفاظهم بمراكزهم في الفروع التقليدية يساهمون بنشاط في «ثورة الاستثمارات» الصناعية هذه. ففي عام 1949كانت حصتهم من الرساميل المستثمرة في العقارات تقدر بـ 50٪ وفي التجارة بـ 54٪ وفي النشاط المصرفي بـ 13٪ وفي الشركات المالية بـ 76٪. وكانوا إلى جانب ذلك يراقبون نحو 25٪ من رساميل شركات المساهمة في النقل و 32٪ في الصناعة بما في ذلك 41٪ في صناعة النسيج التي كانت أرقى الصناعات آنذاك. وبصورة عامة كانت الرساميل الموظفة عند ذاك الوقت في الصناعة والنقل تقارب 50٪ من مجموع الرساميل المساهمة التابعة للبرجوازية الأجنبية المحلية.

كما جرت تحولات جذرية في أنماط النشاط العملي والتي تجلت أساسًا في الانتقال من طراز الشركة العائلية التقليدية إلى شركة المساهمة. وفي هذه الفترة بالذات بدأت برجوازية الطوائف بتغيير توجهاتها السياسية. لقد كانت دائمًا رغم قوتها المالية والاقتصادية ضعيفة سياسيًا. فكان حرصها على مصير ثرواتها بل وعلى سلامة وجودها يدفعها باستمرار للبحث عن قوة تحميه. وقامت بحمايتها على تخوم القرنين الدول الأوروبية وبرجوازيتها. ولكنه مع صعود حركة التحرر الوطني في الثلاثينيات ـ الأربعينيات وصدور أول صكوك تشريعية متواضعة للغاية لإقامة الحواجز أمام الرأسمال الأجنبي، وإلغاء نظام الامتيازات في عام 1937 اصبحت تلك الحماية لا يركن إليها. فكان لابد من إيجاد قوة

حامية جديدة وكانت متمثلة في تلك الظروف في القمة البرجوازية الاقطاعية. لذلك نجد برجوازية الطوائف تندفع نحو تقوية صلاتها مع رجال الأعمال والساسة وأصحاب المناصب المصريين وتقوم بتأسيس مشاريع مشتركة معهم وتبيع لهم جزءاً من اسهمها في شركات المساهمة وتتراجع لصالحهم عن مناصبها في مجالس ادارتها ـ دون فقدان الرقابة الفعلية عليها طبعًا. كما لا يحظ في هذه الفترة حرصها المتزايد علي إقامة صلات شخصية غير رسمية مع الأوساط المذكورة والحصول على الجنسية المصرية.

وهكذا فإن تغير التوجهات السياسية وانماط وأساليب النشاط العملي لبرجوازية الطوائف يعطينا الأساس للحديث عن عدولها تدريجيًا عن مزاولة السمسرة الكومبرادورية واقدامها ـ تدريجيًا أيضًا ـ على استثمار رساميلها في القطاع الرأسمالي الوطني حيث أصبحت جزءاً فريداً منه. أننا نقول «فريداً» لأن جزءاً كبيراً من العائدات المالية لبرجوازية الطوائف ظل في مصر وبذلك كانت هذه الفئة تتحول تدريجيًا إلى البرجوازية الوطنية. ومن ناحية أخرى لم يحدث هنالك التلاحم الكامل ـ بل وكان من المستحيل أن يحدث ـ بسبب الفوارق القومية والطائفية التقليدية وغالبًا بسبب طموحات البرجوازية الوطنية المصرية الكبيرة منها وخصوصًا المتوسطة والصغيرة الساعية إلى غزو الفروع التي ظلت أبوابها من قبل مسدودة أمامها، ولإزاحة المنافس الطائفي منها بكل الأساليب المتوفرة لديها، بما في ذلك القهر غير الاقتصادي. وقد يكون من الأصح القول أن برجوازية الطوائف اصبحت جزءاً من البرجوازية الوطنية ولكن جزء ذاتي مترب منها وبالتالي ضعيف ومحروم من الحماية. ذلك أن التوجه نحو كسب حماية القمة البرجوازية الاقطاعية الذي كان نافعًا خلال فترة معينة قد فقد معناه بعد ثورة 1952 عدنما اصبح الحامي نفسه في الخطر. وكل هذه التحولات حددت نهائيًا مصير برجوازية الطوائف: فقد لحقتها طائلة قوانين التمصير والتأميم في (1956 - 1957) و (1961 - 1964) وقام معظم ممثليها بمغادرة مصر.

وكـانت التـحـولات الكمـيـة والنوعـيـة في طبـيـعـة برجوازية الطوائف تـعكس التطورات في حياة الطوائف ككل. فقد زاد تعدادها السكاني مراراً مع العلم إن عملية نموها العاصف كانت في أشدها على تخوم القرنين. كما حدثت في تركيب الطوائف الاجتماعي تغيرات نوعية هامة. فتحقيق مشروع قناة السويس وتحول القطن إلى المحصول الزراعي الأساسي في مصر اقتضيا اجراء سلسلة واسعة من أعمال البناء والري وشق الطرق الحديثة وانشاء الفروع الاجتماعية السماعدة وبناء الصناعات التحويلية وغيرها من المشاريع التي كانت تتطلب قوة بشرية هائلة، وبالذات الكوادر المؤهلة والتي تطلب إيجادها خلال فترة زمنية وجيزة. وقد تيسر ذلك أساسًا نتيجة إيجاد جموع من اليونانيين والطليان والأرمن وأبناء الطوائف الأخرى ممن كانت تغريهم الأجور المرتفعة نسبياً التي وفرتها «الثورة الاقتصادية». كما اجتاحت مصر سيول من الأجانب التي اعادت إلى ذهن المرء حسب قول عالم التاريخ المصري رفعت السعيد «يام الحمي الذهبية في كاليفورنيا» ونتيجة كل ذلك ظهر داخل الطوائف المصرية خلال فترة تاريخية محدودة عنصر اجتماعي جديد لم يرٌ له مثيل من قبل، ألا وهو الفئة العمالية الكبيرة العدد والنشطة سياسياً.

وقد شكلت هذه الفئة مع العمال المصريون والعمال الأوروبيين نواة للطبقة العاملة الوطنية المتنامية التي أصبحت عند أوائل الثمانينيات من القرن الماضي تعد نحو 50 ألف فرد. وجدير بالذكر أن الطبقة العاملة ظلت حتي الحرب العالمية الأولى تنمو أساساً على حساب العمال من أبناء الطوائف الذين كان عددهم يشكل نحو الثلث تقريباً من عدد الطبقة العاملة الإجمالي.

ويميز جان فاليه الذى أجرى دراسة ميدانية لأوضاع العمال المشغولين في الصناعة الكبيرة بالقاهرة في (1910 - 1911) ثلاث فئات بين عمال الطوائف نظراً لمستواهم المهني وشروط إيجارهم واستمراريتهم في العمل. وكانت أكبر فئة عدداً يشكلها المهاجرون حديثوا العهد وهم من غرباء وليس لهم أي تحصيل أو

اختصاص، قادتهم إلى مصر الرغبة في الاثراد السريع. فهؤلاء لا يفكرون في الغد ينتقلون باستمرار من عمل لآخر ويتقاضون - حسب رأي المسؤولين - أجوراً يستحقونها. لذلك فأصحاب العمل يفضلون الاستغناء عن خدماتهم.

وإذ يجد هؤلاء إذ ذاك أن مغامرتهم قد فشلت يضطرون عادة إلى العودة إلى ديارهم على حساب القنصلية أو الجمعيات الخيرية. وخلافًا لهذه الفئة التي يسميها جان فاليه بـ «القوة العاملة العابرة» يبقى العمال المؤهلون في مصر مدة طويلة إن لم يستوطنوها إلى الأبد. فهؤلاء يتمتعون بثقة أصحاب العمل ويترقون سريعًا إلى درجة الملاحظين وكثيراً ما تيسر لأمثالهم خلال السنوات ادخار قدر من الرأسمال الذي يتيح لهم فتح ورشاتهم الخاصة. ويقول فاليه «إن العقدين من الصبر والمعاناة يعودان عليهم بثروة لم يحلموا بها في بداية الأمر». أما الفئة الثالثة فتضم ذوي اختصاصات دقيقة ونادرة ممن يستدعيهم أصحاب العمل من شتى البلدان الأوروبية ويعقدون معهم اتفاقات العمل.

وعند حديثه عن العمال من أبناء الطائفة اليونانية والذين يشكلون أكبر مجموعة عدداً يقول فاليه أن معظمهم «محرومون من أية مصادر للدخل ومستعدون لأداء أي نوع من العمل. إن هؤلاء يميزهم ذكاؤهم وشطارتهم الفطرية وحيويتهم واستعدادهم عند الضرورة للتقشف وتحمل الصعوبات وقدرتهم على اتقان أية مهنة خلال مدة وجيزة. انهم ما يطيلون البقاء في العمل الذي يتطلب منهم جهداً يدويًا ويفضلون توفير ما يسر لهم من أجورهم الحقيرة لمزاولة التجارة كخدم أولاً ثم يفتحون دكاكينهم الخاصة. وهكذا فإن الطبقة العاملة اليونانية فني مصر يشكلها إلى جانب مجموعة قليلة نسبيًا من العمال المؤهلين كثيرون من العمال الذين ما زالوا بعد في بداية طريقهم المهني».

وكان العمال من أبناء الطوائف الأجنبية المحلية من حيث احوالهم المادية يحتلون مكانًا بين العمال المصريين والعمال القادمين من أوروبا، حيث كانت أجورهم تقل عن تلك التي يتقاضاها الإنكليز والفرنسيون والألمان وتزيد على أجور

العمال المصربي، ففيما كان سائقوا القاطرات الإنكليز يتقاضون يوميًا نحو 80 قرشًا وأكثر ويتتقاضى الفرنسيون والألمان ما يقل عن ذلك 20 - 30٪ ويتقاضى العمال المصريون في فروع الإنتاج الجديدة ما يتراوح بين 10 و 15 قرشًا كانت أجور اليونانيين والطليان والأرمن ورعايا الامبراطورية النمساوية تتراوح بين 15 و 30 قرشًا نظرآ لتأهيلهم واختصاصهم.

أما عن ظروف عملهم فكانت بالكاد تختلف عن تلك التي عمل فيها المصريون. فكانت الإصابات الإنتاجية بين المجموعتين كثيرة للغاية، الأمر الذي تشهد عليه الصحف في 1894. ويصف لي كاربينتيه ظروف العمل في معامل السجائر بالقاهرة قائلاً: «إنها مهنة مضرة لصحة الإنسان. فمعظم العمال وجوههم منهوكة مصفرة وهم يعانون من الأمراض الصدرية والقلبية نتيجة عملهم خلال 12 10 - ساعة يومياً في جو خانق مسموم». وكان العمال من أبناء الطوائف الأجنبية المحلية يسكنون فيما يسمى «بالاحياء الشعبية» التي كانت أجور السكن فيها واطئة نسبيًا إلا أن الظروف الصحية ووسائل الراحة فيها كانت سيئة للغاية. ويصف فاليه معيشة عدد من الأسر المقيمة هناك قائلاً أنها «فقر مدقع وفوضى وقذارة».

ولكن سوى الظروف العملية والمعيشية إلى جانب طابع العمل والخبرة الاجتماعية ـ مهما كانت ضئيلة ـ التي أتوا بها إلى مصر من بلدان ذات تقاليد متطورة نسبيًا للصراع الطبقي العمالي هي التي دفعت العمال من الطوائف الأجنبية المحلية قبل غيرهم إلى إعلان الاضرابات وتنظيم النقابات المهنية حيث أتموا فيها تحصيلهم الطبقي. ففي أكثر من نصف الاضرابات الخمسة والعشرين الأولى التي تذكرها المراجع قبل حادثة دنشواي المشهورة في عام 1906 لم يشترك سوى العمال من الطوائف الأجنبية المحلية وحدهم. وكانوا في هذه الفترة يتقدمون في اضراباتهم بمطالب اقتصادية بحتة أمثال رفع الأجور وتخفيض ساعات وتحسين ظروفه والغاء الغرامات والخصومات وضمان أيام العطلة وفرصة للغذاء وهلم جرا.

وكانت الاضرابات تتسم بقساوة وعنف، وتكتسب في أحيان كثيرة شكل العصيان يستعمل المشتركون فيه الحجارة والعصايات.

أما أول الاتحادات العمالية فقد ظهرت في الثمانينات ـ التسعينات وكانت حسب قول ش. عشاوي عبارة عن «جمعيات المساعدة لذوي أجور مرتفعة بين العمال» أي بين العمال القادمين من بلدان أوروبا وأبناء الطوائف الأجنبية المحلية، أو بالأصح كانت عبارة عن روابط قومية مهنية غير طبقية هدفها المساعدة وأعمال البر. وكانت زعامات الطوائف تشجع تأسيس مثل هذه الروابط والكعيات باعتبارها وسيلة لإقرار مبادئ «السلام الاجتماعي». ثم جاء دور منظمات مهنية كاتحادات لصانعي الأحذية في الإسكندرية التي كانت تضم في صفوفها على قدر المساواة الحرفيين والعمل وكانت من حيث وظائفها قريبة من النقابات. إلا أن النقابات بمعناها الحقيقي الطبقي لم تنشأ إلا في غمرة المعارك الطبقية. وفي الواقع فقد أسفرت الاضرابات على تخوم القرنين عن نشوء أول اتحادات عمالية نقابية ومن بينها الاتحاد الدولي للعاملين في صناعة السجائر الذي كان مجلس إدارته يضم اليونانيين والطليان والمصريين وأبناء قوميات زخري. وقد قاد هذا التحاد اضرابًا اشترك فيه نحو ألف وخمسمائة فرد من العمال اليونانيين والمصريين والطليان واليهود والسوريين والأرمن وحتى الألمان العاملين في أكبر مصانع التبغ التي كانت سجائرها تتمتع بشهرة عالمية. وانتهى الاضراب في فبراير عام 1900 بانتصار العمال. غير أن أسياد المصانع لم يلبثوا أن أخذوا بالاتفاق الذي تم التوصل إليه. فقام الاتحاد بتنظيم سلسلة أخرى من الاضرابات التي لم تؤدي أية منها إلى نتيجة بل انتهت بإبعاد قادتها اليونانيين من مصر.

ويجب الإشارة هنا إلى الدور الذي لعبته في ابعادهم القنصلية اليونانية. وقد لاقت في ذلك بالطبع كل التشجيع من جانب السلطات الاستعمارية من ناحية، ومن زعامة الطائفة اليونانية، من ناحية أخرى، أي من اصحاب العمل في الفبارك التي شملتها الاضرابات. وبالمناسبة نقول أن وجود النظام الطائفي بحد ذاته بغض

النظر عما إذا كان الحديث يدور عن الطائفة اليونانية أو الإيطالية أو الأرمينية أو اليهودية أو السورية وغيرها كان بقوته ونفوذه وصرامة تقاليده الداخلية يعترض كثيراً تطور الحركة العمالية المستقلة في مصر. وكانت لدى زعامات الطوائف - وهي من أصحاب العمل غالبًا - أقوى أدوات التأثير في أي فرد من أفراد المجتمع الطائفي. فلديها الكنيسة مثلاً والمدرسة والمؤسسات الطبية والخيرية، ولديها الأندية الثقافية والرياضية ناهيك عن عوامل التأثير الأخرى كمؤسسات الإدارة المحلية الطائفية أو حسن العلاقات بالسلطات. وكانت تجيد استعمال كل هذه الأدوات بمهارة لإقرار جو من «السلام الطبقي» عن طريق الارشاد المباشر أو غير المباشر وإقامة نظام من الصلات العمودية الرعاوية. فعامل التبغ السوري الذي فحص ج. فاليه ظروف معيشته كان يتعذر عليه رفع صوته ضد سيده زعيم الطائفة بعد أن كان قد تلقى من الجمعية الخيرية الطائفية بلا مقابل حصته السنوية من المعونة والأدوية التي تقدر قيمتها بـ 600 قرشًا إلى جانب ما كان يتلقى - بلا مقابل أيضًا - من الفحوص الطبية وفرصة حضور أولاده لحفلة رأس السنة. فمبلغ المعونة كبير لا يسعه رفضه كما لا يجوز الاستهتار بالعناية. أما الذين طال لسانهم فمنهم من كان من نصيبه المقاطعة ومنهم من طردوه من البلاد.

وفي ظروف كون الحركة العمالية متعددة القوميات كان يسهل شق صفوفها. وقد طبقت سياسة مستهدفة من أجل ذلك. ومن أروع الأمثلة على البنية المتعددة القوميات للطبقة العاملة المصرية مثال شركة قناة السويس التي كان يعمل فيها آنذاك، أي في أواخر القرن الماضي 1661 فرد بما في ذلك 517 يونانيًا و 516 مصريًا و251 طليانيًا و189عاملاً من أبناء الامبراطورية النمساوية و 75 فرنسيًا و 87 عاملاً من أبناء البلدان الأخرى. وهكذا كانت الطبقة العاملة عبارة عن كتلة إنسانية غير متجانسة قوميًا ولغويًا. وهذا الواقع كان في بعض الأحيان يعترض كليًا السبيل إلى التضامن والوحدة. وقد أشار إلى ذلك ج. فاليه حين لاحظ أن «... الفوارق العرفية والدينية واختلاف التقاليد والعادات هما اللذان حالا دون الانسجام بين العمال رغم التقارب الذي حدث بينهم في أثناء العمل... إن وعيهم

الطبقي لا يزال ضعيفًا للغاية.. » كما كانت العلاقات بين العمال المصريين والعمال من أبناء الطوائف الأجنبية المحلية لا تخلو هي الأخرى من المشاكل إذ أن الفوارق الثقافية واللغوية وموقف المصريين التقليدي الحذر من «الخواجات» كانت بالكاد تساعد على التقارب، زد على ذلك أن اليونانيين والطليان وأبناء بعض الطوائف الأخرى كثيراً ما كانوا يخلون بالنظام العام بسكرهم وخناقاتهم العنيفة التي كانت بعضها تنتهي باغتيالات. ومن ناحية أخرى فإن العمال الأجانب المحليين هم الذين أتوا إلى أوساط العمال المصريين بمفاهيم الصراع الطبقي وأشكال هذا الصراع وأسبابه. ويحظى بدلالة في هذا الصدد ما كتبته صحيفة «المقطم» القاهرية في الخامس من نوفمبر 1901من أن الكلمات في المهرجان الخطابي لعمال القاهرة كانت تدوي بالطلياني واليوناني والعبري والعربي وحتى بالألماني، وإن المهرجان الذي ضم نحو ألف وخمسمائة شخص قد انتهى إلى مظاهرة سار فيها ثلاثة آلاف عامل يتقدمهم السوري ميشال خياط وفي يده علم يحمل اسم النقابة مكتوبًا بعدة لغات.

وفي الواقع فقد أصبحت الطوائف الأجنبية المحلية عامة والعمال القادمون منها بالذات نوعًا من جسر يربط بين المصريين من ناحية وبين الأوروبيين وحضارتهم من ناحية أخرى، بما في ذلك تقاليد وتجربة الصراع الاجتماعي المعاصر. وكان العمال الأجانب المحليون ينقلون إلى العمال المصريين خبرتهم الطبقية وكان ذلك من الأهمية بمكان إذ أن ضعف المصريين السياسي وقلة معرفتهم لأشكال وأساليب الصراع الطبقي كانا يجعلانهم عرضة لأشد استغلال من جانب الرأسماليين الأوروبيين. وهكذا أخذ العمال المصريون على تخوم القرنين ينجرون بالتدريج إلى حركة الاضرابات والحركة النقابية كما كان العمال الأجانب المحليون مع المثقفين اليونانيين والطليان الذين كانوا آنذاك يترأسون النقابات وحركة الاضرابات بين العمال الأجانب المحليين هم الذين دفعوا المناضلين الوطنين المصريين أمثال محمد فريد نحو الحركة العمالية وحملوا قادة الحركة الوطنية المصرية على إدراك مكانة العمال المأجورين الخطير في حركة التحرر الوطني.

وقد أحدثت رياح العصر التي اجتاحت مصر جاذبة إياها إلى السوق الرأسمالية العالمية تحولات بنيوية جذرية في اقتصاد البلاد وحياة المجتمع المصري، حيث أخذت البلاد تواجه حاجة أشد إلى المثقفين والكوادر من الاخصاصيين في فروع مختلفة. وبما أن هذه المشكلة قد وجدت معالجة شاملة في دراسة ف. تشيرنوفسكايا سنكتفي هنا بمجرد الإشارة إلى أن نظام التعليم القائم آنذاك في مصر كان أعجز عن تلبية تلك الحاجة كمًا أو - وهو الأهم - نوعًا. لذلك أصبح اللجوء إلى الاخصائيين القادمين من الخارج وكذلك أولئك الذين قدمتهم الطوائف الأجنبية المحلية أحد الطرائق الرئيسية لحل المشكلة القائمة. وكانت هذه الطريقة المعروفة منذ عهد المماليك الذين كانوا يستفيدون كثيراً من خدمات الموظفين والمترجمين والمستشارين الأرمن واليهود والسوريين واليونانيين وغيرهم. إلا أن الحاجة إلى الاخصائيين قد زادت كثيراً في النصف الثاني من القرن الماضي كما تغيرت نوعياً المتطلبات الموجهة إليهم أذ أصبحت الضرورة تقتضي الآن أناساً من ذوي التحصيل الأوروبي يجمعون بين الحضارة الغربية واتقان الأساليب العصرية للإدارة والتجارة وبين الثقافة العربية وإلمامهم للغة العربية.. ولم تتأخر الطوائف الأجنبية المحلية عن الاستجابة لهذا الاقتضاء بفتح عديد من المدارس من طراز أوروبي حديث يجري التعليم فيها بالفرنسية والإنكليزية. وإذا كان عدد تلك المدارس في أواخر عهد الخديوي محمد علي يقدر بـ 25 مدرسة فإنه يزداد عند عام 1940 إلى 368 مدرسة، كان يتعلم فيها 67.8 ألف تلميذ. وكان عدد المتعلمين بين اليهود في عامن 19007يبلغ 438 شخصًا لكل ألف نسمة من السكان فيما كان هذا العدد بين المسلمين لا يزيد على 40 شخصًا وكان الاثرياء وذوو الدخول المتوسطة من الأجانب المحليين يرسلون أبناءهم إلى أوروبا لتكميل تحصيلهم وإذا كانت نسبة التلامذة الأجانب (من المحليين غالباً) في المدارس الابتدائية في عام 1913 تتراوح بين 27.50 و 30٪ وكانت نسبتهم في الإعدادية تقدر بـ 20٪ فإن نسبتهم في الصفوف التكميلية من المدرسة كانت لا ترتفع على 1 - 7٪ فقط.

وكان معظم خريجي الجامعات والكليات والمدارس التجارية الأوروبية بعد

عـودتهم إلى مصـر ينصـرفـون إلى المسـاهمـة في المبادرة التـجـارية لعـائلاتهم أو يفصلون فتح أشغال خاصة بهم. كما أختار كثيرون منهم تعاطي منه حرة أو حتى الالتحاق بالخدمة في جهاز الدولة. وفي بعض الأحيان كانوا يجمعون بين الأشغال. ويحظى بدلالة في هذا الصدد سيرة حياة الدكتور ي. ليفي وهو من أبرز المثقفين ورجال الأعـمال في مصر في عـهده. لقد ولد في اسطنبول عام 1878 وتخـرج من جامـعة نابـولي ثم قدم إلى مصـر فـي عـام 1903 واسـتـوطنهـا. وكـان فـي البداية يتعـاطى المحاماة، ثم عمل في القنصلية الإيطالية وظل سنين عديدة يشـغل منصب مـدير مـكتب الاحـصـاء الوطني وهو منصب بالغ الخطورة. وقـد ازدهرت خـدمـة الاحـصاء في عـهده وغـدت من أحـسن الخدمـات الاحصـائيـة في الشـرق كله (بد الهند). وكـان ليفي وهو يجمع بين وظيفته هذه ورئاسة لشركتـي النسيج قد اصبح أحد المؤسسين لاتحاد الصناعة المصرية وتولى منصب امينه العام ورئيس أسرة تحرير لسـان حـاله «ايجـيـبـت اندوسـتـريـيل»، وإلى جانـب كل ذلك كـان يتـرأس مـجلس الإدارة للجمعيـة المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والحقوق التي كانت تتمتع بنفـوذ كـبـير في أوسـاط المثـقـفين. زد على ذلك كله أن كان نائبًا لرئيس الطائفـة اليهودية في القاهرة.

وبصورة عـامة فقد تشكلت من أبناء الطائفة اليهـودية عند بداية القرن الحالي مـجمـوعـة كبيرة من الاطبـاء والحـقـوقـيين والمهندسين الزراعـيين وممثلي سـائر المهن الحرة. ولكن معظم اليهود المتعملين كانوا حسب شهـادة ي. لانداو ينصرفون إلى التـجارة أو يجدون عـمـلاً لهم ككتبة ومـحاسبين وغـيرهم، الأمر الذي يدل حسب اعتقاده على فقر الحياة الروحيـة والفكرية للطائفة اليهودية.

وخلافًا لذلك كانت الحـيـاة الفكرية للطائفـة اليـونانيـة نابضـة باسـتـمرار. ويشير الباحثون إلى المستوى العالي للتدريس في المدارس اليونانية وإلى السـمعة الطيـبة التي كـان يتـمـتع بهـا أبناء الطائفـة المتـعلمـون من المحامين والمهندسين الزراعـيين والاطباء الذين كانوا يشكلون نـحو 15٪ من مجموع الاخصائيين في مصر خلال

الفترة الواقعة بين 1830 و 1927 . وقد ساهم العلماء اليونانيون بقسط ثمين في دراسة تاريخ مصر وحضارتها العريقة واستقصاء ظروفها الطبيعية. وكانت لدى الطائفة عدة روابط أدبية تصدر كل منها مجلة خاصة بها. وكان الشاعر اليوناني الكبير ك. كوافيس يعمل في الإسكندرية التي احتضنت كثيراً من المؤسسات الثقافية اليونانية أمثال رابطة ميلهارمونيا اليونانية مع مدرسة موسيقية ومكتبة الاسكندرية وغيرهما من مراكز تثقيفية. ونال الممثلون والفنانون والموسيقيون اليونانيون شهرة واسعة في أرجاء مصر.

ومع كل ذلك فإن الفضل الأكبر إلى بلورة الفكر والثقافة المعاصرة في مصر يعود دون شك إلى أبناء الطائفة السورية اللبنانية الذين سماهم اللورد كرومير (إلى جانب الأرمن) بـ «نخبة الشرق الأوسط الفكرية». وكان دورهم الخاص ذلك يعود إلى عدة عوامل داخلية منها وخارجية. فقد تكون في سوريا ولبنان عند أواسط القرن الماضي - بفضل نشاط البعثات المسيحية غالبًا - منظومة متشابكة من مراكز التعليم المتوسط والأعلى التي كانت تطبق فيها أساليب التدريس الأوروبي. غير أن عدداً كبيراً من خريجي هذه المدارس لم يتمكنوا من ايجاد مكان لائق بهم في الوطن أو كانوا لسبب من الأسباب (وجود الرقابة والجو المحافظ الخانق في المدارس الوطنية.. الخ) يتضايقون في نشاطهم المهني في الوطن، كما اصبحت الاشتباكات الدينية هي الأخرى حافزاً قويًا يشجع الهجرة. أما مصر فكانت كما أشرنا آنفًا تعاني من احتياج شديد إلى كوادر من المثقفين أمثال الاستاذة والاطباء والصحفيين والمترجمين والموظفين وغيرهم. وذلك أن المصريين أنفسهم كانوا عاجزين عن ملء ذلك الفراغ الاقتصادي بسبب نقص الاخصائيين بينهم من ذوي الثقافة الأوروبية الملمين باللغات لأجنبية. كما كان الأرمن غير قادرين على ذلك أيضًا لقلة عددهم واليهود بسبب انصرافهم الكلي في التجارة. أما اليونانيين والطليان فكان يمنعهم من ذلك سوء معرفتهم للغة العربية. وهكذا لم يتبق هناك سوى المهاجرين من سوريا ولبنان وحدهم. وقد تفتحت أمامهم آفاق رحبة حقًا بعد إعلان سياسة تعريب جهاز الدولة في عام 1870. وكذلك بعد أن

أشاد اللورد كرومير في عام 1882 بمستواهم التعليمي ومؤهلاتهم حيث وضعهم «في صف واحد تقريبًا مع الأوروبيين» كما مدحهم «لرخصهم » مشيراً إلى أنه لولا هؤلاء لكان يتعذر بناء جهاز إداري فعال. وكان موظف بريطاني كبير آخر كوولز باشا أكثر صراحة حين قال بالحرف الواحد أنه «من غير الواضح اليوم، في بداية الثمانينيات، ماذا كنا سنفعل لولا المترجمون والكتبة السوريون والأرمن». وكان السوريون والأرمن يشغلون في عام 1905 نحو 30٪ من أهم المناصب في جهاز الدولة (فيما كان المصريون يشغلون 28٪ والبريطانيون 42٪ منها). كما كانوا في فترات مختلفة يحتلون مناصب قيادية في الأمن الداخلي (سفير باشا) وفي البريد (صبا باشا) وفي الخدمة الطبية للجيش (الجنرال سوسي باشا) أما عيوبي بك فكان مستشاراً للملك.

غير أن أهم أثر كان قد تركه السوريون في الصحافة والنشر. فكانوا يملكون ما لا يقل عن 150 صحيفة ومجلة (بما فيها «المقطم» و«الهلال» و«المنار» و«المقتطف» و«الأهرام») من الصحف والمجلات السبعمائة والتسعين الصادرة في مصر آنذاك. أي بين 1800 و 1914. كما كانوا اصحابًا لأكبر دور وشركات للنشر وكانواو دائمًا في عداد أبرز الصحفيين والمفكرين في البلاد. ومما يحظى بأهمية بالغة انهم كانوا يحاولون أن ينقلوا إلى العالم العربي عامة وإلى مصر بوجه خاص التراث النظري الفكري للغرب الصناعي ويسعون إلى ترسيخ القيم الحضارية الغربية في تربة الوطن العربي. لذلك كان منطقيًا تمامًا أن الهجرة السورية اللبنانية في مصر هي التي انجبت دعاة متحمسين للمبادرة الحمرة أمثال جورجي زيدان ويعقوب صروف وهي التي اصبحت مهداً للفكر الاشتراكي في مصر (فرح انطون والشيخ نجيب حداد وغيرهم). ومع أن الكثيرين منهم كانوا في عواطفهم السياسية يميلون نحو الغرب، وبالأدق نحو فرنسا وبريطانيا لا يمكن نسيان أن مفكري الهجرة السورية اللبنانية في مصر قد ساهموا بقسط خطير في بلورة ونشر مبادئ القومية العربية في مصر إلى جانب مبادئ القومية المصرية.

وكان للمثقفين والعمال من أبناء الطوائف الأجنبية المحلية دور كبير أيضا في تكوين المؤسسات السياسية المعاصرة أمثال النقابات والاحزاب السياسية، وفي تطوير الحركة الاشتراكية والشيوعية. وقد ساهمت بنصيب كبير هام في هذه العملية الجامعة الشعبية الحرة التي قام بتأسيسها المهاجرون السياسيون من ايطاليا في الإسكندرية في صيف 1901. وكانوا يلقون فيها محاضرات ويجرون مناقشات حول شتى قضايا التاريخ والآداب والفنون دون التهرب من أحد القضايا السياسية أمثال قضية الاضرابات. وإلى جانب الايطاليين ساهم في نشاط الجامعة ـ سواء بصفة المحاضرين فيها أو مجرد الجمهور ـ اليونانيون والأرمن والمصريون، الأمر الذي أثار استياءاً حاداً من جانب السلطات المصرية والقنصلية الايطالية التي وصفت المبادرين إلى فتح الجامعة بأنهم «مجرمون سياسيون» وحاولت اغلاقها. إلا أن موقف الأوساط السياسية والثقافية للطوائف الأجنبية المحلية وقد حال دون ذلك. وطالما جرى الحديث عن المهاجرين الايطاليين يجدر بنا ذكر نشاطات الفوضويين من الطائفة الايطالية الذين كانوا يوزعون منشورات، وأقاموا «مهرجانات بهيجة تحت اعلام حمراء» مبتهجين باغتيال الملك وامبرتو الايطالي في عام 1900، وأثاروا ضجة كبيرة في الأوساط الاجتماعية حول المؤامرة المدبرة لاغتيال الامبراطور فلهلم الألماني في فلسطين وهلم جرا. كما لا يمكن انكار قسط الايطاليين في تنظيم الحركة الثقافية في مصر.

ويشهد رفعت السعيد الذي يعتبر أبرزز الباحثين لتاريخ الحركة الاشتراكية والشيوعية في مصر أن أول تنظيم اشتراكي في مصر قد أسسه اليونانيون والارمن) في الإسكندرية في عام 1865». وفي نفس الفترة تقريباً نشأت وبدأت نشاطها عدة تنظيمات اشتراكية من الأرمن والطليان. ويصف أحد المراجع الدور السياسي للايطاليين في مصر قائلاً أن «نشاط الحزب الاشتراكي الايطالي في مصر كان بالكاد يقل عند ذلك في ايطاليا نفسها». وفي السنوات التي تلت ساهمت التنظيمات الاشتراكية من أبناء الطوائف الأجنبية المحلية بنصيب كبير في تطوير الحركة الاشتراكية والشيوعية في مصر ولكن الفضل الأكبر يعود في هذا

المجال إلى المهاجرين اليهود ممن قدموا إلى مصر من البلدان الأوروبية. وكان على رأسهم سوسف روزنتال الذي أتي إلى مصر في عام 1899 تقريبًا وانصرف في الحال إلى تنظيم النقابات ودعاية الماركسية ثم إلى إقامة حلقات ماركسية وانشاء التنظيم الحزبي الشيوعي. وكان يتمتع بنفوذ كبير في الأوساط السياسية بذليل أن زعماء حزب الوفد كانوا يستشيرونه في بعض المسائل كما كان أول الماركسيين المصريين يعتبرونه استناداً لهم.

إن التحولات الكمية والنوعية في تركيب الطوائف وأوضاعها كانت تؤدي بالتالي إلى تغيرات مبدئية في حياتها الداخلية. فاستمرار عزلتها وجو الريبة والظنون المحيط بها لاعتبارات دينية أحيانًا أو نتيجة سمعتها في أوساط المجتمع المصري كالتجار والمرابين وكذلك سعي زعمائها المستمر نحو كسب حماية الغرب ـ كان كا ذلك يؤدي موضوعيًا إلى توطد الصلات الداخلية الطائفية ـ الاجتماعية منها أو الدينية أو العملية ـ مما كان بالتالي يساعد على تخليد العلاقات القائمة فيها ومحافظة العادات والقيم التقليدية. ومن ناحية أخرى كانت المجتمعات الطائفية تقتحمها الرياح الغربية نافذة في أعتم زوايا واقعهات القائم، ومؤثرة في نمط حياتها، وخصوصاً حياة زعاماتها. ويصبح التحصيل الأوروبي والإلمام باللغات الأوروبية أول رمز للنجاح وأهم ضمان للازدهار في المستقبل. وكان الاثرياء يرسلون أبناءهم للدراسة في جامعات السوربون واوكسفورد ولوزان حيث ،كانوا يستوعبون نمط الحياة الأوروبي بعاداته وآرائه واذواقه. ونشأت في المدن المصرية ولاسيما في الإسكندرية بيئة اجتماعية فريدة يتحدثون فيها باللغة الفرنسية أو الانكليزية أو حتى الايطالية في بعض الأحيان دون أن يعرفوا العربية جيداً وكانوا أهلها يشترون البضائع من المحلات الأوروبية ويقاطعون الاختلاط بالعرب ولكن هذا الوسط الطائفي رغم تجانسه الظاهري مقسم في الداخل بحواجز قومية منيعة متعددة لاسيما الدينية منها. فلدى كل طائفة انديتها وفرقها الرياضية وروابطها الثقافية وغرفهتا التجارية وحتى بنوك خاصة بها. ويعتبر الزواج بين أبناء طوائف مختلفة حتي وإن كانوا منتسبين إلى مذهب ديني واحد أمراً شاذاً غير مقبول به.

وقد أحسن جورج اولدريج تصوير تلك الحياة المتذبذبة الغريبة على تخوم الحضارتين الغربية والعربية في روايته «الطريد الأخير». زد على ذلك التفاوت الاجتماعي الحاد داخل المجتمعات الطائفية التي كانت تضم ممثلي كل الفئات الاجتماعية ابتداء من العناصر العائشة في فقر مدقع والعمال والحرفيين وانتهاء بالمثقفين واصحاب العمل. وكانت العلاقات بينهم عبارة عن خليط معقد للصراعات والتعاون وروح الزمالة والرفض. ولكن الرقابة على كل المؤسسات الطائفية وحياة المجتمع الطائفي ككل وتمثيل هذا المجتمع أمام السلطات كانت قد احتكرتها كليًا عند بداية هذا القرن مجموعة من الأسر التجارية التي انتزعت زمام القيادة من الزعامات الدينية التقلدية.

أما نصيب الأقليات الطائفية الاثنية في تكوين الطبقات والفئات الاجتماعية المعاصرة في مصر فكان يختلف بين فترة وأخرى. ففي القرن التاسع عشر كانت الطوائف أكثر استعداداً من غيرها للتغييرات الاجتماعية الجوهرية الناجمة عن التطور الرأسمالي، والتي أسفرت عن نشوء فئات قوية ومتعددة من البرجوازية والعمال والمثقفين ممن ساهموا عمليًا في اقرار الأنماط المعاصرة للمبادرة الخاصة وتطوير الحركة العمالية وترسيخ القيم الحضارية الأوروبية ونشر المذاهب الفكرية الحديثة في مصر، الأمر الذي أسرع بتكوين فئات اجتماعية مماثلة في المجتمع المصري ذاته وخفف كثيراً من المشاكل في هذا المجال، مع أن ذلك لا يعني بالطبع أنه لم يكن هنالك إلى جانب التعاون تناقضات وحتى صراعات بين أصحاب العمل والعمال والمثقفين المصريين من ناحية وبين أبناء الطوائف الأجنبية المحلية من ناحية أخرى. بل وكانت هذه الصراعات تكتسب في بعض الأحيان أشكالاً حادة للغاية. ولكن الأهم هنا هو أن النمو الكمي والعددي السريع للطبقات والفئات الاجتماعية الوطنية قد أدى بعد الحرب العالمية الأولى إلى هبوط ملموس لنفوذ الفئات الاجتماعية المنافسة من أبناء الطوائف. وكان ذلك يتم أحيانًا نتيجة انخفاضها العددي بسبب هجرة مجموعات من المثقفين اليونانيين مثلاً أو السوريين إلى أوطانهم أو هجرة كثيرين من الأجانب المحليين إلى أوروبا. ولكنه في الغالب كان

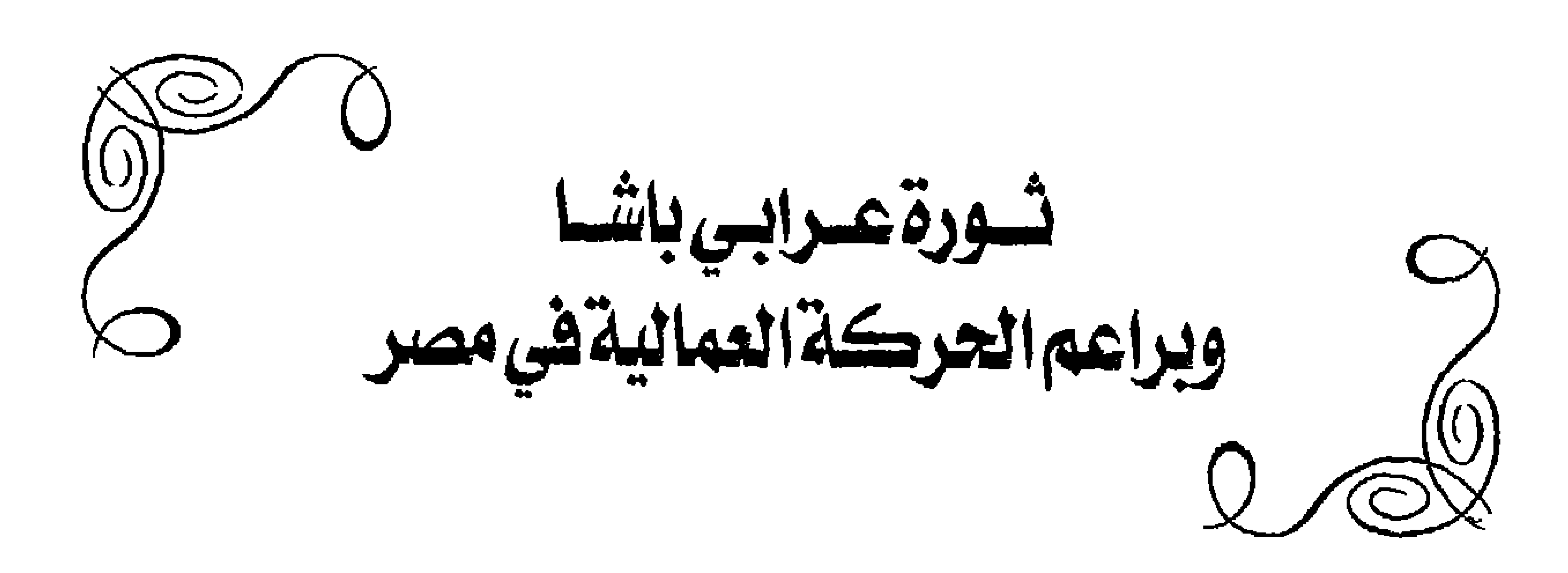
ذلك الهبوط يجري تدريجيًا وتتناوب فيه فترات المد والجزر. ويجري عن طريق التلاحم الفئات الطائفية كانت تفقد خلال مركزها الفريد الذاتي.

ولكن هذه العملية قد قطعتها ثورة 1952 وما ترتب عليها من التطورات. ذلك أن نضال المصريين المشروع العادل من أجل استقلالهم الوطني والتصاعد السريع لوعيهم الوطني كان يرافقه تصاعد لميول التعصب القومي وحتى معاداة للأجانب. وكان من نتائج أزمة قناة السويس لعام 1956 صدور قوانين حول فرض الحجز على ممتلكات رعايا بريطانيا وفرنسا وابعادهم القهري من مصر، مع العلم أن معظمهم كانوا من أبناء الطوائف المحلية. فقد شملت هذه الاجراءات مثلاً نصف مجموع الطائفة اليهودية البالغ عددها 60 - 70ألف نسمة. واجتاحت البلاد حملة فصل العلمال والموظفين من أبناء الطوائف المحلية من العمل. وسرعان ما غادر معظم اليونانيين مصر بعد صدور القوانين المذكورة بموجب الاتفاقية المعقودة بين حكومتي مصر واليونان. وأعقبت الاصلاحات التقدمية في 1961 - 1964 في مصر موجة جديدة للهجرة والتي شملت هذه المرة السوريين والأرمن غالبًا.

وقد أسفر كل ذلك عن اختفاء شبه كامل للطوائف الاثنية من مصر، الأمر الذي كانت له نتائج متناقضة. فمن ناحية كان سحق القمة البرجوازية الطائفية وتأميم ممتلكاتها مكسبًا خطيراً لسياسة عبد الناصر الراديكالية. إلا أن النزوح الجماهيري للكوادر المؤهلة الثمينة من العمال والاساتذة والعلماء والاطباء والموظفين واصحاب العمل كان يمكن أن يفيد مصر ويخدم أهداف حكمها التقدمي. وبالإضافة إلى ذلك فإن الهجرة من مصر أصبحت بالنسبة لمعظم أبناء الطوائف، خصوصًا لممثلي طبقاتها الوسطى الفقيرة مأساة حقيقية حيث كانوا قد نشأوا في مصر ويعتبرونها وطنًا لهم. كما أن الكثيرين منهم فوجئوا بضرورة التخلي عن امتيازاتهم وتسهيلاتهم التي كانوا يتمتعون بها طوال حياتهم، مثيرين استياءً مشروعًا لدى المصريين المحرومين من أمثالها.

وبصورة عامة فإن تجربة الأقليات الدينية الاثنية في مصر أن دلت على شئ

فإنها تدل من مجهة على الدور الكبير الذي لعبته هذه الأقليات في مسيرة التطور الرأسمالي كما تدل، من جهة أخرى، على ضخامة المشاكل والتناقضات الناجمة عن ذلك والتي يستحيل اصدار أحكام قاطعة فيها، ناهيك عن إيجاد حل سريع لها.



# ثورة عرابي باشا وبراعم الحركة العمالية في مصر

حظيت الأحداث التي شهدتها مصر قبل مائة وعشرين عام باهتمام مركز لدى الأوساط المتنورة في روسيا، والتي كانت تتابع هذه الأحداث باعجاب متعاظم وانتباه لا يخبو على سبيل المثال، كتبت مجلة (بشير اوربا السياسية الاجتماعية الشهرية الصادرة في سانت ـ بطرسبورغ: «إن الشعب المصري الذي كان يرزح ردحًا طويلاً من الزمن تحت تسخلط الموظفين الانجليز والفرنسيين المتسترين بستار الإدارة المحلية شبه المستقلة قد كشف فجأة عن معالم وجود مستقل. فقد تشكل ما يسمى بالحزب القومي، مع مشاركة عنصر عسكري، رافعًا شعار «مصر للمصرين». وكانت الحركة موجه بالدرجة الرئيسة ضد السيطرة الأوربية المتسترة بالمطالب المالية لمقدمي القروض إلى الخديوي، وبالعناية بأمن قناة السويس... وقد وعدت (الحركة) باحياة الأمة المصرية التي نسيها الجميع».

وانعكس موقف فئة المثقفين في روسيا هذا في مختلف الأدبيات والمراجع الأخرى أيضاً. لهذا يعتبر وجودها في الاتحاد السوفيتي أمراً منطقيًا مشروعًا وليس طارئًا. وتتيح هذه المراجع الروسية المنشأ ادخال بعض الاضافات عن خصائص العملية التاريخية في مصر أبان ذلك العهد، ومن ضمنها مولد الحركة العمالية الوطنية التي كانت بداية نشوئها حتى وقت قريب تعزي إلى اضراب عمال التبغ في القاهرة الذي حدث في تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين (كانون الأول (ديسمبر) 1899 - شباط (فيراير 1900).

إلى جانب الطبقات والأوساط الاجتماعية التقليدية شملت الحركة الجماهيرية المناهضة للاستعمار في عام 1882 فئات اجتماعية جديدة كانت لا تزال في المراحل

الأولى من تكونها ، ومن بينها فئة الكادحين الاجراء العاملين في القطاع الرأسمالي الاستعماري من الاقتصاد المصري. وفي تقديراتنا أن عدد هؤلاء العمال الاجراء من النمط الرأسمالي قد بلغ في عام 1882قرابة 40-50 ألفا ، كان من بينهم حوالي 10 آلاف من عمال سكك الحديد و 10-15ألفًا من عمال الموانئ و10 آلاف من عمال السفن وألفان من عمال شركة قناة السويس، الخ. وكان المصريون يشكلون الأغلبية الساحقة من العمال غير المؤهلين ونصف العمال المؤهلين؛ أما الباقون فهم أساسًا من أبناء بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط وبعد انخراط العمال في حركة التحرر الوطني واسهموا بقسطهم فيها ، تقدموا في الوقت ذاته بمطالبهم الطبقية.

تشخيصًا لوضع مصر الاقتصادي، كتب الصحفي الروسي سكالكوفسكي الذي زار هذا البلد مرتين في تخوم عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر: « ..إن النظام المالي المريع ينهب السكان نهبًا منقطع النظير... وقد ابلغني بعض العارفين من الناس أن 3 أو 4 سنوات من إدارة كهذه سوف تؤدي بمصر دون شك إلى الإفلاس. ففي الوقت الراهن باعا الفلاحون كل ما لديهم من النحاس الذي أودعوا فيه مدخراتهم، غيرأن الضرائب تتنامى باطراد وتدفع بالأهالي العاملين إلى اليأس». وكان الصحفي محقا. فأزدياد الضرائب الذي لا يطاق مع تقلص مواعيد جبايتها انعكس انعكاسًا بالغ الخطورة على مستوى حياة ضعفاء الحال من المصريين، ولا سيما الفلاحين «الذين باتت أوضاعهم لا تحتمل بحيث أخذ أكثرهم وجلاً يجاهر باحتجاجه».

وكان الوضع في المدن مماثلاً. فإلى جانب الأسباب العامة التى أدت إلى انخفاض مستوى حياة المصريين - إنفاق أموال الدولة على تسديد فوائد الديون، الضرائب، الخ - كانت هناك عوامل أخرى وقع الجزء الأعظم من أهالي المدن بفعلها في أحضان الفقر: ارتفاع أجور السكن، النمو الجامح لأسعار المواد الغذائية منع ضآلة الجرايات والأجور. ففي عشية أحداث عام 1882 ارتفعت أسعار القمح، مثلاً،

إلى 3 - 4 أمثالها مقارنة بعام 1864، وأسعار الزيت النباتي إلى الضعفين، وأسعار الخضروات ولحم الضأن إلى ثلاثة أضعاف، وأسعار الفول إلى أربعة أمثاله في عام 1882 كان سعر الكيلو غرام الواحد من لحم البقر يساوي 4.4 قرش، لحم الضأن 5.5، والسكر حوالي 2 قرش، الرز 1.3 قرش. وكانت أجور العمال غير المؤهلين أبان ذلك تساوي 2 - 3 قرش في اليوم. ولم يكن حتى عمال النسيج المؤهلون يتقاضون أكثر من 3 قروش في اليوم. وكانت أجور عمال الكبس والوزن في بورصة القطن بالإسكندرية «أعلى» قليلاً، أي 3.5 و 5 قروش على التوالي. وتفاقم وضع العمال الاجراء المادي بفعل ما لا نهاية له من التأخيرات في دفع الأجور، بحيث كانت تصل إلى سنة كاملة.

واضطر انخفاض مستوى الحياة المطرد الأهالي إلى مراجعة السلطات. فاتجهت طوابير لا نهاية لها من الفلاحين وسكان المدن إلى الوزارات، فأرسوا بذلك بداية حركة احتجاج واسعة النطاق ضد ظروف المعيشة الشديدة الوطأة.وقد كتب المؤرخ المصري رفعت سعيد. أن عرائض الاحتجاج كانت سلاحًا جديداً... سلاحًا ثوريًا. وكانت عرائض الاحتجاج خطوة جماعية، احتجاجًا جماعيًا، واصبحت بديلاً لبراعم الاحتجاج الفردية...

قبل عام 1881 لم تكن الحكومة والموظفون يلتفتون إلى عرائض احتجاج الكادحين، لأن «كل الأماكن الحكومية، ومن ضمنها المحاكم كان يشغلها أشخاص ذوو أصل تركي لا مصري». وكان مستخدموا الدولة من الشراكسة والاتراك الأغراب على الشعب المصري بمنأى عن احتياجات الأوساط الواسعة من أهالي مصر، لذا لم يكونوا - بطبيعة الحال - يفكرون بتقديم العون للمتقدمين بالالتماسات،. وقد كتبت التايمز اللندنية بهذا الشأن: «إن التماساتهم تلقي بإهمال على ارضيات المكاتب».

وتغير الوضع تغيراً جذريًا بعد حركة الجيش الثورية عام 1881 التي جاءت إلي السلطة في نتيجتها القوى القومية، وهي مكتب الشريف الثالث وتشكيلة برلمانية

جـديدة. ثم شكلت في 5 شبـاط (فبـراير 1882) حكومـة من الجناح الراديكالي للحزب القومي بزعـامـة محمود سامي البارودي وأحمد عرابي. وأشرف الوطنيـون المصريون الذين جاءوا إلي السلطة في نتيجة حركة الجماهير الشعبية الواسعة على البت بمطالب الأوساط الواسعة من الشعب المصري. وتمكنت الحكومة الوطنيـة، رغم قصر موعد مكوثها على دست السلطة، من انجاز الكثير في سبيل تخفيف اعباء أهالي المدن والأرياف في مـصـر. على سبـيـل المثـال، جرى تحريم أعـمـال السـخـرة والعقـوبات الجسـديـة التي كان يتـعـرض لهـا الفـلاحون، وأقـر دسـتـور جديد للبلد يعكس طموحـات وآمـاني أوسـاط أوسع من أهالي مـصـر، وبوشر بحـملة لتنحيـة الأجـانب من مناصب الدولة العليـا، ورفـعت جـرايات العـسكريين والمسـتـخـدمين الحكوميين، ونظم ترقيـهم الوظيفي وما إلى ذلك. وكان هذا في جوهر الأمر برنامج كامل لتـجـديد مـصـر سـيـاسـيًا واقـتـصـاديًا واجـتـمـاعـيًا على أسـاس وطني مناهض للاستعمار.

ونالت مساعي الحكومة إلى تلبية الاحتياجات الملحة للأوساط المنخفضة الدخل من المجـتـمع تأييـداً عـامًا واقـترنت بتـصـاعد نشـاط حركة تقديم الالتـمـاسـات التي اصـبـحت حـافزاً للمزيد من الأوساط الاجتـمـاعـيـة وفـئـات السكان لمفاتحة «مـجـيـريهـا الأخـيـار». وانخـرط في حـركـة الالتـمـاسـات بنشـاط عـمـال ومـسـتـخـدمـوا القطاع الرأسمالي الاستعماري من الاقتصاد.

إن أول شكوى مـعـروفـة لنا هي ذلك الإلتـمـاس تـقـدم بهـا العـاملون في مـؤسـسـة حكومـيـة هي البرق والبريد. ومن المحـتـمل جداً أنهم سبق أن تقـدمـوا قبل ذلك غـيـر مرة بالتماسات إلى المراجع العليا، لكن عريضتهم رفعت هذه المرة إلى إدارة مؤسسة البرق والبريد عـبـر صـحـيـفـة «الأهرام» التي نشرتهـا يوم 3 كـانون الثـاني (يناير 1882). وطالب منتسبو المؤسسة في شكواهم برفع الأجور. وأيدت الصـحـيـفـة التـمـاسـهم، وعـبـرت عن أملهـا في أن ينال عـاملو البرق والبريد منذ بداية العـام الجـديد عـلاوة مناسـبـة على مـرتبـاتهـم. وهذه العـلاوة، في رأي «الأهرام»،

«سوف تكون منصفة تمامًا، لأنهم يقومون بخدمة مناطق شاسعة من البلد، وصولاً إلى أبعد القرى والارياف».

والالتمـاس التـالي الذي وصلنا قـدمـه وزانو بورصـة الإسكندرية. وكـان كل محصول القطن المصري عمليًا يمر عبر هذه البورصة: إذ ولم يكن يقوم بوزنه وفرزه سوى الوزانين الرسميين الذين أدوا القسم. وكانوا يتقاضون لقاء عملهم عمولة محددة. وعلى الرغم من أن دور التجارة ودوائر الدولة التي تقوم بعقد صفقات في البورصة كانت تحقق أرباحًا ضخمة، ظلت أجور عمل الوزانين البدني المرهق والضار بالصحة منخفضة جداً. لهذا توجهوا إلى السلطات بنشر التماس يوم 19 نيسان (أبريل) في جريدة «الوقائع المصرية» كانوا يأملون بواسطته لفت انتباه الرأي العام إلى أوضاعهم المفجعة. ووقع على هذه الشكوى بالإضافة إلى الوزانين أيضًا حمالو الفحم في ميناء الإسكندرية. وفي اليوم التالي نشرت نفس الجريدة التماس سائقي نقل الركاب في الإسكندرية الذي تضمن - هو الآخر - مطالبة بزيادة الأجور. وبلغ عددهم 62 شخصاً. ونظر البرلمان المصري في التماسي عمال الوزن والنقل في هذه المدينة: فأحالت لجنة البرلمان الالتماس الأول إلى وزارة المالية، ورفضت الالتماس الثاني باعتباره «غير مقبول». وتجدر كذلك الإشارة إلى أن كل هذه الشكاوى والالتماسات تتضمن أيضًا مطلبًا بمساواة المتقدمين بها في الحقوق مع الأجانب، ودفع اتعابهم أسوة بالأجانب الذين كانوا يتقاضون أجوراً أعلى. وهذا ما نصت عليه، تحديداً، مطالب البصامين والعاملين في قطاع النقل.

وتشغل الأحداث التي شهدتها بور سعيد مكانة خاصة في تاريخ النضالات المبكرة للعمال الإجراء المصريين. ففي ربيع عام 1882 نشب فيها نزاع بين إدارة شركة استيراد الفحم الإنجليزية والعتالين المصريين. ويمكن اعتبار هذا النزاع أول اضراب معروف لنا في تاريخ الحركة العمالية الوطنية المصرية.

كان عدد سكان بور سعيد التي نشأت بالنظر لإنشاء قناة السويس قد بلغ في عام 1882 حوالي 17ألف نسمة، منهم 3136 أجنبيًا. وكانت بور سعيد تزود

بالوقـود والمياه والمواد الغـذائيـة كل البـواخـر البـحـرية سـواء المارة منهـا عـبـر قناة السـويس أو السـائرة على الخطوط التي تربط مـوانئ البـحـر الأسـود وشـرق البـحـر المتوسط مع موانئ أوربا وأمريكا. وكان يجرى في بور سعيد أيضًا تحويل البضائع من سفـن إلى أخـرى. وكـان هـذا الميناء يخـدم يومـيًـا مـا لا يقـل عن 10 - 15 سفينة.

وبالإضافـة إلى مرسى السفن الكبير كـانت في بور سعـيـد ممثليات للشركات والوكالات التجارية الأوربيـة والشركات البحرية وحوض كبـير للسفن وورشات لشركة قناة السويس، حيث كان يجرى أحيانًا تصليح معقد للسفن، كما كان فيها مصنع غازي صغير ومعامل لإنتاج الجليد والمشروبات والمياه الغازية وما إلى ذلك.

على هذا النحو كان نشاط الميناء التجاري يحدد طابع المدينة الاقتصادي. ذكر أحد الرحالة الروس أن «.. المدينة تعيش حصراً على تلك الغيلان تلقى مراسيها في ميناء المدينة».

وكان يعمل في الميناء بضع مئات من عمال ورشات التصليح التابعة لشركة قناة السويس ومرشديها البحريين وطواقمها الأخرى، وعدد غفير من عمال المستودعات والوقادين وجرافي الفحم الذين كانت تستأجرهم السفن الأجنبية من بور سعيد إلى عدن ذهابًا وإيابًا، وكذلك عمال الزوارق وأخيراً الحمالين وكان عدد هولاء الأخيرين كبيراً بصفة خاصة ويبلغ، فيما يبدو، ما لا يقل عن 2 - 3 آلاف شخص. «حشد من العمـال» ـ هكذا وصف سكالكوفسكي. سكان المدينة. وكـانت أعـمـال التـفـريغ والتحميل الشاقة من نصيب المصريين بالدرجة الأولى. «إن السودانيين والفلاحين والعرب والزنوج مشغولون بتفريغ وتحميل الفحم من الصباح إلى المساء، ـ وهو عمل بالغ الضرر لا تتحمله حتى أشد الرئات قوة ومتانة» ـ هكذا مثل حمالو بور سعيد أمام عيني رحالة روسي آخر.

على الرغم من عزلة بور سعيد الجغرافية النسبية عن باقي مناطق مصر، كان هذا «العـصب المركـزي» للمـركـز السكاني المائر والزاخـر بالحـيـاة في منطقـة قناة

السويس يتجاوب تجاوبًا حساسًا مع كل الأحداث الجارية في مصر وما حولها. وكان هذ الأمر بالنسبة للفترة التي نحن بصددها أكثر وضوحًا، ذلك أن البلدان الغربية، وبالدرجة الأولى انجلترا وفرنسا، كانت تستثير المشاعر بشكل مفتعل حول قناة السويس، وتلصق بانتصار عرابي تهمة كتم نوايا ترمي إلى تعطيلها كي يتسنى لهم بذلك إلحاق ضرر جسيم بالتجارة الدولية. ولكن تجدر الإشارة، دون إقلال من أهمية المهدات السياسية الداخلية والخارجية للنزاع الطبقي في بورسعيد، إلى أولوية العوامل الاقتصادية في تكوين بنية العمال الاجراء المصريين المرتبطين بالإنتاج الرأسمالي الاستعماري الكبير الذي تمثل بصفة خاصة في جيب شركة قناة السويس

في مطلع عام 1882 حدث تردد ملحوظ في ظروف عمل حمالي بور سعيد المصريين وأوضاعهم المادية. فقد ترك أثراً في أجورهم انخفاض سعر الفحم الإنجليزي في موانئ حوض البحر الأبيض المتوسط في نتيجة انخفاض أسعار نقله من انجلترا. وفي الوقت ذاته ارتفعت أسعار المواد الغذائية المرتفعة أصلاً مقارنة بعام 1881 في نتيجة انتشار وباء الكوليرا في بلدان الشرق المتوسط التي كان يجلب منها إلى بور سعيد جزء كبير من المواد الغذائية.

وأدى انخفاض قيمة الفحم وأسعار نقله، وبالتالي انخفاض أجور العمال من جهة، وتنامى عدد البواخر الجاري تقديم الخدمات لها، وبالتالي حجم ما ينفذ من أعمال، من جهة أخري، إلى تعاظم مجهود عمال التفريغ والتحميل. وكانت شركات «وكلاء الشحن» أو «مستلمي الشحن» - هكذا كانت تنعتهم الصحافة الإنجليزية والفرنسية - تدفع لقاء نقل الطن الواحد من الفحم فرنكًا واحداً أو 4 قروش تقريبًا. وأشار من عاصر هذه الأوضاع إلى أن معظم عمال الفحم الذين كانوا ينقلونه في زنابيل كبيرة وزن كل منها 25 كغم. لم يكن يتقاضى أكثر من 6 قروش في اليوم، رغم أنهم كانوا ينقلون بضعة أطنان منه في اليوم. وكان جزء كبير من أجورهم يستقر في جيوب الشيوخ المتعهدين، إذ كان حمالو بورسعيد ينتظمون في ورش

نقابية يرأسها ما يسمى بـ «مكاتب الفحم» التي يتولى أمرها الشيوخ الذين يطلق عليهم أحيانًا نعت «الكوماندية». وكان هؤلاء يعينون ويفصلون من مناصبهم بأمر وكلاء الشحن بموافقة محافظ بور سعيد المصري. ولكن لم تكن هناك رقابة محكمة من قبل سلطات الدولة على نشاط «الكوماندية».

وبعد الفروغ من العمل كان الشيوخ أصحاب العقود يتقاضون من الوكلاء الذين استأجروهم مكافآت يومية قدرها 5 - 10 قروش لقاء تجهيزهم باليد العاملة. وكان هؤلاء الوسطاء، عادة، يستحوذون على جزء كبير من الأموال المخصصة للعمال. وكانت هذه الممارسة تؤدي إلى استغلال مزدوج لعمال الفحم - من قبل الشركات الرأسمالية الغربية ومن قبل العناصر الطفيلية المحلية، أي الشيوخ. ولهذا لم يكن من المصادفة أن يتقدم عمال الفحم المضربون بمطالب ضد هؤلاء أو أولئك من المستغلين.

وكان الدافع المباشر للاضراب هو قيام الحكومة المصرية بفرض ضرائب جديدة بسبب الأزمة المالية النقدية الشديدة التي تقع جريرتها على المراقبين الأوربيين وأوساط رجال الأعمال الذين كانوا يمسكون بزمام التجارة والمالية في مصر. واستغل شيوخ النقابات زيادة الضرائب للقيام بتحايلات جديدة على أجور الحمالين التي كانت خاضعة أصلاً لضرائب عالية. وتفيد بعض المعطيات بأنها كانت تشكل 12 بالمئة من الأجور.

في أواخر آذار (مارس 1882 تقدم عمال الفحم في بور سعيد إلى الشركة الإنجليزية (يبدو أنها كانت «وورمز، جوس آند كومبني»)، وهي أكبر دار تجارية في بورسعيد كوى طالبوا فيها برفع تعرفة نقل الفحم إلى الضعف وإلغاء «مكاتب الفحم». ورفضت إدارة الشركة مطلبي العمال كليهما. عندئذ كف حمالو الفحم عن العمل واعلنوا الاضراب. ومنيت بالفشل محاولات المتعهدين استخدام كاسري اضراب من أوساط عمال المستودعات وغيرهم من عمال المدينة. وقام عمال الفحم المضربون بعد أن اجهضوا جهود المتعهدين ووكلاء الشحن الرامية إلى إيجاد بديل

لهم برجم أحد أمقت الشيوخ بالنسبة لهم بالحجارة. وكتبت الصحافة الأوروبية: «إن أحداث شغب وسعة تسود المدينة». وما لبث أن انضم إلى الاضراب حمالو الشركات الأخرى. وبرغم الضغط الذي مارسه الشيوخ ومستلمو الشحن، لم يتراجع العمال عن مطالبهم. وذهبت مساعي المحافظ لاقناع العمال إدراج الرياح هي الأخرى.

وأدى هذا النزاع الطبقي الحاد إلى جعل رئيس الوزراء محمود سامي البارودي يذيع يوم 1 نيسان (أبريل) أمراً بتشكيل لجنة تحكيم حكومية. وكانت هذه اللجنة، مثلما ذكرت «الأهرام» يوم 25 نيسان (أبريل 1882)، «ملزمة بوضع قانون لعمال الورش يضمن لهم حقوقهم أمام الشركة المذكورة». في الوقت ذاته قرر وكلاء الشحن الانجليز، بعد أن فشلوا في العثور على كاسري اضراب محليين، جلب عمال من باقي موانئ البحر الأبيض المتوسط. ولكن بسبب خشيتهم من أن يؤدي جلب اليد العاملة الأجنبية إلى اضطرابات أوسع نطاقًا، قاموا بإبلاغ أ. ماليت، القنصل العام البريطاني في مصر. فقام ماليت يوم 8 نيسان (أبريل) بزيارة محمود سامي البارودي، و«حصل منه على تأكيد بعدم وجود مخاوف في هذا الصدد». كما أبلغ القنصل العام بأن لجنة قد أرسلت إلي بور سعيد لحل المسألة موقعيًا.

بعد مرور فترة من الوقت على وصول اللجنة الحكومية إلى بور سعيد لاحت معالم حل وسط بين عمال التحميل وأرباب العمل. وتمثل هذ الحل في أن أرباب العمل وعدوا - في حالة خروج الحمالين إلى العمل - بتلبية مطالبهم، وباشر العمال - بانتظار قرار اللجنة وحتى تسوية النزاع - في تفريغ وتحميل الفحم بالتعرفة لسابقة. «لقد انتهى الاعتصام بين الحمالين، وباشر العمال بالعمل على أساس الأجور السابقة بانتظار حل الخلاف».

توقف الاضراب يوم 13 نيسان (أبريل)، لكن النزاع ظل بلا تسوية. وواصلت اللجنة عملنا طوال شهر تقريبًا وخلصت إلى نتيجة مفادها أن العمال يجب أن يتقاضوا لقاء تحميل الطن الواحد من الفحم مبلغ 1 فرنك و13 سنتيما (4.4قروش) أي أكثر بـ 13 سنتيما فقط، أو 0.5 قرش من التعرفة السالفة. أما أعمال التحميل

فقد طالبوا بأجر مضاعف. عدا عن ذلك، اقترحت اللجنة بعد اطلاعها على ظروف عمل الحمالين اصدار قانون من شأنه أن ينظم العلاقات بين العمال والشركات الأجنبية.

ورفضت إدارة «وورمز، جوس آند كومبني» قرار اللجنة بشأن زيادة تعرفة نقل الفحم. علاوة على ذلك، بعثت الدور التجارية في أوروبا الغربية بممثليها إلى مالطا كي ينقلوا منها بضع مئات من العمال بغية ممارسة ضغط بذلك على عمال التحميل المصريين، وفي نتيجة تصلب موقف عمال الفحم الذين شجعتهم مساندة اللجنة الحكومية وقراراتها، وافق وكلاء الشحن على إلغاء «مكاتب الفحم». ودفع أجور العمال مباشرة، لكنهم رفضوا تلبية مطلب زيادة التعرفة، معلنين أن التعرفة مرتفعة أصلاً (بهذا الصدد انظر في ادناه). على هذا النحو استطال امد النزاع.

في هذه المرة لم يتسن لحمالي بورسعيد تحقيق تلبية تامة لمطالبهم. علاوة على ذلك، سرعان ما اضطرت حكومة البارودي التي كانوا يرون فيها مجيراً لهم إلى الاستقالة في 26 أيار (مايو). وعلى الرغم من أن النجاح الراديكالي من القوميين المصريين بزعامة أحمد عرابي كان لا يزال القوة الحاسمة في مصر، أثر خطر التدخل الأجنبي المسلح الذي خيم على البلد تأثيراً مباشراً أيضًا على النزاع في بورسعيد وفي هذه الظروف رفضت الشركات كذلك تلبية مطالب العمال الأول، أي الغاء «مكاتب الفحم». وتقويما للموقف الناشئ في المدينة خلال ذلك الوقت كتبت صحيفة «الأهرام» يوم 24 أيار (مايو) أنه لابد من حل وسط، وإلا سيؤول الأمر مرة أخرى إلى مجابهة.

بعد وصول اسطول دول أوربا الغربية إلى الإسكندرية في أواسط أيار (مايو) 1882 أدى خطر الاحتلال الواضح إلى التفاف الأغلبية الساحقة من المصريين حول عرابي وانصاره. وجرى على قدم وساق العمل على إقامة التحصينات وصنع الأسلحة وتصليحها وتخزين المؤن. ويستدل من المعطيات الأرشيفية التي أجراها ل. سليم أن عملية بناء المنشات الدفاعية في كل مكان قد شارك فيها «عمال البناء

والنجارة والخراطة والرخام والصب وعمال العديد من الاختصاصات الأخرى . على سبيل المثال، قاموا ـ تحديداً ـ بترميم التحصينات القديمة وإقامة أخرى جديد في القاهرة، في منطقة جبل المقطم. وكلما اقترب خطر الاحتلال انخرط الأهالي بمزيد من النشاط في الاستعداد لصده. واكتسبت نضالات الشعب الوطنية أبعادا خاصة بعد انزال القوات البريطانية في الإسكندرية. «في قلعة القاهرة يجرى العمل ليل نهار. إذ يقوم قرابة ألفي عامل بصنع الخراطيش. وتعمل ورشة المدافع هي الأخرى بطاقتها الكاملة » ـ هذا ما بثه يوم 20 آب (اغسطس) جون نينه، مراسل عدة صحف فرنسي. واشارات الصحافة المصرية في ذلك الوقت هي الأخرى إلى أ عمال الورش والمعامل الحربية «يعلمون الآن ليل نهار وبمثابرة أكبر مما في الماضي» . وإلى جانب العمل المضطلعين بإقامة الاستحكامات في مشارف القاهرة ـ شبرا والعباسية ـ كان يزاول العمل عدد غفير من أعضاء أسرهم.

بيد أن الاسهام «البدني، المادي» ليس هو وحده، الذي يسهم مشاركة العمال الاجراء المصريين في صد العدوان البريطاني. فقد كان مستوى نشاطهم الاجتماعي والوطني يتيح لهم الاضطلاع بعمل تحريضي وتوضيحي بين الأهالي. مثلاً، قام خياطو الإسكندرية بجمع تواقيع احتجاج على استقالة أحمد عرابي باشا ، وعلى تدخل الدول الغربية. وكان شيخهم حسن المصري ملهمًا لهذه الحملة في حي الجمرك الاسكندراني. وأصبح سائق القاطرة محمد سليمان داعية لأفكار عرابي على الطرق الحديدية. ونظم العمال مسيرات جماهيرية تأييداً للانتفاضة وضد تعسف الأجانب. فمن معطيات ل. سليم، مثلاً، كان الاسكافيون وعمال المقاهي والخياطون يسيرون في الشوارع مرددين: «يا الله يا جبار، موّت جنود الكفار!».

وقدم الشعب الكادح لقيادته الوطنية معونة من نوع آخر أيضًا. فبالنظر لكون الخزينة المصرية خاوية بفعل النهب الامبريالي استجاب العمال والحرفيون لنداء حكومة عرابي وتبرع كل فرد منهم بـ 10 قروش. ورحب المصريون الفقراء ومتوسطو الحال من المستخدمين بقرار القيادة الوطنية القاضي بتخصيص 5 بالمئة من الأجور

لإغـاثة اللاجئين من الإسكندرية والأمـاكن الأخرى التي احتلهـا العـدو خلال المرحلة الأولى من الصراع مع العدوان البريطاني.

واعرب الكثير من العمـال عـن رغـبتهم في التطوع إلى الجيش الوطني. وتلقى أحـمـد عـرابي وهو يشرف على إعـداد منظومـة الدفـاع في كـفـر الدوار الكـثيـر من البرقيات بهذا الخصوص. وقدم إليه من الفيوم وحدها 400 شخص. ويستحق تقديراً وثنـاء خاصاً موقف اتحادات السماكين والصيادين من بحيرة المنزلة. فقد اتخذت كل الإجراءات اللازمـة لمنع الخصم من التـوغل إلى عـمـق القوات المصرية المدافعـة عن تحصينات ديب وجميل بين دمياط وبور سعيد. علاوة على ذلك، وصل 500 شخص من هذه الاتحادات إلى التحصينات المذكورة لاسناد الحاميات المرابطة هناك.

وفي وقت لاحق شارك الكثير من المدنيين مشاركة مباشرة في العمليات الحربية. وكتب مفتي الأزهر محمد عبده الذي كان شاهد عيـان على المبارزة المدفعيـة في الإسكندرية: «إن الرجال والنساء كانوا تحت وابل نيران القذائف الانجليزية ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى من تبقى من المدفعيين الذين كانوا يطلقون النار وينشدون الأناشيد... » ونوه شـاهد عـيـان آخر على قـصف هذه المدينة بأن النسـاء والبنات والأبنـاء كـانـوا يقـدمـون للجنود الرابضين على القـلاع القنابل والذخـائر والدانات والبارود، وكان بعض الأهالي يقومون بتقليم المدافع واطلاقها على السفن. وبعد انزال القوات البريطانية قام أهالي الإسكندرية وعددهم يبلغ 150 ألفا بمغادرة المدينة معبرين بذلك عن عمق مشاعرهم الوطنية.

وبعـد احتـلال الإسكندرية في 13 تموز (يوليـو) رفض عـمـال الموانئ والسكك الحديد وغيرهم التعاون مع المحتلين (أي تقديم الخدمات لقواتهم ومعداتهم ووسائط نقلهم)، مما أدى إلى مقاطعة تامة للقوات البريطانية. ويصلح مثالاً على ذلك قرار عمال الفحم في بور سعيد بالبدء باضراب فوري: فقد رفضوا تحميل السفن الأوربية بالفحم تعبيراً عن احتجاجهم على قصف الإسكندرية، واستمر اضرابهم من 11 إلى 16 تموز (يوليو).

ويستدل من جميع الشواهد أن الإنجليز استخلصوا درساً من اضراب عمال الفحم في بورسعيد ربيع عام 1882، لهذا عندما خططوا تخطيطاً بالغ الدقة لاحتلال مصر، اعدوا لهذه العملية سلفًا ما يلزمها من المعدات وطواقم الخدمات. فعلى وجه التحديد اشترت الحكومة البريطانية لأغراض بعثتها المسلحة 5 قطارات يتألف كل منهـا من 12 عربة، وارسلت من انجلترا «ستة كيلومترات ونيف من القضبان الحديدية ولوازمها و250 فرداً من المهندسين والعمال». وكان لدى الفصيل الهندي 3500 عامل. رغم كل ذلك اصطدمت الحكومة البريطانية منذ البداية بجملة من الصعاب في تأمين اليد العاملة. على سبيل المثال، اعلن جزء من عمال السفن الهنود، وهم من ابناء المناطق الساحلية الجنوبية الغربية من شبه القارة الهندية، ومعظمهم من المسلمين الذين استأجرتهم حكومة الامبراطورية البريطانية للعمل على البواخر التي استأجرتها لغرض تقديم الخدمات للعميات في مصر من شركة «بينينسيولر آند اورينتال كومبني» الانجليزية الخاصة، عن رفضهم الإبحار من انجلترا تعبيراً عن «التضامن الإسلامي». «وحرمت البواخر من طواقمها في الحج لحظة. ورغم أن العمال الهنود المسلمين عادوا إليها في وقت لاحق، فضلت الحكومة أن تعمل على وسائط النقل طواقم مؤلفة حصراً من بحارين انجليز».

وعندما وطأ المحتلون الأرض المصرية اصطدموا بالكثير من الصعاب، منها شحة النقل بالسكك الحديد للتوغل في عمق البلد، وعدم صلاحية الطرق الحديدة ومعداتها. وكان عمال سكك الحديد والقوات المصرية يفككون القضبان وينسفون طرق السكك الحديد ويختطفون القاطرات وعربات الركاب والشحن ويتلفون معدات السكك الحديد. وفي الاسماعيلية عثر الإنجليز على قاطرة «قديمة لا تكاد تكون صالحة»، ولهذا «كانوا مستائين جداً من نشاط قطاع سكة حديد الإسماعيلية - القصاصين» . ومع توفر قاطرتين آخريين واهنتين جلبتا من انجلترا، لم تتمكن القيادة البريطانية من ضمان تجهيز قواتها على الوجه الأوفى. ولم يتسن للإنجليز، إلا بوجود قناة لمرور السفن، نقل الذخيرة والمواد الغذائية والعلف وما يلزم للمعركة الحاسمة عند تل الكبير بواسطة صنادل تجرها لنشات. وبذل عمال سكك الحديد

المصريون كل ما في وسعهم لإعانة أهالي الإسكندرية على مغادرة المدينة بهدوء يوم 11 تموز (يوليو)، أي في يوم قصف المدينة، علمًا بأنهم اجلوا أهالي الإسكندرية إلى القاهرة والمدن الأخرى بالمجان.

كانت أبعاد تعطيل العمال للنقل بالسكك الحديد وطرق المواصلات، بما في ذلك في منطقة قناة السويس كبيرة جداً، واستمر تأثيرها حتى بعد احتلال مصر. وكانت أعمال الإرباك والتعطيل التي استهدفت السكك الحديد هي بالذات ما يفسر سلسلة التفجيرات في محطة القطار بالقاهرة يوم 28 ايلول (سبتمبر 1882)، التي تم في نتيجتها تدمير 108 مقطورات محملة بالذخائر ومصرع بضع عشرات من الأشخاص. وجرت إعادة جزء من الفرقة الأجنبية إلى انجلترا بعد «تهدئة» مصر ببطء شديد نتيجة «شحة وسائل السكك الحديدية اللازمة لنقل القوات من مناطق مصر الداخلية». وجرى كل هذا رغم أن المحتلين استولوا في وقت لاحق على الكثير من القاطرات والعربات، وجلب قدر آخر منها من انجلترا، بينا قامت فرق تصليح أرسلت من دول المتروبول بأعمار الطرق والمعدات المعطلة. بيد أن أعمال التخريب التي استهدفت السكك الحديد استمرت حتى بعد ذلك الحين. ولم تنتظم حركة القطارات بعض الشئ إلا في تشرين الأول (أكتوبر 1882). ولكن حتى في ذلك الوقت كانت تتعالى أصوات تطالب إدارة السكك الحديد بـ «اتخاذ تدابير عاجلة» بحق الطواقم التي كانت تبدي بشكل واضح عدم رغبة في ممارسة العمل الروتيني، وتحاول قدر الإمكان احباط هذا العمل.

وكان عمال ميناء الإسكندرية قد سبقوا عمال السكك الحديد في الالتحاق بالنضال ضد احتلال البلد على يد الفرقة الأجنبية البريطانية وسياسة الخديوي توفيق الخيانة. فبعد إعلان مقاطعة المحتلين قبل انزال القوات في المدينة، غادر جزء كبير من المرشدين البحريين الإسكندرية برفقة الجيش المصري: «.... لقد غادر كل السكان العرب المدينة مع القوات. ولم يعد ممكنا الآن العثور على عمال. ولم يبق من 40 مرشداً بحرياً سوى ثلاثة، وحتى هؤلاء ظلوا لأنهم كانوا يعملون على سفن

حربية أوربية». وكف عن العمل عمال الزوارق وعمال اللنشات الذين كانوا ينقلون الفحم والشحنات من البواخر إلى الساحل وبالعكس، وكذلك عمال المستودعات والحمالون، الخ. وكانت كل الشركات التجارية الأجنبية العاملة في الإسكندرية، رغم ما تعرضه من أجور مرتفعة، تعاني مصاعب جمة بسبب شحة اليد العاملة. وكان وكلاؤها يراجعون المكاتب الرئيسية بطلب أن تكون السفن التجارية المتجهة إلى الإسكندرية محملة باحتياطي كامل من الفحم يكي لطريقو عودتها أيضًا. ورفض العمل أيضًا عمال سفن شركة «الخديوية» الحكومية لنقل الركاب والشحن والبريد. واستأنفت كل الشركات الأجنبية مع حلول يوم 28 تموز (يوليو) رحلاتها باستثناء بواخر «الخديوية» التي لم تستطع الخروج إلى البحر لخدمة الخطوط التي تربط مصر بموانئ البحرين المتوسط والأحمر، ذلك أن المتوفر من البحارة وعمال السفن لم يكن يكفي إلا لسفينتين.

وكانت الأمزجة المناوئة للامبريالية وللأجانب تسود بين عمال ومستخدمي الفروع والمؤسسات الأخرى. فقد أعلن المقاطعة عمال المطابخ القائمة باصدار الصحف باللغات الأجنبية. مثلاً، لم تصدر صحيفة «فار دي الكساندري» إلا بصفحة واحدة لأنه «لم يبق في المطبعة سوى عاملين». وقد افادت الصحيفة المذكورة بأن «فخامة علي باشا مبارك (كان وزيراً للشؤون الاجتماعية في وزارة شريف باشا الرابعة التي شكلت في 20 آب 1882 المؤلف) راح بعد عودته إلى القاهرة يجد في البحث عن مستخدمي وزارته الذين ساندوا زعيم المتمردين خلال الأحداث الأخيرة». وقاطع خبازو الإسكندرية أيضًا المحتلين والخديوي وأفراد حاشية الذين كانوا موجودين آنذاك في الإسكندرية. إذ كان الخبازون ينتجون من الخبز ما يكفي بالضبط لحاج القوات المصرية ثم يقومون بنقله، رغم المخاطر، عبر خط الجبهة إلى كفر الدوار، حيث يربض الجيش الوطن.

وتستحق اهتمامًا خاصًا مساهمة فصائل كثيرة من العمال الاجراء المصريين العاملين في منطقة قناة السويس في النضال المناهض للاستعمار. فقد اقدمت

القيادة البريطانية حين اصطدمت بمقاومة الجيش المصري الضارية، وخشية تعذر اختراق تحصيناته عند مشارف الإسكندرية، على تحويل الضربة الرئيسية إلى جناح القوات المصرية من جهة قناة السويس «المحايدة». وفي 3 آب (أغسطس) قامت الانجلو ـ هندية بإنزال في السويس. فغادر الأهالي المدينة، بينما أعلن عمال شركة قناة السويس المصريون الاضراب احتجاجًا على الغزو الانجليزي.

وأثارت بور سعيد مخاوف جادة المحتلين بسبب الاضراب القريب العهد الذي ارتدى طابعًا واضح العداء للانجليز. عدا عن هذا، كان بإمكان المحتلين أن يعلموا بما لدى عمال بور سعيد من امزجة قوية معادية للانجليز، أخيراً، من أقوال محافظ قناة السويس اسماعيل حمدي باشا الذي اضطر بسبب موقف أهالي بورسعيد المعادي له إلى تمضية أربعة أسابيع على متن إحدى السفن الحربية البريطانية قبل استيلاء المحتلين على المدينة. وكان بمقدور الانجليز أن يستشفوا مزاج عمال بورسعيد كذلك من اضراب عمال إدارة حرس السواحل في بورسعيد. فقد رفض هؤلاء تحميل بالات البضائع معلنين الاضراب.

وقام سفير الحكومة البريطانية في الاستانة دافيرين باستئجار حمالين اتراك لسد احتياجات العملية المقبلة فوصل بورسعيد 150 حمالاً على أثر الاحتلال مباشرة، يـــوم 20 آب (أغسطس) (في نفس اليوم استولت قوات الانزال الانجليز على الاسماعيلية.

«إن الحي العربي في المدينة يكاد يكون مهجوراً تماماً» ـ هذا ما نقله يوم 21 آب (أغسطس) مراسل التايمز الانجليزية من بور سعيد. فقد غادر المدينة سكان هذا الحي العربي، ومعظمهم من العمال، احتجاجًا على الاحتلال. وقبل ذلك، كما أفاد المراسل نفسه، «كان البوليس قد اعتقل عدداً من العرب بسبب تهديدات واهانات موجهة للانجليز». واتخذ الانجليز، تحوطا لهجوم من طرف من تبقى من السكان العرب، كل تدابير الحذر والحيطة: «لقد نصبت مدافع رشاشة في أماكن عديدة من الشارع العريض الذي يفصل الحي العربي عن الشطر الأوروبي من المدينة».

وفي ليلة 20/19 آب (أغسطس) غادر حمالو بورسعيد المدينة قبل حدوث الانزال، واتجهوا نحو حصن جميل الواقع على لسان ضيق يفصل بحيرة منزلة عن البحر الأبيض المتوسط، (كان يدافع عنه 1200 من الضباط والجنود المصريين) المدرعة «نورتومبرلاند» «بغية وقف عمال الفحم العرب الخارجين من بورسعيد». عدا عن ذلك، اضرب عمال البوارج والكراكات التابعة لشركة قناة السويس والتي كانت تقوم بإعمال وقائية في القناة.

وعلى الرغم من جلب عمال اتراك، وكذلك هنود، ظل الانجليز يعانون نقصاً حاداً في الحمالين. وحتى المكافأة الكبيرة، وقدرها 10 شلنات، أو 50 قرشًا في اليوم، لقاء تفريغ العدو والذخائر والمواد الغذائية اللازمة للفرقة الأجنبية البريطانية لم تمكنهم من شراء ذمم الأغلبية الساحقة من الحمالين المصريين. وقاطع حمالو بورسعيد الذين اختبأوا ـ فيما يبدو ـ في حصن جميل، وكذلك ديب ودمياط، عروض المحتلين بـ «التعاون». وتتوفر كل المسوغات للاعتقاد بأن عمال بورسعيد الكثيري العدد من ذوي الميول الوطنية قد شدوا في عضد المدافعين عن حصنى جميل وديب. فقد صمد جنود وضباط هذين الحصنين المصريون فترة أطول من المدافعين عن سائر القلاع الأخرى، ولم يستسلموا إلا بعد دخول القوات الإنجليزية إلى القاهرة واعتقال عرابي وانصاره.

ولم يتمكن المحتلون من ارغام المدافعين عن جميل على الاستسلام يوم 20 ايلول (سبتمبر 1882، إلا بعد أن حشدوا عند حصن جميل مدرعتين وقرويت واربعة من زوارق السواحل. واستمر صمود دمياط. لم يكن اهاليها ـ ومعظمهم من العمال والحرفيين ـ يبخلون بشئ في سبيل النصر. فقد بعث أحد قادة الانتفاضة، وهو عبد العال حلمي، رئيس حامية دمياط بالبرقية التالية إلى القاهرة: «إن جميع الأهالي يساعدوننا». وكانت المشاعر الوطنية في هذه المدينة أوضح مما في أي مكان آخر، باستثناء بورسعيد. فأحتجاجًا على العدوان البريطاني هاجم أهالي دمياط مبنى القنصلية البريطانية وحطموا نوافذها ومزقوا العلم البريطاني وداسوه باقدامهم. وبعد احتلال البلد قدم الإنجليز المشاركين في الهجوم للمحاكمة.

وبعـد سقوط جـميل ودمـياط (23 ايلول (سبتـمبر)) ظلت بورسعيد «معقل المقاومة الوحيد». ولعب الدور الأساسي خلال ذلك نفس عـمال الفحم الذين عـادوا إلى بورسعـيد بعـد «تهدئة» مصر. هذا ما نقله في أواخر تشرين الأول (اكتـوبر) مراسل التايمز الانجليزية من بورسعيد، مبلّغا «باستمرار اضراب عمال الفحم العرب المحليين في المدينة». وفي واقع الأمـر لم يتـوقف النزاع بينهم وبين وكـلاء الشـحن الأجـانب منذ آذار (مـارس) 1882. وذكرت الصحافة المصرية في اواسط تشرين الثـاني (نوفـمبـر 1882) أن «... واقع الأشيـاء هذا (أي الإضراب) مسـتـمر منذ بضعة اشهر... وليس هناك حتى الآن أي تقدم في الخلافات بين العرب ومستلمي الشـحن... ومـهـمـا يـكن من أمر، يجدر أن يتـمنى المرء إيجـاد حل للمسـألة التي تفـصل بين مـستلمي الشحن والعمـال المحليين، إذ كـانت مئـات عـديدة من هؤلاء العمال يعيشون مرتاحين بعملهم بالوقود، أما الآن فمن المحتمل جداً أن جزءاً كبيراً منهم يعانون الفاقة. ومن المؤسف بعد هذا القدر من محاولات المصالحة التوصل إلى نتائج مؤسفة تزيد من شدة الخلاف. ويبدو أن اللجنة التي عينت في حينها للتحقيق لم تتمكن من تدليل كل دافع عدم التفاهم المتبادل».

واكتسب نضال الحمالين المصريين في ايلول ـ تشرين الثاني (سبتمبر – نوفمبر 1882) من جديد، وكما كانت الحال في ربيع العـام نفسـه، أبعاداً واسعة. واحتـفظ العمال بمطالبهم السالفة وهي: الغاء «مكاتب الفحم»، ودفع أجور الحمالين من قبل أرباب العمـل مباشرة، وكذلك مضاعفة تعرفة العمل «العاجل وغير المقرر» نهاراً. عدا عن ذلك، رفض الحمالون العمل ليلاً.

ولكن إذا كـان أرباب العـمل في الربيع محـدودي الامكانيـات إلى حد مـا في اتخاذ تدابير فورية وحاسمة ضد المضربين وكانوا مضطرين إلى تقديم تنازلات، ولو جزئيـة، فلم يعـودوا الآن يتـحرجون في استـخدام اقذر الوسائل، وبات بمقدورهم أن يفـعلوا بالعـمـال «الأصليين» مـا يحلو لهم. ولا يسع المرء إلا أن يندهش للبطـولة والصمود والتفاني التي ابداها في مثل هذه الظروف الشديدة الوطأة، الميئوس منها

تقريبًا ، الحمالون المصريون الذين لم يتفولذوا بعد عمليًا في اتون المعارك الطبقية، والذين كانوا تجسيداً لبواكير فصائل العمال الاجراء الوطنيين من النمط الرأسمالي.

ومثلما كان متوقعًا ، جاء رد وكلاء الشحن محدد المعالم ووحيد المدلول. فقد وصفت ادارة الدور التجارية مطالب العمال بانها «اطماع مفرطة» ، ورفضت منح العلاوة التي قدرها 12.5 سنتيم، معلنة أن فرنكا واحدا لقاء الطن يعتبر تعرفة مرتفعة أصلاً، وكافية تمامًا ، وأن العمل في هذا الميناء يرتدي طابعًا دائميًا ، وأن «العمال الاصليين» ينفذونه بسرعة مدهشة. أما في الموانئ الأخرى التي تقدم خدماتها لعدد أقل من البواخر، في رأي وكلاء الشحن، فالاجور أقل. ولطبيعة الحال لم يتطرق مستلمو الشحن خلال ذلك لا إلي امتداد يوم العمل، ولا إلى كثافة العمل، لا إلى ظروفه التي «لا تتحملها حتى أكثر الرئات قوة ومتانة». بعد ذلك تساءات صحيفة «فار دي الكساندري»، ولعلها الصحيفة الأكثر وقاراً آنذاك في مصر: «كيف يمكن للعامل العربي المعروف بقناعته وزهده، والذي ينفق على حياته جراء هذا الزهد قدرا أقل مما ينفقه زملاؤه في الموانئ الأخرى، إلا يكتفى حتى بأجر أعلى؟ هذا هو السؤال المطروح في الوقت الراهن!».

لم يستسلم العمال، وعندها لجأت الشركات الأجنبية في بورسعيد إلى إقفال باب العمل يوم 27 تشرين الأول (أكتوبر 1882). واضطلعت بتحميل الفحم طواقم السفن، أما أغلبية عمال الفحم فقد غادرت إلى دمياط. وتجدر الاشارة إلى أن قباطنة السفن كانوا في الماضي أيضًا يستخدمون بحارتهم في تحمبل الفحم. ولكنهم كانوا في اغلب الأحوال يستخدمون المجهود الرخيص للغاية للحمالين المصريين الذين يستغلهم مستلموا الشحن الأجانب والوسطاء المحليون دون حياء. وفي الوقت ذاته لجأ أرباب العمل إلى وسيلة مجربة هي استئجار كاسري الاضراب. ففي 13 تشرين الثاني (نوفمبر) وصلت إلى بورسعيد دفعة أولى من العمال قوامها 150 شخصًا جلبوا عبر الإسكندرية من جميع ارجاء البحر المتوسط. وشكت الصحافة المحلية من أن هذا العدد من الحمالين لا يكفي بتاتًا ، ومن أن العديد من

البواخر اخذت تتجه إلى ماطا للتزود بالفحم. وبعد مضي اسبوع واحد بلغ كاسري الاضراب 400 شخص، وجرى استئجار الأوربيين الذين حلوا محل المصريين بنفس تلك الشروط التي رفضها العمال المحليون. بعبارة أخرى، كان عليهم أن يتقاضوا فرنكًا واحداً لقاء تحميل الطن الواحد و85 سنتيما لقاء تفريغه. عدا عن ذلك، وعد كاسرو الاضراب بأنهم سيتقاضون فرنكين يوميًا في الأيام التي لن يكون فيها ثمة عمل يزاولونه.

ولاجل الامعان في افزاع العمال المصريين طلب وكلاء الشحن من سلطات الاحتلال ارسال قوة عسكرية، في مسعى منهم إلى ارغام هؤلاء المضربين على السكوت مرة واحدة وإلى الأبد، بعد أن ظهروا فجأة على أرض مصر التي كان من المفترض أن تكون قد «استعمرت»، ولاسيما في منطقة قناة السويس ـ «ضيعة» الرأسماليين الأوربيين. وفي 13 تشرين الثاني (نوفمبر) وصلت سفينة «اينفينسيبل» الحربية الانجليزية إلى بورسعيد. ومراعاة لابعاد النزاع الطبقي في هذه المدينة ـ الميناء المهمة وامتداد امده وصلابة موقف العمال، قررت السلطات إبقاء السفينة في بورسعيد طوال موسم الشتاء. وصمد المضربون لأكثر من أسبوع اخر، لكنهم اضطروا في آخر الأمد، بعد أن وجدوا أنفسهم بلا مورد رزق، إلى الموافقة على شروط الرأسماليين الأوربيين. وانتهى الاضراب يوم 20 تشرين الثاني (نوفمبر 1882). وكتبت «فاردي الكساندري»: «أن العمال الأصليين تراجعوا أخيراً، وكسبت الدور التجارية الدعوى». وبالإضافة إلى الأسباب المذكورة آنفًا التي ساعدت على وقف الاضراب، لا ينبغي أن ننسي سببًا آخر هو الهزيمة الماحقة التي ألحقت أبان تلك الفترة بحركة التحرر الوطني. إذ كان عرابي باشا وانصاره قيد التحقيق ولم يتبق على الجلسة الأولى للمحكمة العسكرية سوى اسبوعين (3 كانون الأول (ديسمبر))، وفي 27 منه كان زعماء الثورة برئاسة أحمد عرابي باشا يركبون البحر الأحمر في الطريق إلى منفاهم في سيلان.

لقد أدى التوسع الامبريالي الذي سرع من نضوج الكوادر الأولى من العمال

الاجراء المصريين من النمط الرأسمالي، في التحصيل الأخير، إلى بروز سريع أيضًا لبواكير براعم الحركة العمالية. وجرى التعويض عن عدم اكتمال تكون الفصائل الأولي من الكادحين الاجراء المصريين بعامل سياسي هو النهوض الجبار لحركة التحرر الوطني. وكانت ثورة عرابي باشا هي تلك القوة المادية التي ساعدت العمال الاجراء على استعادة الذات والتحرك من مواقعهم الطبقية ضد الرأسماليين الأجانب. وعلى صعيد آخر، كان نضال حمالي بورسعيد الطبقي موجهًا ضد سماسرة تأجير العمال، أي الشيوخ، واكتسب طابع التمرد العفوي مع استخدام العنف في النضال ضد الظروف ما قبل الرأسمالية للعمل الأجير المنزوع الحرية.

لقد أدت هذه العملية، أي تكون الفصائل الأولى من العمال الاجراء الوطنيين من النمط الرأسمالي قبل مائة وعشرين عامًا، إلى نشوء جملة من أشكال النضالات الطبقية المبكرة للكادحين الاجراء، وهي حركة الالتماسات وعرائض الاحتجاج والاضرابات المقرونة بطرح مطالب اقتصادية واضرابات المقاطعة. في الوقت ذاته اتضح أن العمال، رغم قلة عددهم وضآلة خبرتهم كانوا أكثر المناضلين من أجل التحرر الوطني صموداً وثباتًا. فقد واصلوا مقاومة المحتلين طوال شهر ونصف الشهر بعد استسلام القوى الوطنية الأخرى، أي الفلاحين والاقطاعيين والحرفيين والعناصر البرجوازية الحديثة العهد.

* * * *

# تطور المصطلحات
# العمال والاضراب
## في مصر القرن التاسع عشر- بداية القرن العشرين

لا يمكن أن نتحدث عن العمل المأجور من الطراز الرأسمالي في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلا فيما يخص عدداً قليلاً من المنشآت الخاصة الصغيرة التي أجرها والي مصر محمد علي باشا لأصحاب العمل الأجانب والأقليات القومية مثل اليونانيين والأرمن واليهود والسوريين المسيحيين. حسب معطيات الأستاذ المصري لويس عوض (وهو كان استاذاً في جامعة القاهرة)، وصل عدد مثل هذه المنشآت إلى 44 في عام 1838. أما في المصانع والمعامل الحكومية الكثيرة التي أنشأها والي مصر تكونت فئة من العاملين فيها بلغ عددها بضعة عشرات الآلاف من الأفراد. أن هؤلاء العاملين كانوا نتاجًا طبيعيًا لـ «اقطاعية الثكنات» وكانوا شبه مسخرين.

وجدير بالذكر أنه لم يكن هناك اسم موحد للمشتغلين حينئذ، وقد سماهم عبد الرحمن الجابرتي في كتابه بشكل مختلف «الصناع»، «أرباب الصنائع والحرفة»، «أهل الحرفة» والخ...

«.. اجتهد ببناء أسوار الإسكندرية وجدد بها أبراجًا وحصونًا وأرسل بطلب البنائين والصناع فجمعوهم من كل ناحية ..». «... وطلبوا للسفر طائفة من القبانية ومن الخبازين ومن أرباب الصنائع والحرف..». «..وأما أجر الأجراء والفعلة والمعمرين فبلغ النصف من القرش..». «... فجمعوا البنائين والحجارين والفعلة للعمل... ونودي بالمدينة علي البنائين والفعلة بأن لا يشتغلوا في عمارة أحد من الناس...». وفي نظرنا، كان مصطلح الجابرتي «فعلة أكثر دقة بالنسبة

للمشتغلين الذين كانوا يعملون في منشآت مصر الحكومية في عصر محمد علي باشا.

إن زيادة الزحف الاقتصادي الأوروبي، بعد حملة محمد علي السورية الثانية الفاشلة التي كانت مرتبطة بالصراع على السلطة داخل الامبراطورية العثمانية، أدّت إلى كسر احتكارات والي مصر وانهيار معامله ومصانعه وإلى بدء التحديث الكولونيالي لنظام المجتمع التقليدي المصري من أواسط القرن التاسع عشر. وكان الرأسمالي الأوروبي محركًا أساسيًا للتغيرات السياسية والاقتصاذية والاجتماعية والثقافية والروحية في البلاد. وقد اصبح العمل المأجور ظاهرة ملحوظة في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، خاصة في منطقة شركة قناة السويس وفي قطاع النقل والمرافق الحضارية والموانئ وبعض الصناعات (في صناعة التبغ غالبًا).

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين شهدت مصر حركات الطبقة العاملة المصرية الآخذة في النمو. عندما كانت الصحف المصرية تذكر نشاط الكادحين الأجراء الاجتماعي في ثلث القرن الأخير كانت تلجأ إلى استخدام المصطلح «فعلة» أيضًا. لكن على عتبة القرنين، مع تقوية العلاقات الرأسمالية وخروج الطبقة العاملة المصرية إلى المضمار الاجتماعي والسياسي تختفي الكلمة «علة» تدريجيًا وتستبدل بالتعبير «عملة» («عمال») الذي يستخدم في مصر حتي الآن.

هكذا كانت جريدة الأهرام قد نشرت رسالة //// من بورسعيد عن اضراب عمال ميناء بورسعيد الذي حدث من 21 إلى 25 مايو سنة 1894: «.... وما أن بزغ نهار البارحة حتى اجتمع سعادة المحافظ وعَزْتْلُو الحكمدار وجاء إلي المحافظة أرباب البنوك وأولي الأهمية عندنا وبقيت الاجتماعات والأحاديث بشأن الاعتصاب متوالية إلي عصر اليوم حيث كان قد اجتمع عمال الفحم... ولكن هذا كله لم يأت بحل مسألة هذا الاعتصاب بالرغم عن المنشور الذي أصدره سعادة المحافظ إلى هؤلاء العملة ...» وتنشر الأهرام في 9 من يوليو 94: «... تتوالى

اعتصابات عملة التبغ في القاهرة وذلك لقلة أجورهم...» وفي 27 من يوليـو في نفس السنة: «... لا يزال اعتصاب لفافي السجائر قائمًا على قدم وساق...».

وكمـا نرى، فـإن التـحرك الجـمـاعي للعـمـال يُعـرَّب عنه بواسطة المصطلح «اعـتـصـاب». أن الجذور الأصليـة للمـصطلح «اعـتـصـاب» ترجع إلى التـعـبـيـر «عـصـبـيـة» الذي، بدوره، تعـود جذوره إلى الجـاهليـة ويقـصـد به تضامن المسلمين، تضامن قبيلة ما.

ويفسر «المنجد» كلمة «اعتصاب» بـ «تَوَحدَ»، أي «اجتمع لحل مسألة، قضية ما»، «شكل جماعة، اتحاد»، «صاروا عصبة»، «صاروا عصبة في الامتناع عن شئ مـا»، «اعتـصـبوا عن العمل». وبعد ذلك اصبحت تظهر أكثر فأكثر الكلمة «اضراب» التي ترجع نشأتها إلي البروليتاريا الايطاليين «التوقف!». في مجلة «المقـتـبس» القـاهرية في سنة 1907 كـان المصطلحـات يتـواليـان فـيـقـال: «اعـتـصـابات» أو يقـال: «اضرابات»، كـمـا يقـال «معـتـصـبون» أو «مـضـربون» («المقتبس»، 1907، المجلد 1، الجزء 7، ص 362). وقبيل الحرب العالمية الأولى أخذ المصطلح «اضـراب» يزاحم بإلحاح المصطلح «اعـتـصـاب» في الاسـتـعـمـالات اليومية والمقالات الصحفية ...الخ.



# الذكرى المئوية الأولى لصدور جريدة الأسكرا

● **مقدمة:**

لا يمكن شطب أحداث تاريخيـة ذات مغـزى عـالمي وإلى مثل هٰذه الأحداث تنتسب ثورة أكتوبر الاشتراكيـة العظمى التي هزت العـالم كله كمـا لا يمكن أن نشطب من ذاكرة التاريخ اسم فلاديمير لينين الذي وإلى جانب نابليـون، تشيرتشيل وغيرهما دخل سجل التاريخ إلى الأبد.

وهذه المقالة مكرسة للذكرى المئوية الأولى على إنشاء «الطريق المصرى» لنقل جريدة «الاسكرا» من أوروبا إلى روسيا من خلال الإسكندرية تلك الجريدة التي خلقت ظروفًا ملائمة لإنشاء حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي الذي حقق ثورة أكتوبر الاشتراكية في عـام 1917 وقد نشرت هذه المقالة لأول مرة باللغة الروسية في مجلة «الاستشراق» التابعة لجامعة موسكو (العدد الأول لسنة 1987) في الذكرى الخمسين لثورة أكتوبر الاشتراكية. والان تقدمها لأول مرة للقارئ العربي للحكم عليها.

إن فلاديمير لينين قد وضع أمامه مهمة تأسيس حزب من طراز جديد قادر على قيـادة النضال الثوري للبروليتارية الروسيـة مع مراعاة ظروف الاضطهاد الدائم والمطاردة الدائمة للبوليس السري القيصري للاشتراكيين الديمقراطيين، فكان لابد من إصدار جريدة لعموم روسيا في الخارج، يكون واجبها توحيد المجموعات المبعثرة للثوريين داخل البلاد وصياغة البرنامج والإعداد لمؤتمر الحزب. في يناير 1901 صدر في ليبزج العدد الأول من جريدة الأسكرا (تعني باللغة الروسيـة كلمة الشرارة) وكانت مدعوة لإنجاز هذه المهمة التاريخية. وفي ألمانيا وفي 10 مـارس

1901 رأي النور المجلة النظرية لحزب المستقبل «الفجر».

وحينما حان يوم الجد ظهر السؤال حول كيفية نقل هذه المطبوعات إلى روسيا وكذلك أعمال لينين وغيره من الاشتراكيين الديمقراطيين ذات نفس اتجاه تنظيم الاسكرا؟ ونظراً لعدم توافر قنوات الاتصال الدائمة والمأمونة فقد أرسلت هيئة تحرير الاسكرا في الفترات الأولى جزءاً من المطبوعات الثورية عن طريق الحقائب خاصة ذات جدران وقاع مزدوج. وفي مايو 1901 كتب لينين يقول «إن النقل بالطريقة السابقة ليست مأمونة مطلقًا وعبثية» واتخذت مجموعة تنظيم الاسكرا في ميونخ مع من يشاركونهم في الرأي تدابير وجهود كبيرة لتنظيم نقل المطبوعات الثورية للاشتراكيين الديمقراطيين الروس. وإلى نهاية عام 1901 تم توصيل مطبوعات تنظيم الاسكرا إلى البلاد عن طريق أربع طرق رئيسية. الهولندي (عن طريق بلغاريا ورومانيا) البروس (الألماني) (عن طريق مخرج فيلنيوس الحالي) الفارسي (عن طريق فينا وتبريز وباكو) المارسيلي (عن طريق السفن الفرنسية من مرسيليا إلى باتوم (جورجيا حاليًا).

تم توريد حوالي 120 «بود» (البود وحدة وزن روسية تساوي حوالي 36 رطلاً مصريًا أو 16 كيلو جرام) تم توريد هذه الكمية من المطبوعات الثورية إلى روسيا إلى بداية عام 1902.

إن عملية ترتيب طريق خاص لنقل إصدارات تنظيم الاسكرا في شكل ما، تتطلب احتياجات شديدة لكن المسألة بخصوص جريدة الاسكرا كانت كبيرة جداً. لذلك تقرر طبع الجريدة في روسيا. وفي صيف عام 1901 ظهرت مطابع ثورية (سرية) في كيشينيوف لتنظيم الاسكرا في عموم روسيا، وظهرت مكاتبها العامة إلا أنه ولعدد من الأسباب فإن مكتب التنسيق الروسي لتنظيم الاسكرا لم يكن قد تأسس بعد، وأهم هذه الأسباب اشتداد عمليات التجسس والترصد البوليسي منذ عام 19001 لنشاطات الاسكراويين ثم حشد وتعبئة كل قوى قسم المباحث وفصائل البوليس السري (المكاتب السوداء) كل ذلك في مكاتب البريد. ثم يشتد

ويتضاعف جهود الإدارة المركزية للمباحث وللمسئول الأول عن ملاحقة الاشتراكيين الديمقراطيين وهو العقيد زوباتوف أحد أخطر العاملين في جهاز المباحث الذي نقلوه من موسكو إلى إدارة المباحث في الولايات الجنوبية والغربية.

وفي أكتوبر 1901 كان قد تم تحطيم مراكز نقل المطبوعات الثورية في فيلنيوس وأودويسا وبطرسبورج وتم إلقاء القبض على الإسكراويين في باكو والمدن الأخرى. وكانت الضربة الأساسية التي وجهتها سلطات البوليس في فبراير - مارس 1902 حينما تم اكتشاف المطْبَعة في كيشنيوف وقبل التهديد بهذا الانهيار كانت قد توقفت مبعة باكو عن العمل. وفي كييف تم القبض على كل أعضاء اللجنة المحلية تقريبًا لتنظيم الاشتراكيين الديمقراطيين. ونتيجة لهذه الإخفاقات توقفت تقريبًا عمليات إمداد وتوصيل كل المطبوعات الثورية من الخارج. كذلك تمزقت نظم الاتصالات والمراسلات وبدى الدمار شاملاً غير أن الدرك قد أخطأ في حساباته أو أساء في تقديراته.

وفي نهاية يناير 1902 وفي عز غمرة الاضطهاد والتنكيل انعقد في سمار مؤتمر ممثلي تنظيم الاسكرا في روسيا وناقش المبادئ الأساسية لبناء التنظيم وصاغ بوضوح المهام العاجلة التي تضمن وتؤمن الوحدة الفكرية والتنظيمية لأغلبية اللجان والمجموعات الخاصة بالاشتراكيين الديمقراطيين العاملة في روسيا.

نهضت روابط مكتب التنظيم الروسي للاسكرا بالتدريج ومن خلاله أيضًا هيئة تحرير الاسكرا في المدن الروسية الكبرى. ونظراً للنهضة الكبرى لتنظيم «الاسكرا» في التنظيمات المحلية للاشتراكيين الديمقراطيين وللمتطلبات المتزايدة لمكتبها وتحت القيادة المباشرة لهيئة التحرير هذا بجانب نهوض القنوات السابقة لنقل «الاسكرا» دخلت لمرحلة خلق وإنشاء وتأسيس طرق مواصلات جديدة ذات اتساع ملموس جغرافيا لنقل المطبوعات الثورية من أقصى الدنيا إلى أدناها من الغابات الشمالية القطبية إلى الجبال الإيرانية إلى القارة الأفريقية. وفي مارس 1902 ظهور بصيص وإشعاعات محدودة في مجموعة تنظيم الاسكرا في خرسون، وقد نظمت طريقها

من خلال الإسكندرية (مصر) وتسلمت ثلاثة بودات من المطبوعات. إن مسألة نقل مطبوعات تنظيم «الاسكرا» من خلال مصر كان قد نظر إليها من قبل، ففي أواسط عـــام 1901 وفي خطاب موجه من لينين وكروبسكايا (زوجة لينين وسكرتيرته في نفس الوقت) إلى مجموعة تنظيم «الاسكرا» في باكو جاء فيه أتريدون إرسال كمية زنتها 5 بود إلى مصر؟ نحن لا نقر إرسال أكثر من بود واحد أو اثنين في المرة الأولى ـ ثم كم من الوقت يلزم لوصول تلك الكميـة؟ وكتبت كروبسكايا في 5 أغسطس 1901 في المرسلات الدورية تقول «إنه وفيما يخص الإسكندرية فإنه ومن جديد لا تستطيع إرسال مثل هذه الكمية الكبيرة وعلى كل حال فإن تحقيق إرسال جريدة «الاسكرا» عن طريق البحر ومن خلال الإسكندرية لم يكتب له النجاح في ذلك الوقت.

وفي ربيع عـــام 1902 تم ترتيب نقل مطبوعات «الاسكرا» من خلال الإسكندرية. في هذا الوقت فإن مجموعة الاشتراكيين الديمقراطيين في خرسون والتي كانت على علاقة بهيئة تحرير «الاسكرا» وقد انتهت في خريف عام 1901 من إعداد طريق لنقل المطبوعات الثورية من خلال الإسكندرية. فقد تم إعداد مركز استقبال في هذه المدينة ومنه تنقل إلى سفن الشركة الروسية للبواخر والتجارة (ش.ر.ب.م) ثم تنقل إلى روسيا وكان يوجد مخزن المطبوعات الثورية في مطعم «سيفاستوبول» في الإسكندرية وكانوا يحضرون البريد إلى هنا من خلال مدينة برينديزي الإيطالية الساحلية من ميونخ وبرلين ولندن لأن إدارة جريدة «الاسكرا» كانت تنتقل بين هذه المدن وكان يمتلك هذا المطعم شخص اسمه يوزيفوفتش وهو أحد الرعايا الروس السابقين وحسب بعض المعلومات فإنه قد عاش في الإسكندرية أكثر من عشرين عامًا قبل هذا الوقت.

إن معظم «سيفاستوبول» لم يكن مجرد مركز لنقل المطبوعات الثورية إلى روسيا نظراً لقربه من الميناء وحسب أقوال القنصل الروسي في الإسكندرية كان يتم قراءة الكتب الممنوعة وتدور مناقشة المسائل السياسية الساخنة وسط البحارة

لروس في هذه المدينة وبعد ذلك بقليل نقل الدبلوماسي اليكس سمرنوف في مصر إلى وزارة الخارجية بقول «لقد لاحظ البعض من العاملين في قنصليتنا في الإسكندرية ومراراً وجود مخالفات وخرق للنظام وسط بحارة الشركة الروسية للبواخر والتجارة وحسب ملاحظات قادة السفن يمكننا أن نسلم بأن هؤلاء البحارة بوصولهم إلى ميناء الإسكندرية يقعون في جو ذات تأثير ضار «وتحت هذا التأثير الضار» كان يتواجد هنا ـ في الإسكندرية ـ ليس فقط بحارة السفن التجارية وإنما أيضًا البحارة العسكريون. إن السلطات القنصلية قد نبهت مراراً المتعاملين مع الشركة الروسية للبواخر وقادة السفن الحربية بهذه الحقيقة وأنها ألمحت بشكل خاص إلى مطعم «سيفاستوبول» وقام قادة البواخر بدورهم في منع أفراد طواقم سفنهم بزيارة مكتب يوزيفوفنش. وإلى جانب ذلك حاول الدبلومسيون الروس جذب انتباه السلطات البريطانية والمصرية إلى «النشاطات الهدامة» لصاحب مطعم «سيفاستوبول» لكن هذا المسعى لم يأت بالنتائج المرجوة منها. وحسب كلمات كوياندير رئيس البعثة الديلوماسية الروسية في القاهرة فإن التوجه إلى الحكومة المحلية كانت بلا فائدة لأنه بالنظر إلى الحماية المكشوفة التي يقدمها الإنجليز إلى جماعات تركيا الفتية التي تقوم هنا بالدعاية المعادية للسلطات وأنهم لا يخجلون من مد هذه الحماية إلى العناصر الثورية الروسية أي أن المسألة لم تكن تخص جماعة تركيا الفتية فقط.

إن نقل وحفظ مطبوعات تنظيم الاسكرا وما يتعلق بالدعاية الثورية في الإسكندرية لم يكن ممكنًا لأن المدينة ساحلية مفتوحة تربطها الخطوط البحرية مع العديد من البلدان في كل القارات فقط بل لأن المدينة ومصر كلها بشكل عام كانت تشكل بفضل الوضع المعقد لهذا البلد في العلاقات الدولية موقعًا لممثلي التيارات السياسية الأجنبية من أجل أهدافهم الثورية إن مصر التي احتلها الإنجليز عـــام 1882 وأصبحت فيما بعد مستعمرة لبريطانيا العظمى بقيت بمظهر الدولة الواقعة تحت الرقابة الدولية على أساس ما يسمى بالامتيازات الأجنبية وفي نفس الوقت كانت مصر تدخل في عداد الإمبراطورية العثمانية وقد فقدت إلى حد ما

التبعية للباب العالي. إن الصراع الإمبريالي لكسب مصر قد أعطى النشاطات والأعمال القانونية لممثلي التكلات السياسية التي تعارض الحكومات الأوروبية ولنظام السلطان العثماني عبد الحميد، أعطتها الإمكانية للقيام بهذه الأعمال والأكثر من ذلك فإن السلطات الاستعمارية البريطانية وعلى رأسها المعتمد البريطاني العام اللورد كرومر وهي تأمل أن تظل السيد الوحيد ذات لسلطة المطلقة في مصر قد أغمضت أعينها عن نشاطات الأتراك والمعارضين الأوروبيين. وبهذا الشكل كانت تحاول تشويه صورة نظام الامتيازات الأجنبية التي كانت تستخدمها السلطات القنصلية وتمارس الضغوط على السلطان التركي.

إنه ومنذ بداية تسعينات القرن التاسع عشر كانت مصر إحدى المراكز لنشاطات لحركة تركيا الفنية من الخارج حيث كانت هنا فروع للمنظمات الكبرى لحركة تركيا الفنية والتي كانت لها مطابعها التي تصدر الصحف والكتيبات والمنشورات والتي توجه وتنادي للنضال ضد نظام السلطان عبد الحميد الظالم المستبد وكانت النهضة المميزة لدعايات حركة تركيا الفتية في مصر تجرى في الفترة من عام 1898 إلى عام 1901.

إن ممثلي الحركات السياسية والعمالية الأوروبية قد بسطوا نشاطًا فعالاً وواسعًا وكانوا إما ممن تم إرسالهم إلى مصر أو أتوا إلى هنا لإنقاذ أنفسهم ممن يتعقبونهم ويسعون للبض عليهم أو لمجرد البحث عن عمل. وقد عاش في الإسكندرية وحدها 11700 من الإيطاليين هاربين من وطنهم نتيجة للبطالة والفقر
المدقع وكان بينهم أناس ذات قناعات سياسية مختلفة وعندما أتوا إلى مصر فإن الكثيرين منهم لم يوقفوا نشاطاتهم الثورية بل وعلى العكس زادوا منها يوجهون العمل الدعائي والإثارة وسط مواطنيهم. كما حاول المهاجرون من البلدان المختلفة توحيد جهودهم في النضال ضد الملاك ورجال الأعمال الأوربيين المقيمين هنا في مصر وضد الأنظمة الحاكمة في أوروبا.

لقد أصدر المهاجرون السياسيون في مصر الصحف وكانت لهم مطابعهم

ونواديهم حيث كانوا يجرون المناقشات حول المشاكل السياسية الملحة، وكان الإيطاليون واليونانيون نشيطين بوجه خاص. وعلى سبيل المثال فإن الاشتراكيين الإيطاليين كونوا في البلاد قسمًا محليًا للحزب الاشتراكي الإيطالي كما افتتحوا في شهر يونيو عام 1901 جامعة شعبية حرة في الإسكندرية حيث كانت تلقي المحاضرات وتجري المناقشات السياسية. وتمت الإشارة والتلميحات إلى أن مقتل ملك إيطاليا في صيف عام 1900 كان نتيجة ورد فعل لنشاطات البروليتارية الإيطالية في مصر بشكل خاص، ونظم العمال الإيطاليون في القاهرة مظاهرات تعبر عن سعادتهم عند إذاعة خبر نجاح اغتيال العاهل الإيطالي، نظموا ذلك حول العلم الأحمر، كما أزاحوا كل مظاهر الحداد عن المناسبة وجرت مظاهرات مشابهة في أسوان وأسيوط والإسكندرية والمدن المصرية الأخرى حيث يعمل الإيطاليون.

وبمثل هذا الشكل ساعد الجو السياسي في مصر على خلق مركز مرور لنقل المطبوعات الثورية من أوروبا إلى روسيا وهذا ما وضعه في الاعتبار أنصار لينين.

في خلال مارس 1902 تسلمت مجموعة خرسون من تنظيم الاسكرا شحنتين من المطبوعات الماركسية زنة كل منها 1.5 (واحد ونصف بود) مرسلتين عن طريق ميونخ ـ بريندیز ـ الإسكندرية أوديسا خرسون في 30 مارس عام 1902 كتبت كروبسكايا (زوجة لينين) تقول «الآن هناك طريق يعمل إلى روسيا» وأعلن أعضاء تنظيم الاسكرا الخرسونيون (نسبة إلى مدينة خرسون) أعلنوا في ميونخ بأن بحارة الشركة الروسية للبواخر والتجارة قد وافقوا على نقل حمولة زنتها «ثلاث بودات» وليس «بود ونصف» كما كان من قبل.

وأعلنت كروبسكايا في خرسون وهي تتلقى هذا النبأ قائلة «لقد سررنا جداً بنجاحكم» وتلبية لطلب هيئة تحرير الاسكرا تم في منتصف إبريل إرسال الجزء الأول الكبير من المطبوعات الثورية إلى الإسكندرية. أما الجزء الثاني فسوف يكون أمره في نهاية الشهر نفسه. وبذلك يكون الخرسونيون (أعضاء تنظيم الاسكرا في مدينة خرسون) قد تسلموا أول حمولة للثلاث بودات من مطبوعات

هيئة تحرير جريدة الاسكرا ثم تعقدت الأمور بشكل غير متوقع.

لقد حضر إلى القنصلية بحار من الطرد (ادميرال كورنيلوف) الذي كان يمر بميناء الإسكندرية وأعلن هذا البحار أنه يوجد للمطبوعات الفوضوية الأجنبية باللغة الروسية في مطعم «سيفاستوبول» الذي يمتلكه أحد الرعايا المحليين يوزيفوفيتش وأنه نظراً لقرب هذا المطعم من الميناء يتردد عليه الكثير من بحارة البواخر الروسية.

وأضاف هذا البحار بأنه ومن هذا المخزن توزع المطبوعات الفوضوية في ربوع روسيا من خلال البحارة المذكورين. وكانت الرسائل العاجلة الدبلوماسية المرسلة إلى بطرسبورج تقول بأن الدوائر الدبلوماسية الروسية في مصر في بنيتها أن تجمع وتعلن أدلة تفصيلية بخصوص هذه المسألة.

وبعد أسبوع من الأخطار الأول الذي أرسله رئيس البعثة الدبلوماسية الروسية في القاهرة كوياندير أرسل برقية إلى وزارة الخارجية مضمونها كالتالي «أنه وعلى الباخرة الملكة أولجا» والتي تصل إلى أوديسا في الخامس من مايو القادم فإن كل من وقادي الآلات (العطشجية) تريتياكوف ويوشكوف يحملان مطبوعات ثورية والتي سوف يتسلمها في أوديسا نيكيفور بويكوف البحار في الشركة الروسية للبواخر والتجارة وفي نفس الوقت كان قد تم الإعلان عن هذا في قسم البوليس السياسي في مدينة أوديسا. كما أنه ومن هناك تم إرسال هذه المعلومات إلى رئيس إدارة الدرك في أوديسا. وبالإضافة إلى ذلك تم ارسال أوامر بوضع بويكوف تحت المراقبة السرية والعثور على المطبوعات الثورية التي على الباخرة والقبض على من يحملونها. وبعد ذلك تم إرسال برقية شفرة إلى نفس الإدارة من بطرسبورج تتحدث عن «أن المعلومات عن وجود مطبوعات ثورية وصلت إلى أوديسا بشكل خاص عن طريق البواخر من مصر وجدت تأكيدات ودلالات وإشارات لها من قبل» وبعد ذلك أعلنت قسم البوليس بأنه وفي نهاية مارس عام 1902 تم الحصول (بطريق سري للغاية) على رسالة (كانت تحت المراقبة) من هيئة

تحرير جريدة الاسكرا من ميونخ إلى سامرا تتحدث عن أن مجموعة مدينة خرسون من الاشتراكيين الديمقراطيين الاسكراويين قد نظمت وبشكل مستقل تام طريقًا من خلال مصر.

وبمثل هذا الشكل فإن السلطات لم تكن تعلم فقط بالنقاط النهائية لوسائل نقل مطبوعات الاسكرا غير الشرعية على البواخر عن طريق مصر من الإسكندرية إلى روسيا بل كانت قد اتخذت الاجراءات من أجل تصفيتها لذلك فعند وصول الباخرة إلى أوديسا كانت تتم عمليات تفتيش دقيقة ومحكمة على البضائع وحقائب الركاب وعلى غرف وقادي الآلات (العطشجية) وعلى قسم الآلات. ويمكن القول بأنه لم يوجد شئ أو مكان لم يتم تفتيشه. ونتيجة لذلك كان البحارة يقومون بحرق كل المطبوعات الثورية قبل عمليات التفتيش هذه.وأبلغ الخرسونيون (من هم في مدينة خرسون من تنظيم الاسكرا) هيئة تحرير جريدة الاسكرا عن القبض على اثنين من البحارة على الباخرة وطلبوا عدم إرسال حمولة شهر إبريل؟ وفي 25مايو 1902، كتبت كروبسكايا سكرتيرة هيئة تحرير جريدة الاسكرا في ردها تقول «إنه لمن المؤسف جداً أن ينهار الأمر لقد أصبح الزمن جهنميًا لا نسمع فيه سوى الفشل والإخفاقات».

إن تتبع كل من يوشكوف وتريتياكوف لم يثمر عن شئ غير أن الدرك علم على العاشر من مايو بأنه توجد مخازن كبيرة للمطبوعات الثورية الأجنبية في خرسون. وإن اكتشاف هذه المخازن حيث مطبوعات تنظيم الاسكرا والمتابعة الدقيقة لأطقم بواخر الشركة الروسية للبواخر والتجارة التي تقوم بنقل مطبوعات تنظيم الاسكرا من الإسكندرية إلى أوديسا (ثم بعد ذلك إلى خرسون) وبشكل موازي لذلك اكتشاف مركز (نقطة) استقبال هذه المطبوعات في الإسكندرية ـ إن كل ذلك لم يؤد إلى تصفية «طريق مصر للأسباب التالية:

**أولاً:** من الملاحظ أنه تعذر على السلطات القنصلية الروسية الأقدام سريعًا على إغلاق مخزن (الترانزيت) في مطعم «سيفاستوبول» نظراً للظروف السياسية الخاصة في الإسكندرية.

**ثانيـًـــا:** إنه وبجانب بواخر الشركة الروسية للبواخر والتجارة توجد في الإسكندرية بواخر أخرى تبحر وهي بواخر الشركات غير الروسية ومن بينها شركة مانتاشوف الكبيرة لناقلات منتجات البترول.

**ثالثـًـا:** كانت توجد لدي هيئة تحرير الاسكرا «صلات بحرية أخرى» بجانب أوديسا وخرسون ـ صلات مع باتوم إلى حيث كانت ترد كما سبق المطبوعات الثورية وإليه انتقل تريتياكوف للعمل على الباخرة «بورجوم» التابعة لـ مانتاشوف دون أن يترك أو يعتزل نشاطاته السابقة الثورية.

إن «هيئة تحرير الاسكرا» وقد وضعت في اعتبارها الأمل «النسبي» لمركز (نقطة) الإسكندرية لنقل المطبوعات، والرحلات المنتظمة للبواخر إلى هذا الميناء، والعلاقات والروابط الثابتة نسبيًا مع البحارة. كا ذلك جعل «هيئة تري الاسكرا» تواصل إرسال المطبوعات الثورية كما في السابق إلى الإسكندرية حيث هناك سوف يتسلمها تريتياكوف، وبعدها وعلى الباخرة «بورجوم» التي تحمل الكيروسين إلى مصر يتم توصيلها (المطبوعات) إلى باتوم.

لقد تأخرت الرسائل بين «هيئة تحرير الاسكرا» ومجموعة الاشتراكيين الديمقراطيين في مدينة خرسون حول استئناف توريد المطبوعات الثورية إلى روسيا من خلال الإسكندرية إلى أوائل أغسطس، كما أن تريتياكوف قد غاب عن نظر الخرسونيين بعض الوقت. وفي أغسطس 1902 فقد تسلموا خطابًا من الإسكندرية من تريتياكوف حيث طلب منهم وضع «كلمة سر أو شعار تعارف دائم» وتنظيم العمل على أساس أن يتعرف كل من المستلم والمسلم (الموصل) على بعضهما البعض. وأرسلت «هيئة تحرير الاسكرا» خطابين أحدهما إلى الاشتراكيين الديمقراطيين في مدينة خرسون والآخر إلى مصر (وغير معروف بلدينا مضمون الخطاب الثاني) وفي رسالة كروبسكايا إلى الخرسونيين (الاشتراكيين الديمقراطيين في مدينة خرسون) إشارة إلى كلمة السر في اللقاء مع تريتياكوف في باتوم. وكان على مجموعة مدينة خرسون أن تختار شخصًا للاتصال بالبحارة واستلام

المطبـوعـات الـواردة من الإسكندرية، وفـي نفس الـوقت أبلغـت كـرويسـكايـا إلى خرسون بأن هيئة التحرير سترسل إلى الإسكندرية «1.5 بود » من مطبـوعـات الاسكرا. وتربط كرويسكايا الاشتـراكيين الديمقـراطيين في خـرسـون بأقرانـهم في مدينة باكو بجانب ما سبق وذلك من أجل عـمل مشترك منسق في مجال نشاطات يدخل فيـه باتوم. وكان هذا في وقتـه تمامًا وعندما ظهر تريتيـاكوف على البـاخرة «بورجوم» حاملاً جواز سفر باسم فـيريسـودسكي، وقد أبحرت إلى الإسكندرية. وفي نفس هذا الوقت تكتب كرويسكابا تقول «لدينا في باتوم» ترتيبـات لاستلام بضائع من السفن الفرنسية، وهناك أناس لنا، الآن نحاول تجاربنا الأولى وفي حالة استقرار الأمور فإنه لا حاجة تستحق لترتيب مواقع استلام من «بورجوم» حيث أن هناك ضرورة للاستعداد لاستقبال رسائل الإسكندرية في «باتوم» وترسل «هيئة تحرير الاسكرا » إلى الموجودين في باكو بإشعار ومجئ تريتياكوف - فيريسودسكي والذي يجب عليـه أن ينقل المطبـوعـات من البـاخرة إلى مندوب مـجـمـوعـة باكـو. ولكس تستقر الاتصالات بين من هم في باكـو وبين تريتيـاكـوف - فـيريسـودسكس، أرسل الاشتراكون الديمقراطيون في خرسون رجلهم (الشـخص الذي اختـاروه) إلى «باتوم» والذي وصل إلى هناك بعد انهيار مجموعة الاسكرا في مدينة باكو.

وفي الإسكندرية واصلت السلطات القنصليـة مـتابعتـهـا لمطعم «يوزيفـوفنش» وللبواخر الوافدة من روسيا، لكنها لم تـكن قد توصلت بعد إلى أي دليل، وأخيراً وفـي 10 سبتـمبر 1902 ظهر قبطان البـاخرة «بورجوم» الذي تـوجه إلى إيفـانوف رئيس الهيـئة الدبلومـاسيـة في الإسكندرية وأعلن هذا القبطان واسمـه سالوس أنه عثر في قسم الآلات في باخرته على جوال به «كتيبات متنوعة ممنوعة».

وطلب قـبطان البـاخـرة «بورجـوم» من ايفـانونف استـبـعـاد اسم وقـاد الآلات البخارية فلاديبر فيريسودسكي من كشف طاقم الباخرة لأنه انطلق إلى الشـاطئ ولم يظهر علـى البـاخرة. وأضـاف القـبطـان سـالوس بأن سبب هروبه سـبب سيـاسي. وعلى الفـور تقـدم القنصل بطلب إلى مـحـافظ الإسكندرية بالتـحـري عن

فيريودسكي. وبعد ذلك أرسل قبطان الباخرة «بورجوم» بنسخ من المطبوعات الثورية والتي عثر عليها والمرسلة من ميونخ إلى يوزيفوفنش.

وفي خمسة طرود مرسلة إلى الإسكندرية والتي عثروا عليها في الباخرة «بورجوم» كانت تحوي تقريبًا 1500 نسخة من المطبوعات الثورية بـ 16 عنوان (اسم) ومن أعمال لينين (ما العمل؟) 94 نسخة «في الدفاع عن العمال الشوامخ «44» دفاع ابخوفسكايا» 15 نسخة «مجلة الفجر» الأعداد رقم 2 .3 .23 «جريدة الاسكرا» العدد 13 - 37 نسخة، العدد 14 - 37 نسخة، العدد 15 - 46 نسخة، العدد 16 نسخة واحدة، العدد 17، 184نسخة، العدد 18 - 194 نسخة، العدد 19 - 426 نسخة. وكان الأكثر أهمية من حيث العدد بين المطبوعات الأخرى للاشتراكية الديمقراطية كتيبات «من الحركة العالمية في تبليس «183 نسخة»، «حكايات من الثورة الفرنسية» 96 نسخة، «خطبتان» 37 نسخة وهلم جرا.

لم يعثروا في الإسكندرية على تريتياكوف فيريسودسكي. وفي برقية سرية من القنصل إلى إدارة الشرطة إلى لوبوخين في بتروجراد بتاريخ 16 أكتوبر 1902، أرسل القنصل جميع بيانات جواز سفر تريتياكوف مع عبارات عن أمله في غلق حانة «سيفاستوبول».

وقبيل الإخفاق في الإسكندرية أرسلت هيئة تحرير الاسكرا إلى هناك جزءاً من المطبوعات تزن ثلاث بودات ولم يعرف مصيرها في ذلك الوقت. إنه فقط وبعد شهر واحد علمت «هيئة التحرير» بحادث قد وقع ـ فقد وصل خطاب من الإسكندرية يتحدث ويقول ـ إنهم بالكاد وقد لمحوا تريتياكوف فيريسودسكي من على الباخرة، وهو لم يتمكن من مغادرة المدينة. وأرسلت كروبسكايا تحذيراً تقول فيه «الجواسيس يملؤن الإسكندرية».

في نهاية نوفمبر 1902 وصل من الإسكندرية خطابان مجهولان، أحدهما إلى حاكم مدينة أوديسا والآخر إلى رئيس هيئة الدرك، والخطابان بخط يد واحدة، ومحتواها واحد تقريبًا. وكتب الكاتب المجهول يقول بأنه يوجد في الإسكندرية

شخص واحد اسمه أوسيب ميخائلوفتش يوزيفوفتش صاحب المطعم الروسي «سيفاستوبول» وهذا المكان «وكر للاشتراكيين» ومقر ومستودع لعصابة الاشتراكيين الديمقراطيين. وإن هذا الـ يوزيفوفتش يزعج روسيا كلها منذ 22 عامًا بالكتب الثورية والتي ترسل في كل باخرة، إنه يزور البواخر في وقت غياب القيادة وينقل المطبوعات الممنوعة إلى البحارة. وبعد ذلك يعلن كاتب الرسالة بأنه قد نقل إلى القنصل أسماء البحارة «الخطرين» ويعرب عن استيائه من أن الأخير (القنصل) لم يقبض عليهم ويرحلهم إلى روسيا. وواصل المجهول قوله بمطالبته بالقبض على يوزيفوفتشي على الباخرة «كما ينص القانون» ثم تقييده بالسلاسل في صندوق ونقله إلى روسيا وذلك حتى لا يفسد الطريق السوي للبحارة ولا يدمرهم وفيما بعد يشير الخطابان المجهولان بأنه قد تم العثور على ثلاث كتيبات ثورية على الباخرة «القيصرة» التابعة للشركة الروسية للبواخر والتجارة، كما تم العثور على جوالين من المطبوعات الثورية على الباخرة «بورجوم» وإنه عند التفتيش لدى يوزيفوفتش تم اكتشاف بعض الكتب الممنوعة.

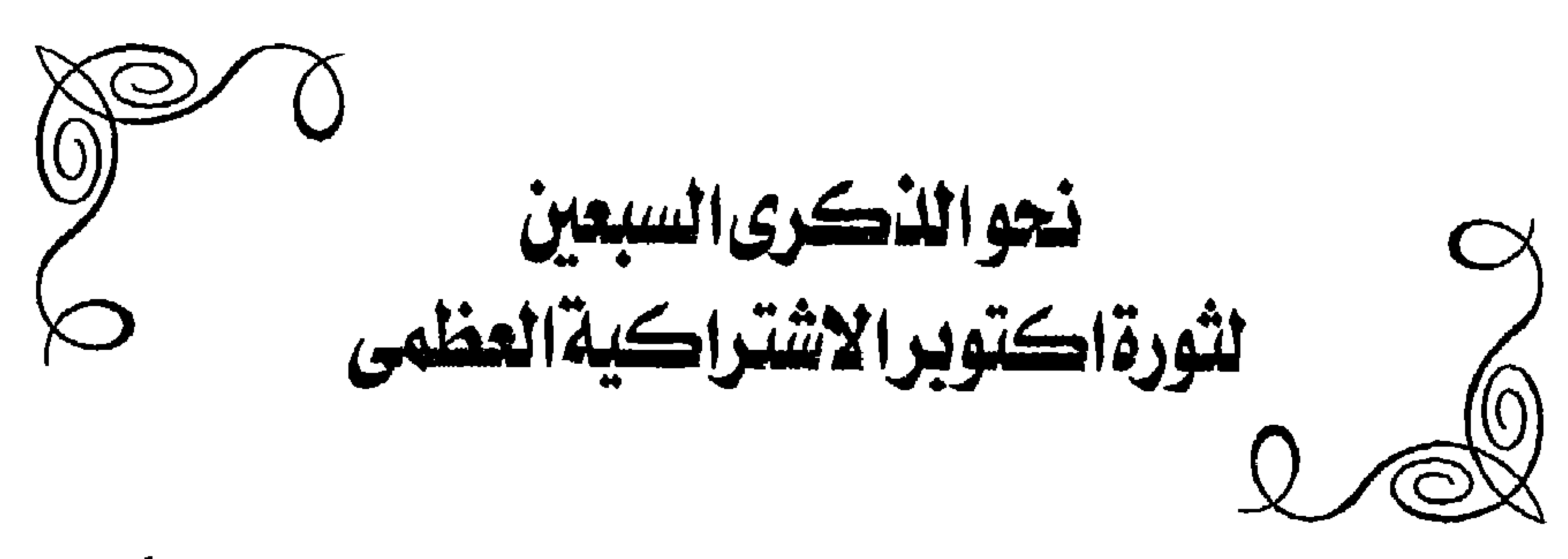
في بداية ديسمبر 1902 كتبت كروبسكايا إلى خرسون تقول «يجب أن نتخلى نهائيًا عن طريق الإسكندرية ما دامت هناك مطاردات وملاحقات رهيبة» وإن فيريسودسكي (تريتياكوف) كاد أن يغادر الإسكندرية ويتركها. وتجري تفتيشات لدى يوزيفوفتش»، وإن السلطات القنصلية في الإسكندرية قد حققت أهدافها حيث اضطر يوزيفوفتش على ترك مطعم «سيفاستوبول» لقد تنازل عنه حسبما أعلن القنصل إلى «باروني» الاشتراكي المشهور من الرعايا الإيطاليين. وعلى الرغم من الفشل فقد عاد الاشتراكيون الديمقراطيون الروس في سبتمبر 1902إلى فكرة استخدام الإسكندرية من أجل نقل المطبوعات الثورية عادوا إلى هذه الفكرة عدة مرات.

وفي نهاية صيف عام 1903 كتب عن ذلك وبشكل خاص الاسكراويون (مجموعة تنظيم الاسكرا) في أوديسا مطالبين إرسال طرد إلى الإسكندرية تحوي

الأعداد الأخيرة من الاسكرا على ورق رقيق ومطبوعات أخرى حديثة والذي يجب أن يقوم باستلامها شخص قادم من أوديسا. لكن وطبقًا للرد الذي كتبته كروبسكايا فإن هيئة التحرير قد تشككت في نجاح نقل المطبوعات الثورية في الإسكندرية. وتحدث تريتياكوف ـ فيريسودسكي الذي سافر إلى جنيف في مارس 1903 حيث كانت توجد هناك في هذا الوقت «هيئة تحرير الاسكرا» تحدث بالتفصيل عن المطاردات الشديدة والجاسوسية في الإسكندرية وقبل ذلك عاش في جنوة بعد هروبه من مصر، ورفضت هيئة التحرير «طريق مصر» في مثل هذه الظروف دون ترك أفكار كما كان من قبل عن استخدام مدن ساحلية أخرى. ويكتب ل. ن تارفسكي (أشهر باحث روسي في موضوع الاسكرا) يقول لقد سقطت إحدى الطرق لكن سقوط هذا الطريق لم يخل بنظام عمل المواصلات.

وفي خريف عام 1902 وفي وقت واحد يتم توظيف خمس ارخانجيل ـ فنلندا ألمانيا (بروسيا) هولندا ورومانيا. إن طريق مصر وعلى الرغم من قصر مدة وجوده يحتل مكانة هامة في «البريد الاشتراكي الروسي» وبمساعدة هذا الطريق وفي إحدى الفترات الدرامية للغاية لهذا الطريق تم إرسال ما يقرب من 15 بود (البود يساوي حوالي 36 رطلاً مصريًا) من مطبوعات الاسكرا إلى الإسكندرية، ووصل الجزء الأهم منها إلى روسيا إن المطبوعات الثورية التي تم نقلها عن «طريق مصر» وعلى الرغم من أنها غير كبيرة من حيث حجمه إلا أنها حافظت على حيوية المطبوعات في ذلك الوقت، وهي جريدة الاسكرا ومجلة «الفجر» وكتاب لينين «ما العمل؟» لأنه وفي هذه المطبوعات الروسية الثورية وغيرها كانت الاحتيجات الملحة للاشتراكية الديمقراطية الروسية الثورية عشية المؤتمر التاريخي الثاني لحزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي.

❋❋❋❋



# نحو الذكرى السبعين لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى

شهدت مصر اهتمامًا بالحركة الثورية الروسية قبل سنوات عديدة من أحداث أكتوبر عام 1917 التاريخية. كانت الأهداف والمهمات الماثلة أمام المناضلين ضد الاستبداد القيصري قريبة ومفهومة للقسم الطليعي من المصريين منذ بداية القرن الحالي.

ومنذ نيسان / ابريل / سنة 1906 عرف النضال التحرري ـ الوطني في مصر نهوضًا جماهيريًا شمل عمليًا في السنوات الست اللاحقة كل فئات المجتمع المصري. وكان هذا النهوض جزءاً من عملية ثورية واسعة النطاق عرفها الشرق بتأثير الثورة الروسية الأولى في سنوات 1905 - 1907، والتي أرست بداية عصر «استيقاظ آسيا». كتب لينين قائد أول ثورة اشتراكية ومؤسس الدولة السوفيتية: «إن الرأسمالية العالمية والحركة الروسية في سنة 1905 قد أيقظنا آسيا نهائيًا. وإن مئات ملايين السكان القابعين في جمود القرون الوسطى، قد استيقظوا نحو الحياة الجديدة والنضال من أجل حقوق الإنسان البسيطة، وفي سبيل الديمقراطية.

☆☆☆☆

نشرت الصحافة المصرية بالتفصيل أخبار الوضع في روسيا عشية الثورة الروسية الأولى. فقد نشرت الصحف الصادرة في القاهرة والإسكندرية وبورسعيد مواد عن الأحداث الاجتماعية ش السياسية الكبرى وعن نشاط أكبر قادة حركة التحرر الاجتماعي.

فعلى سبيل المثال، تحدثت صحيفة «منارة الإسكندرية» في تموز / يوليو / سنة 1896 لقرائها عن اضراب 30ألف عامل من عمال النسيج في 20 مصنعًا كبيراً

في بطرسبورغ. ونشرت أيضًا أخبار الاضراب الذي أعلنه 8 آلاف عـامل في أكبـر مصنع للغزل والنسيج يملكه الرأسمالي موروزوف في ضواحي موسكو. وتحدثت هذه الصحيفة في بعض أعدادها لشهر أيار / مايو / سنة 1901 عن النشـاط الكبـير للثوريين الروس أثناء عيد العمل في 1 ايار/ مايو/. ونشرتا الصحف المصرية في سنتي 1888 - 1889 مواد عن حركة «النهلستيين» (والمقصود بهم ـ الشعبيين) في الكثير من من محافظات روسيا. وعرفت الصحافة المصرية قراءها بأبرز رجال روسيـا الذين لعبـوا دوراً هائلاً في تاريخ البلاد. كمـا نشرت صحيـفـة «منارة الإسكندرية» في عددها بتـاريخ 14 تموز/ يوليـو/ سنة 1892 مـادة عن الكاتب الروسي العظيم والشخصيـة الاجتماعية ليف تولستوي، تحدثت فيها عن نشاطه الخيري أثناء الجوع الذي عم محافظة تولا، حيث أقام للجياع ما يزيد على 180 مطعمًا مجانيًا في أربعة أقضية في المحافظة.

☆☆☆☆

وتزايد في مصر الاهتمام بالكتاب الروس في سنوات الثورة الروسيـة الأولى لسنوات 1905 - 1907، بعد أن بدأت ترجمة مؤلفاتهم إلي اللغة العربيـة. وكانت قد صدرت في مصر ترجمة كتابات ليف تولستوي، بما فيها رسالة المفتوحة إلى القيصر الروسي نيقولاي الثاني، التي تعرض الكاتب فيها بالنقد الحاد للاستبداد القيصري. وفي سنة 1907 تعرف المصريون بمقالات مكسيم غوركي التي كتبها سنة 1906، والمفعمة بالحماسية الثورية.

إن الأدب المصري ـ الذي يعكس الأمزجة الاجتماعية، قد استجاب للأحداث في روسيـا. فـفي سنة 1905 ظهرت في القاهرة رواية خليل سعد «أسرار الثورة الروسيـة» والتي سماها الكاتب بأنها أهم حدث في تاريخ البشرية بعد الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر.

☆☆☆☆

وفي سنوات 1905 - 1907 نشرت الصحافة المصرية أخباراً تفصيلية لقرائها عن

مجرى أول ثورة في روسيا، وتحدثت عن انتفاضة بحارة المدرعة «بوتومكين» وعن قصف السفن القيصرية بالمدافع لمدينة أوديسا الثائرة، وعن الاصلاحات الدستورية، وعن اضرابات العمال العديدة، والاضطرابات الفلاحية، وتظاهرت الطلبة، والاصطدامات مع القوات والبوليس القيصري، وعن الاضرابات التي شلت الحياة الاجتماعية بصورة تامة. وفي سنة 1905 ظهرت في الصحف المصري زاوية خاصة بعنوان «الثورة في روسيا» وكان ثلث أو خمسة أسداس مواضيعها من الأخبار مكرسة للأخبار عن روسيا. ووفقًا لمعلومات غير كاملة، نشرت صحيفة «منارة الإسكندرية» خلال شهور آب/أغسطس/ ـ كانون الأول/ديسمبر/سنة 1905 حوالي 500 خبر ومقالة عن أول ثورة روسية. والمواد المنشورة تشهد على التظاهرات القوية التي خاضتها الجماهير الشعبية ضد القيصرية الروسية، التي لم تتمكن من الامساك بسرعة بزمام الوضع في البلاد، وعلى قسوة السلطات القيصرية. وقد وصفت الأحداث الثورية الجارية على أراض شاسعة تمتد من فلاديفوستوك وسيبيريا والأورال وحتى أوكرانيا وبيلوروسيا ووارسو، ومن منطقة البلطيق وحتى القفقاس وآسيا الوسطى. إن أخبار الصحافة المصرية هذه قد أثارت التعاطف مع الشعب الروسي، ومشاعر الاستنكار تجاه النظام الاستبدادي القيصري.

☆☆☆☆

إن تعرف الأوساط الاجتماعية المصرية بالأحداث المأسوية هذه لم يؤد إلى التعاطف وحده. فقد راح المصريون يخطون خطواتهم الأولي لتقديم المساعدة الفعلية للشعب الروسي. ففي سنة 1905 جرت في القاهرة والإسكندرية حملة جمع الأموال لمصلحة «ضحايا الثورة الروسية». فقد دعت الصحف جميع الناس من مختلف القوميات والأديان للانضمام إلى «صرخة القلب الخيرة ومساعدة المظلومين». وهكذا مثلا، جرت في شهري تشرين الثاني / نوفمبر / وكانون الأول/ ديسمبر/ حملة تبرعات في بناية البنك البريطاني ـ المصري في الإسكندرية. وبادرت الرابطة الإيطالية في مصر بحملة إيجابية خيرية كبيرة، ورصدت أمرالها إلى صندوق

«ضحايا الثورة الروسية». وفي نفس العام تم في مصر تشكيل لجنة لمساعدة ضحايا الارهاب في روسيا، جمعت حتى مطلع سنة 1907 مبلغًا قدره 1600 جنيه استرليني: تم تحويل 1000 جنيه استرليني منها إلى الصندوق المركزي في لندن، و 600 جنيه استرليني أبقتها في مصر لمساعدة الفارين من روسيا القيصرية، وخلال سنوات الثورة الروسية الأولى ظهرت كذلك «لجة في سبيل روسيا الحرة»، و «لجنة الصندوق الروسي للمعاضدة المتبادلة»، و «صندوق المهاجرين الروسي للمعاضدة المتبادلة». وأقامت هذه المنظمات الأماسي الخيرية واليانصيب الخيري وأخرجت العروض المسرحية. وكان ريع هذه الفعاليات يحول إلى صندوق مساعدة «سكان روسيا المظلومين» في سنوات 1905 - 1907. وكانت المبالغ المجموعة كبيرة جداً. فوفقًا لأخبار مراسل صحيفة «مورننغ بوست» الانجليزية من الإسكندرية، تم في أثناء أمسية خيرية واحدة في شهر آب/أغسطس/سنة 1906 جمع 1600 جنيه استرليني.

☆☆☆☆

ولم تقتصر مساعدة الأوساط الاجتماعية المصرية للمشاركين في الثورة الروسية على النشاط الخيري وحده. بل وتصاعدت مع مرور الزمن مواقفها النشيطة. وتشهد على ذلك، بخاصة، تلك الأحداث التي جرت في مصر في بداية سنة 1907، بصدد اعتقال ثلاثة من الروس الذين شاركوا في الأحداث الثورية في أوديسا سنة 1906، والذين هربوا بدع ذلك إلى الإسكندرية وواصلوا هنا نضالهم ضد القيصرية الروسية. فقد قام بوليس الإسكندرية، بطلب من الدبلوماسيين القيصريين، بحملة اعتقالات في 17 كانون الثاني / يناير / سنة 1907. وكان هؤلاء الدبلوماسيون ينوون إعادة هؤلاء المعتقلين إلى أوديسا. وفي يومي 19 و 20 كانون الثاني / يناير / جرت اجتماعات حاشدة وتظاهرات سكان الاسكندرية دفاعًا عن المهاجرين السياسيين الروس. وذكرت الصحف المحلية: «إن مثل هذه التظاهرات التي شارك فيها الكثير من ممثلي كل الطبقات والفئات الاجتماعية لم تشهدها الإسكندرية من قبل». فقد جرت اجتماعات حاشدة وتظاهرات بمشاركة ما

يزيد علـى 5 آلاف متظاهر، في مقر البورصة والكمرل وأمام القنصليات الروسية والإنجليزية والفرنسية. وفي كانون الثاني / يناير / قام نواب الأوساط الاجتماعية في الإسكندرية بتسليم محافظ المدينة عريضة احتجاج طالبوا فيها «باطلاق سراح ثلاثة مهاجرين روس قامت القنصلية الروسية باعتقالهم، بغية تسليمهم إلى حكومة روسيا القيصرية للتنكيل بهم بدون رحمة». وبعد ذلك توجهت التظاهرة إلى القنصليتين البريطانية والروسية، وقام المتظاهرون بخلع شعار الدولتين ـ المملكة البريطانية والقيصرية، ورشقوا بناية القنصلية بالبيض الفاسد والأوساخ. وهنا حصلت مصادمة ضارية مع البوليس. وقد تمكن البوليس بصعوبة من تفريق المتظاهرين. وفي محاولة لتخويف المشاركين في مسيرات الاحتجاج، قامت كتيبة إنجليزية قوامها 200 جندي، من القوات الإنجليزية المرابطة في الإسكندرية، بمسيرة استعراضية بكامل عدتها في شوارع المدينة وذلك في 21 كانون الثاني / يناير /. وتم ارسال نجدة للبوليس من القاهرة. وقام 30 شرطيًا بحراسة القنصلية الروسية. ورغم ذلك، جرت أمام القنصلية في 22 كانون الثاني / يناير / تظاهرة جبارة.

وفي نفس اليوم جرت تظاهرة احتجاج في القاهرة أمام السفارة والقنصلية الروسيتين القيصريتين. وكان المتظاهرون يهتفون: «عاشت الحرية! ليسقط الطغاة!». وقد استعين بالبوليس الخيالة وفرق الأطفاء وخراطيم مضخات الإطفاء لتفريق المتظاهرين. وجرى بعد ذلك اجتماع حاشد أمام فندق «كونتينتال» شارك فيه خطباء من بينهم أحد المهاجرين الروس «وهو أقرب صديق ورفيق في الملاحقة» لواحد من المعتقلين الثلاثة الروس. وقال في خطابه: «أيها السادة! إن اللحظة الراهنة حاسمة بالنسبة لحياة هؤلاء الثلاثة، الذين بحثت عنهم الحكومة الروسية لأسباب سياسية. وتطالب البيروقراطية بتسليمهم إليها من أجل ارسالهم إلى المقصلة. إننا، المهاجرين الروس في مصر، علينا باسم الإنسانية أن نطالب ونحن نطالب بالفعل باطلاق سراح السجناء الثلاثة من سجن الإسكندرية، وذلك لأن ما يسمونه بالجرائم السياسية، هي في مفهوم الأفكار الاجتماعية وسائل للنضال ضد الاستبداد القيصري.

وباسم الإنسـانيـة والأفكار الاجتمـاعيـة نطالب باطلاق سراح رفـاقنا الثـلاثة. عاشت الحرية! وليسقط الطغاة».

وفي هذه الفترة تم في الإسكندرية تشكيل لجنة للدفاع عن السجناء ـ المهاجرين الروس. وقد ووقع على النداء الذي أصدرته اللجنة 80 شخصًا. وقد ظهرت في المدينة منشورات تدعو السكان إلى مجابهة «أعمال الحكام غير الشرعية، والرد على العنف بالعنف». وتتضمن خاتمة المنشورات عبارة: «عاش الشعب الروسي، وليسقط القيصر الجزار!».

ومع ذلك، وبالرغم من احتجاج الأوساط الاجتماعية العاصف جرى سراً في 27 كانون الثاني / يناير / نقل السجناء الروس من الإسكندرية إلى بورسعيد ومنها إلى روسيا على ظهر سفينة «كورنيلوف»، التي كانت تنتظرهم قبل وصولهم وهي على أهبة الإبحار.

وتم الحكم بالسجن لمدة 5 أشهر على 13 شخصًا من الأجانب والمصريين الذين شاركوا في مظاهرات التضامن مع مناضلي الثورة الروسية...

وكانت المواقف الشريفة متبادلة. وهذا أمر طبيعي تمامًا. فقد تضامن الناس الطليعيون في روسيا بالإجماع مع المصريين في نضالهم من أجل التحرر الوطني والاجتماعي.

إن ليف تولستوي في رسالته ومقالاته المعادية للرأسمالية: «العبودية في عصرنا» و «حربان» و «توبوا إلى رشدكم!» وسواها، قد دافع أكثر من مرة عن الشعوب العربية ، التي تعاطف معها بكل جوارحه، وهناك مثال آخر، أنه في أثناء أحد الاضرابات التي عمت الإسكندرية في سنة 1907، قامت مجموعة من المهاجرين الروس تضامنها مع المضربين. فقد شاركوا في تظاهرة الاحتجاج وهم يرفعون راية حمراء، كتب عليها: «حزب العمال الديمقراطي ـ الاشتراكي الروسي».

☆☆☆☆

وإذا كانت الثورة الروسية الأولى لسنوات 1905 - 1907، على حد تعبير لينين هي «البروفة العامة» لانتصار ثورة أكتوبر سنة 1917، وهي الباعث على «استيقاظ آسيا»، فإن ثورة أكتوبر الاشتراكية قد أصبحت نقطة انعطاف في تطور حركة التحرر ـ الوطني العالمية. وقد أثبتت الإمكانية الفعلية للتحرر الوطني التام للشعوب وأرست بداية أزمة نظام الكولونيالية.

وبالرغم من ظروف الحرب، كانت أخبار النهوض الجديد للحركة الثورية الروسية تصل إلى مصر. وإن اسقاط النظام القيصري الاستبدادي في شباط / فبراير / والأحداث العاصفة في بتروغراد صيف وخريف سنة 1917، قد تركت من جديد، كما حصل قبل 12 سنة، تأثيراً كبيراً في الرأي العام المصري. وقد أبرق المراسل وكالة بتروغراد التلغرافية في القاهرة إلي العاصمة الروسية: «إن الأحداث في روسيا تشكل الموضوع الرئيسي في تعليقات الصحافة بمختلف اتجاهاتها». وكان المستعمرون الإنجليز كذلك يفهمون جيداً مغزى تلك الأحداث السياسية الجارية في روسيا. ولذلك قامت السلطات البريطانية في مصر في شهر ايلول / سبتمبر / سنة 1917 باحتجاز كل الصحف الروسية. وأبلغ المندوب السامي البريطاني القنصل الروسي العام والمعتمد الدبلوماسي سميرنوف، إن لهذه الصحف «تأثيراً سلبيًا سيئًا في السكان المحليين». ويدور الحديث هنا طبعاً عن الصحافة البرجوازية الروسية لا غير، لأن أكتوبر لم يكن قد حل بعد. ويفهم من هنا تلك الرقابة الصارمة التي لجأت إليها سلطات الاحتلال لمنع تلك الأخبار الواردة من روسيا بعد انتصار صورة أكتوبر الاشتراكية من دخول مصر.

وقد أثرت تأثيراً عميقًا في المصريين والجنود الإنجليز، تلك المجموعة من البحارة الروس العسكريين الثوريين من طاقم الطراد «بيريسفيت» الذي انفجر بلغم ألماني قرب بورسعيد. ويشهد على مدى قلق السلطات تلك الرسالة التي وجهها القائد البريطاني العام إلى سميرنوف. ووفقًا لما بلغه الأخير لبتروغراد يدور الحديث في هذه الرسالة «عن النشاط الثوري» الذي يمارسه لوتشينكين مندوب

طاقم «بيريسفيت» التابع لسلاح المدفعية البحرية - وتضمنت الرسالة كذلك مطلب أبعاده من مصر.

وفي سنتي 1920 - 1921 قامت السلطات البريطانية بأبعاد ما يزيد على 100 روسي من مصر إلى روسيا باعتبارهم «من أنصار الحكومة السوفيتية». وفيما يتعلق ببقية المهاجرين الروس الآخرين في مصر، فقد طلبوا منهم أثناء تشغيلهم الحصول على توصية من شخصين على الأقل، يشهدان على أمانتهم السياسية.

☆☆☆☆

وفي الوقت نفسه شرعا المستعمرون الإنجليز بحملة دعائية مضادة. فقد فبركت وسائل الإعلام مختلف الشائعات والاختلافات حول الثورة الاشتراكية في روسيا، وحول أهدافها. ولكن، لم تستطع السلطات الإنجليزية لا بوسائل التنكيل ولا بالرقابة، أن تخفي الحقيقة عن المصريين. إن كل قرارات المؤتمر الثاني للسوفييتات لعموم روسيا ومجلس مفوضي الشعب (الحكومة)، قد عرفتها القاهرة بعد صدورها ببضعة أيام تماماً./ وذلك بفضل الأخبار التلغرافية الواردة من باريس ولندن/. وقد عرفوا في مصر في اليوم التالي مباشرة بعد انتصار الثورة عن أول وثيقة تشريعية لأول دولة اشتراكية في العالم - وهي «مرسوم السلام» التاريخي الوثيقة التي أقرها المؤتمر الثاني لسوفيتات عموم روسيا. ووفقًا لهذا القانون تم فضح سياسة الاغتصاب والضم التي ينتهجها الامبراياليون باعتبارها «جريمة عظمى ضد البشرية»، كما أعلن المرسوم مبدأ التطور الحر والمستقل لكل الشعوب.

وحظيت بأهمية فائقة أيضًا وثيقة أخرى صدرت وأقرت في 15تشرين الثاني/ نوفمبر / سنة 1917، هي - إعلان حقوق شعوب روسيا، الذي تضمن المبادئ الأساسية للسياسة اللينينية حول المسألة القومية والمساواة في الحقوق وسيادة هذه الشعوب وحقها في تقرير مصيرها بحرية وحتى الانفصال وتكوين دولها المستقلة، والغاء كل أنواع الامتيازات والتقييدات القومية والقومية - الدينية، والتطور الحر للأقليات القومية والجماعات الاثنوغرافية، القاطنة في أراضي البلاد.

وترجم إلي اللغة العربية ووزع في البلدان العربية، نداء مجلس مفوضي الشعب (الحكومة) «إلى جميع التشغيلة المسلمين في روسيا والشرق». الذي أعلنت أن الأديان والعادات والمؤسسات القومية والثقافية للمسلمين «حرة ومصونة». وجاء في النداء: «أقيموا حياتكم القومية بحرية وبدون أية عوائق. ولكن الحق في ذلك».

ونشرت الحكومة السوفيتية نصوص المعاهدات السرية لدول التحالف، بما فيها المعاهدة الإنجليزية ـ الفرنسية لسنة 1904 المتعلقة بمصر. والمؤرخ الإنجليزي تامبيرلي، الذي يميل عمومًا إلى التقليل من تأثير ثورة أكتوبر في العالم العربي، وقد أشار مع ذلك، إلى أن نشر بيتروغراد للمعاهدات السرية حول تقسيم آسيا «قد أحدث انطباعًا واسعًا لدى العرب»، وإن هذا «الخبر قد أثار احتجاجًا لدى العرب»، وإن هذا «الخبر قد أثار احتجاجًا كبيراً... وقد تطلب ذلك تأكيدات جديدة، لحماية العلاقات مع العرب من القطيعة» هذا ما كتبه لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا في سنوات 1916 - 1922، في مذكراته.

☆☆☆☆

وكان زمام المبادرة السياسية بيد الشعوب الحرة في روسيا، مما هذذ وجود النظام الكولونيالي نفسه. ولذلك كان رد فعل العالم الرأسمالي سريعًا جداً. ففي 7 كانون الثاني / يناير / سنة 1918 ظهر الإعلان الإنجليزي ـ الفرنسي حول رغبتهما في منح الاستقلال للشعوب العربية التي كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية. وكان السعي من أجل تحييد التأثير المثور للمراسيم السوفيتية، هو أحد الأسباب الهامة التي دفعت الرئيس الأمريكي ويلسون لإعلان «البنود الأربعة عشر» المشهورة التي تقضي بخاصة، بالاعتراف لكل الأمم بحق تقرير المصير. وقد انكشف بعد ذلك تماماً الكذب والرياء المتمثلان في «البنود الأربعة عشر» هذه، وخاصة، عندما عرف أنها وضعت بتوصية من العقيد هاوز مستشار الرئيس الشخصي، والذي كان في تشرين الثاني / نوفمبر / سنة 1917 قد اقترح على ويلسون أن يعلن تصريحًا

خاصًا حول أهداف الحرب «نظراً للمقترحات السليمة لليلشفيك، وتنامي مطالبة العناصر الليبرالية والعمالية في البلدان الحليفة، بضمان عدم استمرار الحرب الموظفة لخدمة الأهداف الامبرالية».

☆☆☆☆

إن الحكومة السوفيتية في تشرين الأول/ أكتوبر / سنة 1918 قد وصفت «البنود الأربعة عشر» التي أعلنها ويلسن بأنها خداع للشعوب وفضحت الطابع الإعلاني والديماغوجي لهذا العَمل الدعائي الذي أقدم عليه الرئيس الأمريكي.

☆☆☆☆

وقد وقفت الدولة السوفيتية دائمًا إلى جانب الشعوب المظلومة. وأخذت حكومة البلد الاشتراكي ومنذ الأيام الأولى لوجود السلطة السوفيتية تقدم كل الدعم الممكن لها. فجاءت في رسالة توجيهية أرسلها تشيتشيرين مفوض / وزير / الشعب للشئون الخارجية إلي أحد السفراء السوفييت في الشرق العربي «أننا ننظر إلى دورنا ورسالتنا في أن نكون أصدقاء طبيعيين ونزيهين وحلفاء للشعوب المناضلة من أجل تطورها الاقتصادي والسياسي المستقل». وأن السياسة التي كان ينتهجها الاتحاد السوفيتي بثبات ودأب، تتحدد في أن ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا قضت على استغلال الإنسان للإنسان، وعلى سياسة الاغتصابات للأراضي واستبعاد الشعوب الأخرى.

❋❋❋❋

# نظرة على العلاقات الروسية ـ المصرية العسكرية والتاريخية حتى حرب 1973

نوه المؤرخون العرب المسلمون في العصور الوسطى بحقيقة التعاون العسكري الروسي ـ العربي منذ أن شارك «السلافيون» ومن ضمنهم الروس ـ في الحروب العربية البيزنطية إلى جانب العرب وإلى جانب البيزنطيين.

وكان المصريون يشاركون بشكل دائم في مختلف الحروب الروسية التركية بتوفير كميات محددة من الأسلحة والخيول والقوات والمدافع والسفن والمعدات لمسرح العمليات العسكرية. وكان ذلك أمراً محتمًا بحكم تلك الفترة. وإذا كان القرن العشرون المنصرم قد أظهر لنا العديد من الحروب والنزاعات، فإن الأحداث التاريخية الكبرى ما بين القرن 17 - 19 لم تكن أقل دموية. وكانت الانتصارات خلال تلك الأحداث تنتقل من جانب لآخر. وقد آحرز أوشاكوف. ف.ف. (- 1817 1744) مؤسس أسطول البحر الأسود الروسي عدة انتصارات هامة بدءاً من 1790 على القوات البحرية التركية التي اشتملت على وحدات مصرية. وفي موقعة نافارين في 20 أكتوبر 1827 تمكنت الأساطيل الروسية الإنجليزية الفرنسية من تدمير الأسطول التركي المصري مما أدى لإستقلال اليونان.

وتتوفر اليوم معطيات مؤكدة أكثر من أي وقت مضى عن حرب القرم ما بين (1853 - 1856) وقد حالف الحظ الجانب الروسي في موقعة سنوب عند الشواطئ الشمالية بتركيا عندما تمكن الأسطول الروسي بقيادة الادميرال ب.س. ناخيموف من القضاء على السفن التركية لعثمان باشا ومن ضمنها السفن الحربية المصرية. لكن الموقف تبدل بعد ذلك لغير صالح الروس. وقد بدا ذلك في المعارك الأولى التي جرت بين القوات الروسية والمصرية في منطقة سيليستريا الواقعة عند منعطف

نهر الدانوب. وكانت الحامية الأولى لسيليستريا هي القلعة المعروفة باسم (طابية العرب). وفي هذه الطابية تواجدت أربع كتائب مصرية بقيادة لحسين باشا. بينما توزعت الوحدات المصرية الأخرى داخل القلعة نفسها. وقد حاول الروس على امتداد شهر مايو بأكمله من عام 1854 الاستيلاء على سيليستريا لكن المصريين كانوا يردونهم على أعقابهم مرة بعد الأخرى. ولم يكن بوسع الجيش الروسي من دون الاستيلاء على سيليستريا أن يعبر إلى البلقان وينهي بنجاح حملة الدانوب. واستمر الحصار الروسي للقلعة أربعين يومًا ومع ذلك اضطرت الوأت الروسية للتراجع. وبعد ذلك انتقل مسرح الأحداث الرئيسي إلى القرم حيث كان على الفيلق العسكري المصري أن يحمي مع الأتراك ميناء «يفباتوريا» وأن يحافظ عليها كرأس جسر لتغلغل القوات المتحالفة إلى أعماق شبه جزيرة القرم. وكانت حامية «يفباتوريا» تتألف من أربعين ألف شخص من بينها خمسة أولية مشاة مصرية يصل تعداد أفرادها إلى خمسة عشر ألف جندي وضابط. وفي 29 فبراير 1855 قتل سليم باشا فتحي القائد العام للقوات المصرية في حصار يفباتوريا. وأصدر سعيد باشا والي مصر أوامره بتعيين أحمد باشا قائداً للقوات، كما عين على بك مبارك رئيساً لأركان الفيلق المصري ولم يحالف الحظ المصريون في القرم بالرغم من مستواهم القتالي المرتفع الذي شهد به ضابط فرنسي من ذلك الوقت حين كتب: «لقد رأيت فرقة مصرية مؤلفة من اثنى شر ألف شخص وهي تدخل المعركة على جانب فرقتين تركيتين، وبكل المعايير كانت الفرقة المصرية متفوقة على الأتراك.

ومع ذلك تكبد المصريون خسائر باهظة في حرب القرم، فقد قتل أو توفي منهم بسبب الأمراض في ساحة المعارك اثنا عشر ألف من أصل عشرين ألف شخص وعلاوة على ذلك غرق نحو ألفي جندي وضابط في عملية الهنجوم. وغرق أيضًا حسن باشا الاسكندراني قائد الأسطول المصري. وقد دفن الكثيرون من المصريين في يفباتوريا بالقرب من المسجد القائم فيها.

وعلى جبهات الحرب الروسية ـ التركية ما بين (1877 - 1878) شارك أيضًا

خمسة عشر ألف ضابط وجندي مصري. وكتبت نشرة «موركسوي سبورنيك» (المختار البحري) الروسية بهذا الصدد تقول: «كما جرت العادة في الحروب السابقة، فإن تركيا في الحرب الحالية ضد روسيا تعجلت طلب القوات المساعدة لها من مصر «ويفيد نفس المصدر أنه كان على خديوي مصر أن يوفر عشرة آلاف شخص بناء على طلب الباب العالي. وكان القسم الأمامي من الفرقة المصرية يتألف من ستة آلاف من المشاة وألف ومائة من الخيالة وخمسمائة من المدفعية، مع بطاريتين من طراز كروب الألماني. وعلاوة على ذلك فقد أرسل الخديوي كهدية منه للسلطان خمسة آلاف قطعة سلاح من طراز «ريمينجتون» ومعها مليون رصاصة وبطارية ميدانية وثلاثة زوارق حربية للحركة في الدانوب. وتم نقل هذه المعدات والقوات على متن أسفل سفن الاسطول المصري التي جري بناؤها في ترسانات السفن في مدينة تولون الفرنسية ومدينة كلايديا الانجليزية مثل: «المحلة»، و«الفيوم»، و«البحيرة»، و«الشرقية»، و«الغربية»، و«الرحمانية» و «طنطا» وغيرها من السفن.

وتألفت الحراسة المرافقة للسفن من الفرقاطة البحرية «محمد علي» وسفينتين حربيتين: «سنار» و «دنقلة». لكن البعثة العسكرية المصرية تأخرت لإسبوعين عن موعد إبحارها وكان السبب في ذلك على حد قول المصريين هو أن: «اتجاه الأسطول الروسي الذي غادر الشواطئ الأمريكية لم يكن معروفًا، وأن بعثة سفن الانزال المصرية لم يكن بوسعها أن تقابله: لم نكن نستطيع حتى من أجل تركيا أن نخاطر بسفننا وجنودنا». وفقط في 11 مايو 1877 بعد وصول سفن الحراسة التركية المؤلفة من أربع سفن غادرت السفن المصرية الإسكندرية. وبعد خمسة أيام توجهت سفن مصرية أخرى إلي القسطنطينية تقل ثلاثة آلاف جندي وضابط مصري.

وخلافًا للحرب الشرقية (1853 - 1856) لم يمتاز الضباط والجنود المصريون في حرب البلقان (1877 - 1878) بروح قتالية عالية. وعلى الأرجح أن السأم قد أصابهم من القتال دفاعًا عن مصالح أطراف أخرى. وقد انتبهت الحكومة الروسية

لذلك، وكان من الممكن أن تكون مشاركة المصريين في القتال ضد روسيا ذريعة شكلية لتفاقم حدة العلاقات مع مصر. لكن ذلك لم يحدث. أولاً لأن روسيا كانت منشغلة بأولويات أخرى في سياستها الخارجية. وثانيًا لأن العزلة السياسية التي عانت منها روسيا في ذلك الوقت داخل أوروبا علاوة على مصالحها في الشرق قد أملت على الدبلوماسية القيصرية اتباع سياسة مرنة تجاه مصر.

ولذلك يمكن القول بصفة عامة أن مشاركة القوات المصرية في الحروب الروسية التركية في النصف الثاني من القرن 19 لم تؤد لتغييرات ملموسة في مجمل العلاقات الطيبة بين روسيا ومصر. الأكثر من ذلك أن الخارجية الروسية نصحت - بعد انتهاء الحرب عام 1878 - ايفان ليكس القنصل الروسي في القاهرة بأن ينقل لعلم الخديوي ووزرائه أنه: «بغض النظر عن الشكل غير المقبول للتحركن المصري خلال الحروب المنصرمة فإن حكومة القيصر ستظل كعهدها من قبل تنظر بتعاطف إلي مصالح مصر».

ومن الطريف أن المصريين الذين وقعوا في الأسر الروسي في أعقاب حرب (1877 - 1878) تذكروا فيما بعد بدفء تلك «الأماكن المدهشة» التي شاهدوها من الأراضي الروسية، كما أنهم لم يحسوا بنفور تجاه الروس. ويؤكد المستشرق أ.ف. يليسييف. الذي زار مصر قبل وبعد الاحتلال الإنجليزي لها عام 1882 أن المصريين تعرفوا إلى الروس على نحو أفضل بعد حرب البلقان عندما: «جرب مئات الآلاف من المسلمين الذين وقعوا في الأسر الروسي البشاشة وحسن الضيافة الروسية». ويضيف يليسييف فيما بعد أنه: «عندما قصفت القوات الإنجليزية الإسكندرية خلال عملية الإنزال وشرع البدو والغوغاء في ضرب الأوروبيين في الشوارع فإن كلمة واحدة هي «أنا موسكوفي» كانت كافية لإنقاذ الروس من تلك الحملة.

ويشهد التاريخ غير المعروف للجنرال ر.ا. فادييف (1824 - 1883) والذي يصعب تصديقه في تلك الظروف بذلك الطابع «الخاص» للعلاقات العسكرية. فقد

دعا الخديوي اسماعيل عام 1870 ذلك الجنرال الروسي الذي شارك في الحرب الشرقية وحرب القوقاز أن يتولى تحديث الجيش المصري. ولكن الجنرال لم يسافر لمصر سوى بعد ذلك بأربع أعوام وظل فيها من عام 1874 حتى غادرها في 1876 عشية الحرب الروسية التركية. وخلال وجوده بمصر دعاه الخديوي اسماعيل هذه المرة لتولي قيادة الجيش المصري. وحينذاك توجه الجنرال بسؤال إلى الخديوي: «.... الحق أنني لا أدري فيما تريدني الحكومة المصرية؟ هل من أجل بناء الجيش ضد تركيا أم للحرب على أثيوبيا وهو الهدف الذي تبحث الحكومة من أجله منذ زمن عن جنرال أوروبي يتمتع ببعض الشهرة؟ ولا شك أن اسمي - بالصدفة - أصبح معروفًا بدرجة كافية في الشرق والأراضي السلافية. فإذا كانت الحكومة تريدني للهدف الأول أي التسلح لمواجهة تركيا فإنني مستعد بالكامل للتعاون معها. أما عن الحرب ضد أثيوبيا فإن ضميري يمنعني من قبول ذلك».

وفي مصر أطلق على فاديبف «وزير الحربية المصري». ولدينا المسوغات الكاملة للقول بأن الجنرال روستيسلاف فاديبف كان أول مستشار عسكري روسي في البلدان العربية. وقد تمكن الجنرال من استمالة الخديوي لأتباع سياسة أكثر استقلالية عن السياسة التركية بل واستمالته للحرب ضد الباب العالي».

وترى ألم يتضح حتى في تلك الفترة البعيدة ما يسمى «حب المجاملات» الذي يسم شعبينا بتلك السمة المشتركة حتى في أشق الظروف العسكرية؟ ألا يكون ذلك هو الدليل على «خصوصية» الحوار الروسي المصري الحضاري والثقافي؟.

في الحرب العالمية الأولى وقفت روسيا ومصر هذه المرة على نفس الجانب من الجبهة. ثم حل بعد ذلك ما يسمى بـ «الفصل الميت» في العلاقات ما بين (1943 - 1918) الذي توقفت فيه العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر، وللدقة العلاقات بين روسيا في المرحلة السوفيتية ومصر، ولكن هل حقًا أن تلك المرحلة كانت «ميتة»؟ لقد شهدت حتى تلك الفترة مفاوضات سياسية بين الدبلوماسيين السوفييت والمصريين، وجرت عمليات التبادل التجاري، بعضها كان

يتم عبر مانشيستر. ووصل عدد المهاجرين الروس إلى مصر إلى بضعة آلاف. فهل يمكن اعتبار أن تلك المرحلة كانت مرحلة ميتة على صعيد الحوار الحضاري بين روسيا ومصر والذي بدأ قبل أن تعتنق روسيا المسيحية عام 988م؟. كلا. لم تكن بمرحلة ميتة.

إن أثر المسافة التي قطعها التفاعل الروسي المصري فى الأزمنة السابقة كان من العمق بحيث أن مرحلة توقف العلاقات الدبلوماسية (1918 - 1943) (والتي لم تتوقف بالكامل) لم تؤثر على مستوي ذلك التفاعل. ولا يخلو من مغزى أن العامل العسكري هو الذي قاد من جديد لإحياء الحوار الروسي المصري بأعمق درجاته.

إن الانتصارات الكبرى التي حققها الجيش السوفيتي في ستالينجراد وفي كورسك تركت أثراً هائلاً في أوضاع الشرق الأوسط. وكتبت الصحف العربية حينذاك أن الجيش السوفيتي أنقذ القاهرة وبغداد. وظهر انعطاف واضح في الرأي العام المصري نحو دعم التحالف المناهض للنازية وهتلر، وتنامت مشاعر الإعجاب بالاتحاد السوفيتي. وفي 26 أغسطس 1943 استؤنفت العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر.

وكان قادة ثورة 23 يوليه 1952 على علم بتلك الانتصارات وساقهم ذلك علاوة على جملة من الأسباب الأخرى لشراء السلاح من الاتحاد السوفيتي تحديداً. وفي 20 سبتمبر 1955 تم التوقيع على اتفاق اشتهر فيما بعد بـ «صفقة الأسلحة التشيكية» تتسلم مصر بمقتضاه الطائرات المقاتلة «ميج ـ 15»، وطائرات «ميج ـ 17» ومعدات عسكرية سوفيتية أخرى في حدود مائتي وخمسين مليون دولار وفي 20 أكتوبر 1955 وصلت على متن سفينة سوفيتية إلى ميناء الإسكندرية أول شحنة من السلاح. وحسب نصوص نفس الاتفاقية توجه الخبراء العسكريون السوفييت إلى مصر لتقديم العون في التدريب على استخدام الأسلحة وتملك ناصيتها.

وبعد أكثر من عام عندما وقع العدوان الثلاثي علي مصر في أكتوبر ـ نوفمبر 1956 وطد للاتحاد السوفيتي التعاون العسكري والتقني الناشئ بإبدائه الدعم الواضح للشعب المصري عبر الأمم المتحدة وبإنذار المعتدين بأنه قد يرسل بالمتطوعين إلى مصر ليشاركوا في صد العدوان الغادر. وبالمناسبة فإنه في ذلك الوقت كانت بعض الوحدات العسكرية الروسية قد وصلت إلى الإسكندرية في الزي الرسمي للجيش البولندي.

وأسفر السعي لأبعاد التأثير الغربي المخض في الشرق الأوسط إلى توقيع عدد آخر من الاتفاقيات العسكرية البحرية عام (1957 - 1958)، وفي (- 1963 1962) وقعت اتفاقيات عسكرية أخرى في مجال الطيران. وترافقت كل تلك الاتفاقيات بوصول مجموعات أخرى اضافية من الخبراء السوفييت إلى مصر الذين وضعوا أيادي المصرين بإخلاص على أسرار الأسلحة الحديثة.

وفيما بعد جاءت نكسة 1967 التي أصبحت نقطة تحول في العلاقات السوفيتية المصرية العسكرية. فقد فقدت مصر ثلثي طائراتها المقاتلة، وثمانمائة دبابة من أصل ألف، وأغلبية عتداها المدفعي مما دفع القيادة المصرية للتفكير بجدية في إعادة بناد وتجهيز القوات المسلحة ووضع مبادئ جديدة للحرب مع إسرائيل. ولكن لم يكن بوسع مصر بمفردها القيام بهذه العملية، وهنا برز مجدداً الاتحاد السوفيتي الذي أظهر رد فعل فوري على هزيمة الحليف العربي.

وفي 9 يونيه 1967لم يكتف الاتحاد السوفيتي بإدانة إسرائيل، لكنه فتح على الفور جسراً جويًا وبحريًا علي مصر، وبلغت الشحنة الأولى من الطائرات التي أرسلها مائة وعشرين طائرة من طراز «ميج ـ 17» و «ميج ـ 21». وإذا كان الاتحاد السوفيتي عام 27 قد أرسل شحنات عسكرية بنحو مائة مليون جنيه، فإن حجم المساعدات العسكرية عام 68 قدر بمرتين أكثر. وفي عام 1969بلغ حجم الصادرات العسكرية السوفيتية ذروته. فقد تسلمت مصر من الأسلحة هذه السنة أكثر مما تسلمته عن كل سنوات التعاون العسكري الممتد من 1955 حتى 1967.

وبعـد هزيمة 67 توجه جمال عبد الناصر بطلب على الحكومة السوفيتية لكي تبعث دون إبطاء إلي مصر بخبراء سوفييت قادرين على إعادة تجهيز القوات المسلحة المصرية وتوفير دفاع أمن عن مصر. ومع أن مجموعة كبيرة من الخبراء كانت تعمل في مصر قبل 67، إلا أن واجباتهم اقتصرت أساسًا على اسداء مجرد النصح في مجالات الإعداد العسكري. وفي نهاية أكتوبر 1967 تم في القاهرة بعد مفاوضات تفصيلية مطولة التوقيع على اتفاقية بشأن الخبراء العسكريين. وفي 3 نوفمبر من نفس العام وصلت إلي مصر طائرة تقل المجموعة الأولي من المستشارين ذوي الرتب العسكرية العليا، وخلال نفس الشهر توافد بقية الخبراء الذين وصل عددهم الإجمالي إلى ألف ومائتي شخص. وبعد فترة تعرفوا خلالها على الظروف المحلية وما ينبغي عليهم عمله، توزع الخبراء السوفييت في كل المستويات العسكرية لأعادة بناء الجيش المصري نزولاً حتى إلى مستوى الكتيبة.

وبفضل الجهد الشاق الذي بذل المستشارون والخبراء والمترجمون يوميًا في ظروف استثنائية وقتالية مع القوات المسلحة المصرية أصبح بوسع كبير المستشارين السوفييت أن يقدم تقريراً إلي القيادتين السوفيتية والمصرية بزن مصر تستطيع بنجاح أن تتولى عمليات الدفاع عن أرضها وأن تصد عمليات الإنزال التي تقوم بها القوات الإسرائيلية في الشاطئ الغربي لقناة السويس. وقد قدر جمال عبد الناصر دور الاتحاد السوفيتي مشيراً إلى أنه بفضل مساعدات الاتحاد السوفيتي بلفت القوات المسلحة المصرية درجة من الاستعداد القتالي لم يكن يتصورها لا الأصدقاء ولا الأعداء منذ ثلاثة أعوام مضت.

جدير بالذكر أن القوات المسلحة المصرية كانت قبل عام 1967 ـ حسب تقديرات بعض المراقبين العسكريين ـ كفء فقط: «للمشاركة في الاستعراضات العسكرية» ويشهد بالمستوى المتدني للقوات من قبل تلك الأحكام التي ثدرت بعد نكسة 1967 على القادة العسكريين أتباع المشير عبد الحكيم عامر الذي أنهى حياته منتحراً ومن أولئك القادة شمس بدران وزير الحربية الذي حكم عليه بالسجن لمدة

خمسة عشر عاماً وغيره من المسئولين الذين اتضح في مجرى المحاكمات أن قضية بناء الجيش والإعداد العسكري لم تكن تشغلهم.

وأعلن عبد الناصر شعاره الشهير «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة» لاستعادة الأراضي المصرية المحتلة، وبالاعتماد على تنامي القوة العسكرية المصرية وقدرات الجيش المصري والجيوش العربية الأخرى طرح عبد الناصر في مارس 1969 بداية «حرب الاستنزاف» التي استمرت حتى أغسطس 1970 باستغلال الموارد الهائلة البشرية والمادية للعالم العربي بأكمله. وعندما أدرك الإسرائيليون بدورهم أن «حرب الاستنزاف» ليست سوى خطوة نحو حرب حاسمة قرروا أن يردوا بضرباتهم لكي: «يحس المصريون أن الحرب سلاح ذو حدين».

وبعد مبارزات بالمدفعية عبر قناة السويس في مرحلة أولى استمرت حتي يوليه 1969، دخلت حرب الاستنزاف إلى طور جديد: فقد شرعت القوات الجوية الإسرائيلية في التدمير المنظم لوسائل الدفاع الجوي المصرية مبتدئة بقناة السويس ثم في داخل مصر نفسها. وفي خريف 1969 أخذت الطائرات الإسرائيلية تشن غاراتها في العمق دون أن تجد مقاومة تذكر من الدفاع المصري المضاد للطائرات الذي كان قد تم القضاء عليه فعلياً. وقصفت طائرات «الفانتوم» و «ميراج»»، و «سكاي هوك» الأهداف الاقتصادية الحيوية والمنشآت كالمصانع والمحطات وشبكات الاتصالات والمدارس ولعل أشهرها أبي زعبل. وكانت إسرائيل تسعى بذلك لتحطيم معنويات السكان. ولهذا تخيرت إسرائيل أوقاتاً حرجة مثل أيام صرف الرواتب، ومواعيد تبديل الدوريات في العمل وغير ذلك حينما يتجمع أكبر عدد من البشر. ومن السهل ـ من مجرد متابعة الأنباء في الصحافة اليومية لتلك الفترة ـ احصاء الخسائر البشرية التي كانت تتكبدها مصر من غارة إسرائيلية واحدة. فقد كانت الغارة تسفر عن مقتل ما بين مائة إلى مائة وخمسين مصرياً، وإصابة نحو ثلاثمائة آخرين بجراح.

وبداهة فإن الضربات كانت توجه إلي القوات المسلحة. وبدءاً من فبراير 1970

عاش المستشارون والمترجمون حتى في المنطقة العسكرية المركزية بشكل دائم مع القوات يواصلون عملية الإعداد القتالي التي لم تتوقف رغم الظروف التي أصبحت أكثر صعوبة. وعرض المستشارون والخبراء والمترجمون حياتهم للخطر الحقيقي وسط مشاق العمل المبرحة متحلين بإنكار الذات وأعصاب حديدية وإرادة حقة. وقد عاش جينادي جاريا تشكين أحد كاتبي هذه المقالة تلك الأوقات بصفته مترجمًا في إحدى الوحدات العسكرية بمصر. ويشهد أن الضباط والجنود المصريين الذين تاقوا لتحرير أرضهم كانوا على نفس المستوى من الشجاعة والبسالة والاستعداد للتضحية.

وبالرغم من الخسائر التي تكبدتها إسرائيل في حروب الإستنزاف، وبالرغم من أن هذه الحرب استهدفت انهاك إسرائيل، إلا أنها أدت - للأسف الشديد - لنتائج عكسية. فقد كان حجم الخسائر المصرية أكبر. وكانت الخسائر المادية والمعنوية الناجمة من غارات «الفانتوم» هائلة، وكانت أعداد الضحايا والشهداء وسط المدنيين والعسكريين في مصر كبيرة. وكان الجنود المصريون البسطاء المحبون للنكتة حتي تحت القصف يلخصون جانبًا من تلك الصورة بقولهم مازحين: «حاضر يافنتوم»! بدلاً من «حاضر يا فندم»!. ومع ذلك فمن الضروري هنا إعادة التأكيد على أنه - بالرغم من الجانب القاتم - فإن غالبية الشعب المصري، كما أن حرب الاستنزاف نفسها علمت الجنود والضباط المصريين الكثير.

وقد تساقط الشهداء السوفييت جنبًا إلى جنب مع المصريين دون أن يفارقوا موقعهم أثناء أداء واجبهم القتالي في وحدات سلاح الصواريخ. واستشهد ثلاثة مستشارين ومترجم في المشاة الميكانيكية السادسة بدهشور عندما واصلوا مهامهم داخل هيئة الفرقة دون أن يعبأوا بصفارات الإنذار التي أطلقت تحذيرها من الهجوم.

في هذه الظروف الشاقة انتقل التعاون السوفيتي المصري إلى مرحلة أخرى جديدة. وفي 22 يناير 1970 قام جمال عبد الناصر بزيارة سرية إلي موسكو تم

الاتفاق خلالها على توقيع اتفاقية لإرسال خمسة عشر ألف ضابط وجندي سوفيتي إلى مصر ومعدات عسكرية جديدة ووسائل اتصالات لدعم سلاح الطيران المصري وتعزيز شبكة الدفاع الجوي على أرفع مستوى. وهكذا بدأت العملية التي أطلق عليها في موسكو اسما سريا هو «القوقاز» لحماية المنشات العسكرية والمشاريع المدنية ذات الأهمية الاقتصادية بمصر، وحماية السكان من غارات العمق الإسرائيلية. وبعد عدة اشتباكات حقيقية بين الإسرائيليين والطيارين السوفييت والصواريخ السوفيتية المضادة للطائرات تكبد الإسرائيليون خسائر فادحة ومن ثم توقفت غاراتهم في العمق.

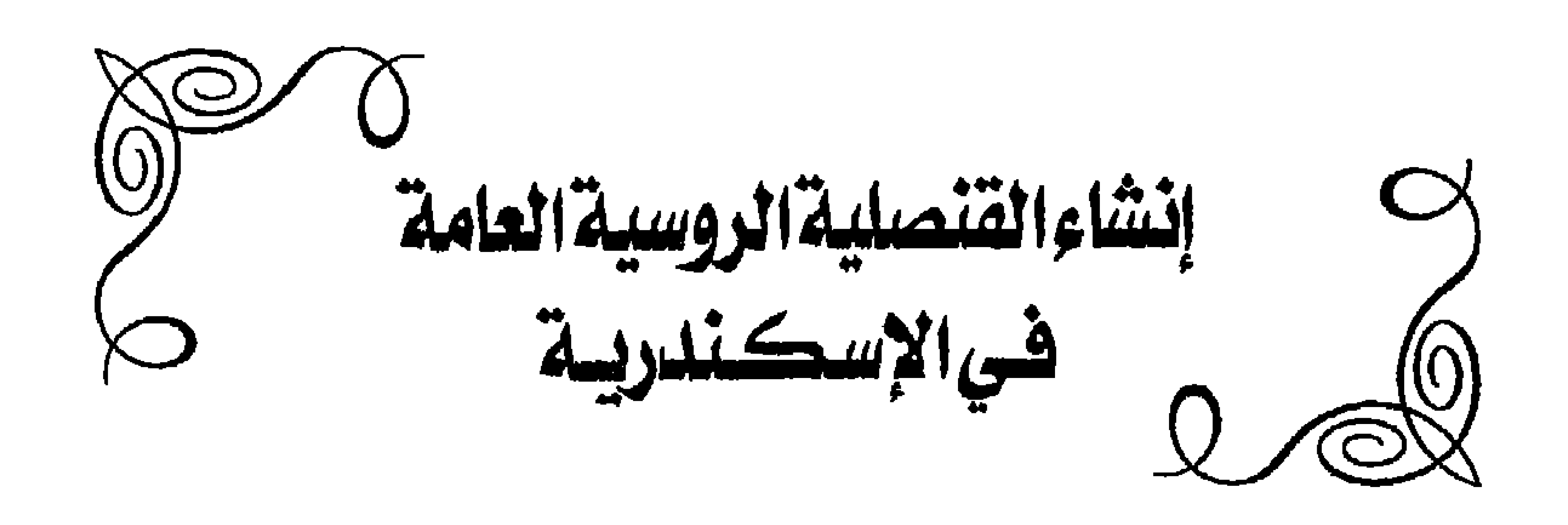
وقد ساعدت المعارك التي عززت الشعور بأخوة السلاح السوفيتية المصرية علي المضي بخطة وتنسيق بالعمليات العسكرية المشتركة إلى الأمام.

ووفقًا لمصادرنا استشهد خلال حرب الاستنزاف ما بين ثلاثين إلى أربعين ضابطًا وجنديًا سوفيتيًا فوق أرض مصر. ولم يكن لشئ - أكثر من هذه الدماء الزكية - أن يروي العلاقات التاريخية بين الشعبين.

وفيما بعد تم عبور قناة السويس بنجاح في أكتوبر 1973 واجتياح خط بارليف الدفاعي المنيع الذي كلف إسرائيل مائتي وخمسين مليون دولار. وقد جرى ذلك بعد أن أعد المستشارون والخبراء الجيش المصري طويلاً ليكون قادراً على خوض الحرب بكفاءة ضد العدو الإسرائيلي من أجل استعادة كرامة وشرف ليس فقط الشعب المصري بل والعرب عامة.

وفي اعتقادنا أن التعاون العسكري حلقة لا تنفصل من حلقات تطور الحوار الروسي - المصري حضاريًا وثقافيًا على امتداد التاريخ.

* * * *



# إنشاء القنصلية الروسية العامة في الإسكندرية

تأسست القنصلية الروسية العامة في الإسكندرية في نهاية القرن الثامن عشر وأخذ الحوار الروسي- المصرى الحضارى والثقافى فى التنامى والإزدهار فى ذلك الوقت وعلمت الحكومة الروسية من خلال الحجيج والرحالة وقادة السفن التجارية الروسية التى كانت ترسو فى ميناء الإسكندرية ومن خلال بيانات وبلاغات السفارة الروسية في القسطنطينية وكانت علي علم عن أكبر ولاية الإمبراطورية العثمانية وعن أوضاعها السياسية والإقتصادية... كما كانت أيضاً علي دراية بمساعي حكام هذه الولاية إلي الإستقلال والإنفصال عن تركيا وعن قهقرة مدافعها هي الأخري في وادي النيل وعن أكبر إنتفاضة قادها علي بك الكبير إبتداءاً من الثلث الأخير من القرن الثامن عشر والتي أدت بالكاد إلي إستقلالية مصر نسبياً.

ومع مراسم تتويج الإمبراطورة الروسية بكاتيرنيا الثانية (سنوات حكمها إمتدت من 1762 وحتي 1796) تفاقمت بشكل ملحوظ العلاقات الروسية- التركية وفي عام 1768 نشبت الحرب الروسية التركية الأولي وما كانت روسيا علي إستعداد لهذه الحرب لولا أن فرنسا كانت تدفع تركيا إليها فقد بدأت روسيا في خطوات إنشاء أسطولها الحربى الذي كان متماشياً مع متطلبات العصر ودفعت هذه الحرب الإمبراطورة الروسية إلي تنظيم حملة إلي البحر المتوسط مباشرة وفي خضم تلك الظروف حدث تقارب بين روسيا والولايات العربية. إذ أن مساعي الإمبراطورة الروسية كانت لها مسوغاتها ومبرراتها حيث كانت روسيا تواجه هدفاً تحديد وترسيم حدودها الجنوبية والخروج بها إلي سواحل البحر الأسود ذلك لأن أنهارها الرئيسية كانت تصب هناك الأمر الذي كان يتوقف عليه التطور الإقتصادي

الروسي في جنوب البـلاد ولكن ذاته لا يؤمن الملاحـة في البـحـر الأسـود صـلاتـهـا المباشرة مع بلدان أوروبا إذ يسـتلزم الدخـول الحر في المضايق بين البـحـرين الأسـود والأبيض المتوسط ومع كل ذلك كانت بكاتيرنيا الثانية تضع في حسبانها ضرورة إعتبار حوض البحر الأبيض المتوسط مركزاً لتجمع الصلات الإقتصادية والسياسية والثقافية الهامة بين أوروبا وأفريقيا ويلعب دوراً جوهرياً في السياسة الأوروبية والتركية ومن شأنه ذلك تعزيز التواجد الروسى في هذه المنطقة والذي سيعطيها وضع الدولة «الروسية» العظمي. وكانت الإمبراطورة الروسية تولي إهتماماً كبيراً بعرض مقدرة وقدرة دولتها للرأي العام الأوروبي وإستعداداً وتأهباً للأحداث المقبلة وللخروج السياسي والحربي إلي البحر الأبيض المتوسط وللإرسال إلي هنا الأسطول الحربى الروسي فقد تعززت العلاقات الدبلوماسية مع إنجلترا وجمهورية ڤينسيا التي ترسل إليها بمثابة السفير ماروتشي اليوناني- الروسي الذي كان علي دراية جيدة بحوض البحر الأبيض المتوسط (سنذكره كثيراً في ملاحقنا لاحقاً).

كما تحسنت بشكل ملحوظ علاقات روسيا مع مالطا وجمهورية روما.. ويكلف هؤلاء الجميع إلي جانب شئونهم الأساسية متابعة المسائل المتعلقة بخروج الأسطول الحربي الروسي إلي البحر الأبيض المتوسط... إذ أن القيام المباشر بنهج «البحر المتوسطي» كان مرتبطاً بأسماء وزير الخارجية بانين وإخوان أورلوف، اليكس وجريجوري وكانوا من المقربين الوثيقين بكايترينا الثانية... وكانت الحكومة الروسية في فهمتها هذه تعتمد علي اليونانيين الذين كانوا يساعدون الأسطول الحربي الروسي وهم يعملون كقادة للسفن الروسية وكمرشدين وكأفراد إستطلاع وكمعلمين ومدربين لأنهم كانوا يعرفون الشرق جيداً وكانوا بمثابة الجسر بين الدول الأوروبية وبدأت الحملة الأولي إلي جزر أرخبيل في عام 1769 والعرب وقتئذ ماذا كانوا؟

تري المصادر العربية التفاعل الروسي- العربي السياسي والحربي كأحداث كانت تجري خارج الحياة السياسية للعالم العثماني العربي بشكل ثانوي ومن الدرجة

الثانية إذ كانت السلطة التركية المركزية تندمج في السياسة الأوروبية فيما بقيت المحافظات العربية خارج العالم الأوروبي تماماً وكانت منغمسة في اللعب وحياكة المؤامرات والدسائس المحلية... بيد أن كفاءتها الذاتية السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية كانت تتلاشي بالتدريج وتأثرت بالتغييرات السياسية والإجتماعية التي حدثت داخل المجتمع العربي ومن ثم بإدماج الولايات العثمانية في سوق الإقتصاد العالمي وتسببت مثل تلك الأوضاع في تطور التضامن السياسي العربي إلي حد ما وتجسد ذلك بوضوح في مصر حيث إكتسبت طابعاً معادياً للعثمانيين.. ويدور الحديث عن إعلان علي بك الكبير لسلطنة منعزلة عن الباب العالي ووفقاً لأماني المماليك كان مدعواً لإحياء دولة المماليك فترة ما قبل العهد العثماني... إبان الحرب الروسية- التركية عام 1768 - 1774 بالذات سمحت لعلي بك الكبير بإتخاذ محاولة الإنفصال عن الإمبراطورية العثمانية.

وحسب المصادر كان سبباً لرفض علي بك الكبير خضوعه للأتراك ينحصر في إستيلائه علي فرمان الباب العالي والذي كان متضمناً إتهامه بإتجاه نيته للإنضمام إلي روسيا وتزايد الحديث عن الأمر بإعدامه وبالتالي فإن مسألة إقامة العلاقات مع روسيا التي كانت بدورها تحارب تركيا/ كانت في طريقها إلي الظهور والنشر وعزم علي بك الكبير بنفسه أن تنفذ هذه الخطوة بعد الإستيلاء علي الحجاز وبعد عام علي معركة تشسمين... وجه علي بك الكبير برسالة إلي اليكس أورلوف الذي كان متواجداً في ذلك الحين في إيطاليا بإمرة الإمبراطورة والتي إقترح فيها عقد «الإتحاد» الأبدي مع حكومة سموها والمواجهة المشتركة مع العدو كما عرض عليه إستعداده بالإمداد الأسطول والجيش الروسيين بالمؤمن والمواد الغذائية والنقود حال نقص عند الروس... النبيل أورلوف إستجاب لهذه الرسالة كان السفير الروسي النبيل ماروتس يلعب دوراً هاماً في إحداث التقارب الروسي- المصري فلقد أرسل أناساً أمناء إلي علي بك الكبير بهدف التعرف علي نواياه تحديداً ومنذ ذلك الحين لم تخلو من صفحات المراسلات بين بكاترينا الثانية وموليتر من إسم علي بك الكبير... فكانا يناقشان فيها هزائم وإنتصارات علي بك بشكل جدي وفي ذات

الوقت وجه علي بك قواته إلي الحجاز وإتخذ بعض الخطوات العملية لإقامة علاقات حيوية بين مصر وبلدان أوروبا خاصة مع جمهورية ڤينسيا لكنها ما كادت تستعجل الإجراءات المناسبة من جانبها خوفاً من إساءة علاقاتها مع الباب العالي. وأخيراً تسلم الجانب الروسي رد والي مصر قيل فيه إن علي بك أبدي سروراً من عمليات النبيل أورلوف حيث أحكم أسطوله الحصار علي سواحل البحر المتوسطية- التركية وكان ذلك بمثابة ضربة قوية لتركيا. وبعد سلسلة من العمليات الهجومية في الجزء الشمالي الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط التي ساهمت في تأمين سيطرة الأسطول الحربي الروسي الكاملة علي هذه المنطقة فقد وجه أورلوف بعض المراكب الحربية من القاعدة من راجوزه علي جزيرة باروس متجهة في طريقها إلي سواحل إفريقيا وقد أقام مبعوثه صلات واسعة مع والي مصر قبل بداية نوفمبر 1771 ثم نقلوا له رسالة علي بك والتي لم يكشف النقاب عن مضمونها أما رد النبيل أليكس أورلوف فمعروف لدينا حيث قيل وقتها أن رده تضمن علي وجه الخصوص- مسألة فتح الموانئ المصرية للمراكب الحربية الروسية وعن الأعمال المشتركة ضد الأتراك. وهكذا أقيمت أولي الصلات الروسية- المصرية عن طريق التقارب الحذر وكانت معبرة عن الإرادة الحرة للدولتين المستقلتين. وأعطيت هذه الصلات دلالة خاصة فبالنسبة لبكاتيرينا الثانية في أنها نجحت في سياستها ففي البحر الأبيض المتوسط... أما بالنسبة لعلي بك الكبير فإن بدخوله في المفاوضات مع القيادة الروسية يكون قد تحدي السلطة التركية والعرب بإتجاههم التقليدي وقد أثمرت هذه الصلات وبدأت خطوات عملية نحو إلحاق الإسطول الروسي بالهزائم للأسطول التركي علي ربوع السواحل المصرية لاسيما من قائد المجموعة ومن السفن الحربية الروسية/ الروسي- اليوناني الأصل أليكسيانو باناوتي الذي هاجم في أكتوبر 1772 المراكب الحربية التركية التي تجاوز عددها مجموعة المراكب وبقيادة في ميناء دمياط حيث أحرقها. لسوء الحظ ونتيجة مؤامرة حاكمها ضده أبو الذهب في إبريل 1772 لقي علي بك الكبير حتفه ومات إلي الأبد. ينبغي ها هنا الإشارة إلي أن لم تكن بكاتيرينا الثانية تخطط في ضم أراض الغير لروسيا وذلك إبان الحرب

الروسية التركية الأولي في حضو البحر الأبيض المتوسط وأصرت علي خضوع جزيرة أم جزيرتين في الأرجنبيل تحت التبعية الروسية وكان مستشارها الأساسي أليكس أورلوف ضد هذا التوجه- وكانت البلدان الغربية تعارض حضور روسيا السياسي والحربي إلي هنا فالأتراك بدورهم تساندهم الدول الأوروبية وكانوا يرفضون تقديم أية تنازلات أمام روسيا بينما كان البحر الأبيض المتوسط مفتوحاً أمام روسيا طبقاً لإتفاقية كيوتشيوك- كاينارجي عام 1774 وقد أنشأت وزارة الخارجية الروسية في حوض البحر الأبيض المتوسط شبكة واسعة من الممثليات القنصلية تجاوزت في عددها باقي القنصليات الروسية في العالم... لقد تم إنشاء القنصليات الروسية في مصر وسوريا وكان لشبكة القنصليات الروسية في تركيا مغزي كبير بفضل نشاط القناصل الذين تم تصديق الباب العالي علي إعتمادهم وتواجدهم لأنهم كانوا يتابعون ويلاحظون خرق تركيا لبنود إتفاقية كيوتشيوك- كارينارجي وسائر الإتفاقيات المبرمة بين الامبراطوريتين الروسية والعثمانية وكالعادة لم يكتف القناصل الروسي بجمع البيانات التلقائي عن ذلك الخرق للإتفاقية بل كانوا يتدخلون بنشاط في سير الأحداث... ففي أغسطس 1787 بدأت الحرب الروسية- التركية الجديدة التي إنتهت بتحقيق النصر الكبير لروسيا وتم التوقيع علي معاهدة السلام في مولدافيا.

في عام 1891 وأكدت جميع بنود إتفاقية كيوتشيوك- كارينارجي لسنة 1774 وتمكنت روسيا من تغطية شبكة ممثلياتها القنصلية لكل أراضي الإمبراطورية العثمانية وإتضحت كل الأمور التي ترتبت علي ذلك إستخداماً لمثال مصر. تم إنشاء القنصلية الروسية العامة بالإسكندرية بموجب أول قنصل روسي في الإسكندرية وفي مصر كلها: الرائد بارون كوندراتي فون تونوي (كوانراد) من مواليد محافظات بحر البلطيق وتؤرخ باتينته وفرمان تونوس في 1 ديسمبر عام 1784: أن وصول القنصل العام الروسي إلي الإسكندرية في الثالث من شهر يوليو عام1785 (تقويم قديم) وفي بلاغه الأول في 24 يوليو 1875 والذي أبلغ منير وزير الخارجية لروسيا الإمبراطورية بلاغات تونوس من الإسكندرية وليفورنو في سنوات

(1785 - 1786) وقد وضع صياغة مذكرة عن إبعاد مصر عن تركيا.

هذه هي وثيقة طريفة في نفس الوقت وفي سنة 1786 حاول الباب العالي إعادة سيطرته علي مصر التي تراجعت أثناء محاولات علي بك الإنفصالية في السبعينيات من القرن الثامن عشر حيث نزل الأتراك إلي الإسكندرية في يوليو 1786 وهناك دلائل تشير إلي إتخاذ القنصل العام الروسي بعض التصرفات بحيث ينظم مقاومة بكوات للأتراك وفي 15 يوليو من العام ذاته وجه وزير الخارجية للباب العالي مذكرة للسفير الروسي في القسطنطينية يا.بولجاكوف عكست المطامع لضم تركيا لبعض الأراضي الروسية بما فيها محاولات لإستعادة شبه جزيرة القرم/ حيث طالب في مذكرته: إقصاء القناصل العوام الروسي من مولدافيا ورومانيا والإسكندرية.

وفي السادس من ديسمبر عام 1787 أي بعد ثلاث سنوات من بداية الحرب الروسية- التركية التي دارت راحاها في أعوام 1787 وحتي 1791 ووفقاً لبلاغات القناصل العام الروسي السابق في الإسكندرية بارون تونوس في 1787 والتي تحدث فيها عن أوضاع مصر الحالية وإمكانية القيام بتغيير الحكم هناك وقد صرح رئيس مجلس الثورة بأن طبقاً لهذه البلاغات فقد أمرت سموها الإمبراطورية بإستدعاء بارون تونوس إلي هنا فوراً ولم يعود تونوس في عامي 1787-1788 حيث كان متواجداً في ليفورنو كما حضر إلي نابولي حيث كان مقر چنرال زابوروفسكي قائد الأسطول الحربي الروسي الذي كان من المقرر أن يتوجه إلي الجزء الشمالي الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط وتم تكليف تونوس للقيام بأمورية في الإسكندرية.

وفي السابع من فبراير 1788 تقرر بشكل نهائي إرسال تونوس إلي الإسكندرية بهدف إستيعاب البكوات المصريين إلي الجانب الروسي من أجل الحرب الحالية ومستقبلاً ووفقاً لأرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورة الروسية الذي ذكر: المشروع السري من 17 فبراير 1788.

تعليمات سرية بصدد إرساله من جديد إلي مصر بالتكليف الخاص.

ومن غير المعروف هل صددت هذه التعليمات بشكل نهائي أم لا بالتحديد: كنا نميل إلي الإقتناع بصدوروها علي أية حال فإن الثابت أن المشروع يعكس المخاطر التي كان يتعرض إليها القنصل العام الروسي وتجدر الإشارة إلي الممارسة العملية في سجن الدبلوماسيين للدول التي كانت تركيا تقوم بشن الحروب عليها وكان الدبلوماسيون سجناء في ما كانت تسمي «القلعة ذات الأبراج السبعة» حيث لقي بعضهم حتفهم وفي صيف عام 1788 وصل إلي الإسكندرية قائد المركب المالطي تحت العلم الروسي الذي كان يقوم بعمليات قرصنة في البحر الأبيض المتوسط.

إن تفاصيل المأمورية الثانية لتونوس في الإسكندرية وأصبحت معروفة لنا بفضل بلاغ نائب القنصل الروسي في جزيرة زاند زاجوريسكي:

«السيد بارون تونوس بدأ نشاطه في مطلع سبتمبر عام 1788 عندما إتصل من دمياط بإسماعيل بك في القاهرة وطلب منه أن يصل إلي دمياط لرؤية أحد أصدقائه مبعوثاً من إحدي البلدان العظمي للمفاوضات التي تخدم مصلحته ثم توجه تونوس إلي القاهرة حيث تفاوض مع إسماعيل بك ومع الكثيرين الأخرين اللذين لهم علاقة بالحكم، وقد قدم المبعوث الروسي الأوراق الرسمية التي كشفها (مدون في التعليمات الروسية بالملاحق الخاصة لاحقاً) ودعائم إلي التخلص من النير العثماني ووعد بتقديم المساعدة العسكرية وطالب الأتراك أن يسلم البكوات تونوس لهم فوراً لكن علي حد تعبير زاجوريسكي: أهالي القاهرة كانوا يطلبون عدم التسليم للعثمانيين إذ أنهم يريدون أن يصبحوا من أتباع روسيا وكان إسماعيل بك ينتظر أكثر من عام عام ظهور الأسطول الروسي ولذلك لم يسلم تونوس للسلطان عندما إتضح أن لن يجئ إلي مصر قد تقرر مصير بارون تونوس.

أن السفير الروسي في ڤينيسيا أ.مردفينوف قد أرسله بلاغة المشفر المؤرخ في 9 -20 من ديسمبر 1877 وقال فيه عن حصوله علي الخبز.

من مصر حيث ينص علي أسر تونوس الذي كان يحاول عمل العصيان بين

الشعوب المحلة وقد تقرر أن تقدم قضية تونوس إلي الوزير رئيس الوزراء العثماني وأبلغ القنصل الروسي في ليفورنومي. كالاماي في مارس عام 1789 عن وجـود القنصل الروسي تونوس في قلعة الإسكندرية وعن مقاومة البكوات المصريين لتسليم للقسطنطينية وإبلاغاً عن موت القنصل العام الروسي البارون تونوس في الإسكندرية في 28 سبتمبر 1789 أفاد كالاماي: «يفترضون أن أشنق نفسه في ليلة بإمر السلطان الذي أرسل ضابطاً تركياً لتعجيل هذا العقاب» هكذا إنتهت هذه الصفحة السوداء من المرحلة الهامة في تاريخ العلاقات الروسية- المصرية والدولية التي تحمل طابعاً خاصاً فيما يتعلق بالزمن وشخوصه وظروفه المحيطة.

❋ ❋ ❋ ❋

# ملحق رقم (1)
# ملحق للمذكرة المقدمة إلى سمو الإمبراطورة

في العريضة الأولي معني إحترامي لكم من الدخول في جميع التفاصيل التي لها علاقة مباشرة بخطتي.. لذلك فإني سأعرض علي سموكم الموضوع الذي يشغل بالي:

**أولاً:** حيث إن مصلحة روسيا تتطلب الإبقاء بشكل دائم علي أسطول مراقبة في البحر الأبيض المتوسط وحيث إن ذلك لا يتم إلا بنفقات ومصاريف باهظة فإنني أقترح لمصلحة التجارة وبأقل تكلفة للإمبراطورية بوضع هذا الأسطول أمام شواطئ مراكش حيث الإنفاق عليه لن يتكلف ربع ما يتكلفه في Li-vourne.

**ثانيـاً:** يمكننا توقيع معاهدة مع إمبراطور مراكش يمكننا بموجبها الحصول بين طنجة وزهران علي مرسي أو ميناء ليس فقط لإرساء سفننا بل أيضاً لإقامتها في الشتاء ولترميم أحواضها ولإقامة مخازن بها وملأها بجميع أنواع المؤمن بأسعار زهيدة.

**ثالثـاً:** يقع المكان المقترح في منتصف المسافة بين موانينا في بحر البلطيق والبحر الأسود مما يتيح لأسطولينا الحربي والتجاري إمكانية الحصول علي مكاسب جمة، وسيعطينا هذا الموقع الفريد فرصة نشر تجارتنا في جميع الإتجاهات ورصد ما يدور في جميع الأنحاء ويتيح لنا تدريجياً فرصة تكوين تجاري وتوفير الحماية اللازمة له ولمصالحه، وفضلاً عن ذلك فإن إقامتي في هذا البلد ومعرفتي بلغة سكانه وعاداتهم تجيز لي أن أؤكد لعظمتكم أنهم سيستجيبون لنا بطيب خاطر بل أنهم سيعاونوننا علي تحقيق أهدافنا.

أخيراً فإن جميع الدول الراقيـة تعد الآن الإمبراطورية الروسية من الدول العظمي في أوروبا وتتشرف بالإرتباط بها إما بمعاهدات... وإما بروابط أخري حتي ينضح عليها مجد حليفتـها العظيمـة، وسيكون لفخامتكم الفضل في إضافـة حليف جديد لدولتكم كما سيكون لفخامتكم الفضل بمنح التجار مكاسب بحيث لن يملوا أبداً من الدعاء لعلو شأن حاميهم.

ولي الشرف أن أكون لسموكم الخادم المتواضع والمطيع

**Tonus**

بعد رحلة خالية من المتاعب دامت أربعة عشر يوماً وصلت إلي هنا اليوم الثالث من يوليو وقمت في الحال بتسليم الفرمان الخاص بي إلي باشا القاهرة الموجود هنا حالياً.. كما سلمتـه إلي حاكم المدين، ولما تحققت من قبولهم له بدأت بالبحث عن منزل لوضع ساري العلم عليـه وقضيت في هذه المهمة حتي بعد ظهر الخامس عشر الفـائت فـقـمت عن طريق سكرتيـري بإبلاغ قناصل الدول الأخـري بأنه في الغـد السادس عشر من الشهر في الساعة العاشرة صباحاً سأقوم برفع علم فخامتكم وفي بعد ظهر نفس اليوم سأقوم بدخولي الرسمي إلي المدينة.

وهكذا صعدت في اليـوم التـالي في السـاعـة المحددة برفـقـة سكرتيـري والـقـائم بأعمال القنصلية وستة من البحارة الروس والفرقة الموسيقية إلي سطح منزلي حيث قـمت برفع علم فـخامتكم بكل المراسم وأعلنت عن ذلك بواحد وعشرين طلقة مدفع كـانوا لهـذه المناسبـة قـد إصطفـوا أمـام منزلي وفي الحال قـام جـميع قناصل الدول الأخري والأربعـون سفـينة الراسيـة في الميناء بدورهم وبكـل هيـبـة برفع أعـلامـهم وأطلقوا ثلاث طلقات تحية منهم لنا... أما قلعة الحاكم وسفنه الحربيـة الثلاث فقد أطلقوا خمس طلقات وقاموا بتحيتي عن طريق الترجمان الخاص بهم.

وفي السـاعـة الرابعـة من بعـد ظهـر نفس اليـوم قـمت بالدخـول الرسـمي ممتطيـاً الفرس (وهذا الإمـتيـاز لم يحصل عليـه إلي اليـوم أي من قناصـل الدول الأخري ولم يتجرأوا أن يطلبوا به وذلك بالرغم من الدسائس والمؤامرات الخفية للقناصل الآخرين

والتنبؤات السيئة والتهديدات التي وصلتني من أشخاص محليين.. لقد صمدت ولم أدع الرعب يقتلني لأننا كنت أؤمن بأنه في مقدوري تحقيق هذا الشرف لبلدنا) يتقدمني رئيس شرطة المدينة يليه مائتان وثلاثون من الإنكشارية في صفين يليهم ترجمانات وإنكشاري القنصليات الأخري في زيهم الرسمي وتبعني رعاياي وسكرتيري ومدير أعمال وعشرة من الإنكشاريين استقبلني الباشا بحفاوة وشرفني بالجلوس بجواره ونصحني بزيارة مراد وإبراهيم بك في القاهرة ليس فقط لأن العادة قد جرت بأن تقوم جميع الدول بذلك ولكن لأن فيها أيضاً الحماية لعملي ولشخصي فيتحتم علي السفر للتعارف خلال مدة ثمانية أيام فأجبته بأنني لا أحمل معي أي تعليمات بخصوص هذا الموضوع وعلي أولاً أن أعرف نية الوزارة بخصوصه ومن ناحية أخري فإن القلاقل والثورات في البلد لن تمكنني من تحقيق هذا الغرض وأمام تصميمه وقوله أن في ذلك إضاعة للوقت وأن تقاريري يمكنني تأجيلها وأن العرف جري في البلاد علي ذلك وأن حمايتي تحتم ذلك وأنهم سيمدونني بحراسة كافية تعللت لكسب الوقت حتي تصلني التعليمات من طرفكم بضعف صحتي من طول السفر والغرق في المناخ والحرارة الزائدة في مثل هذا الوقت من السنة وترجوته علي الموافقة علي تأجيل هذا السفر حتي نهاية شهر يناير المقبل حيث الجو أنسب ورجوته بتوصيل إعتذاراتي إلي مراد وإبراهيم فتفهم إعذاري ورضي بها يعود ترددي عن السفر بالإضافة إلي الحراسة الكبيرة التي يتطلبها بسبب الثورات داخل البلاد يعود أيضاً إلي أن هذا السفر يحتم تقديم هدايا كثيرة للبكوين وحاشيتهم الكبيرة وذلك بتكاليف باهظة ولكن بعد البحث ومن المعلومات التي وصلتني تأكدت أن العرف قد جري وهذا يبدو لي أساسياً علي الحصول من الحكومة المصرية التأييد علي مباركة مهمتنا وإلا عانت من كثير من العوائق والصعوبات علم البكوات بطريق غير مباشر بوصولي هنا فكتبوا لي خطابات لطيفة وأبلغوني بأوامرهم الخاصة بي إلي حكام الإسكندرية أرفقت الرسائل الأصلية مع صورها باللغة الإيطالية إلي ديوان وزارة الخارجية، ومن عند الباشا إنتقلت إلي الجمارك كما جرت العادة هنا وتم إستقبالي أيضاً أحسن إستقبال ومنها عدت إلي بيتي ترافقني طلقات المدفع

والموسيقي مما أذهل جميع الأوروبيين... أقيمت هذه المراسم بهدوء كامل ونظام تام وفي الليل أنزلت العلم علي طلقات واحد وعشرين مدفعاً.. وفي الثامن عشر من الشهر الساعة العاشرة صباحاً قام قنصل فرنسا العام بزيارتي يتقدمه انكشاريته وترجمانه وجماله يتبعه جميع رعاياه، ومن بعده جاءني علي التوالي وبنفس المراسم القنصل العام للبندقية والقنصل العام لهولندا ونائب القنصل الإمبراطوري الملكي ونائب قنصل السويد ونائب قنصل راجو Raguse وفي بعد الظهر من نفس اليوم وفي نفس الترتيب يتقدمين الإنكشاريون وتركماتي وسكرتيري ورئيس الديوان قمت بدوري بزيارتهم.. حيث أنه كان لي شرف إخطار سموكم في هذا المكتوب بتفاصيل رفع علم سموكم كما وصفت إقامتي هنا فسأوافيكم برسالتي المقبلة بجميع التفاصيل الخاصة بالحكم السياسي والتجاري.

أضفت إلي ديوان الخارجية الخريطة الطبوغرافية للبحر الأحمر والمعاهدة بين فرنسا وحكومة مصر والخاصة بتجارة الهند وتمكنت من الحصول علي صورة منها بالرغم من كل الإحتياطات التي إتخذها الفرنسيون لمنع تسرب أي من صور لها.

تفضلي سموكم من تشريفي بمواصلة حمايتكم لي وعطفكم علي ذلك أنهما أملي وعزائي الوحيدان في بعدي السحيق عن وطني... وأرجو سموكم بالمحافظة عليهم.

وتفضلوا بقبول فائق تقديري وإحترامي لسموكم،،،

الإسكندرية في 21 يوليو 1785

خادمكم الخاضع والمطيع

**بارون تونوس**

❋ ❋ ❋ ❋

## ملحق رقم (2) 5 نوفمبر 1787

سعيت جاهداً منذ وصولي إلي مصر لكسب صداقة إبراهيم ومراد بك كاظم الأول من مواليد Diflis وهو من أصل كريم (عائلة كريمة) كما حاولت أساساً كسب صداقة كاظم بك وهو من مواليد Bachmouth وإسمه Simon Kyrilovitz يتكلم الروسية ويكتبها بطلاقة.. وصلني من الوزير في القسطنطينية أمراً بمواصلة الإتصال بالبكوات المذكورين عاليه، وبعد عام من قدومي إلي مصر أرسلت إلي هذا الوزير باللغتين العربية والروسية الأصول الخاصة بمراسلاتي مع البكوات المذكورين عاليه فأتاح هذه الفرصة للتأكد من أنني قد إستحوذت علي ثقتهم.

لما وصل Capitan Pacha بأسطوله إلي الإسكندرية ووصل عابدين باشا عن طريق البر من ناحية Orfa مزوداً بعشرين ألفاً من الخيل أرسل إلي البكوان المذكوران عاليه اعرابياً يحمل رسالة تعينني وسيطاً لهما كما أنهما حدداً في هذه الرسالة الطريقة التي عليّ إتباعها في مفاوضاتي مع Capitan Pacha لإحلال السلام بينهما وبينه.. قمت بعمل نسخة من تلك الرسالة وبعثت بها إلي Capitan Pacha حيث كان يعسكر مع جيشه قرب مدينة رشيد بعد ثلاثة أيام
وصلني رده الكتابي يطالبني فيه بإخطار البكوين بأن وقت التفكير في أية تسويات قد فات وأنه تلقي من سلطانه أمراً بإصطحابهما إلي القسطنطينية أحياء كانا أو أموات. أرسلت إلي الوزير في القسطنطينية رسالة تعييني وسيطاً للبكوين ورد Capitan Pacha عليهما.. لا أنكر إهتمامي الشديد بمصير هذين البكوين كما أنني أعترف بأنني قدت لهما كل النصائح الخاصة بالعمليات التي باشرها Capitan Pacha ضدهم، ومنذ اللحظة التي سلمت فيها Capitan Pacha
نسخة من رسالة البكوين بتعييني وسيطاً لهما تنبه هذا الأخير إلي حتي وصل به الأمر إلي مراقبتي مراقبة لاصقة، ومع ذلك فإنه لم يتمكن أبداً من إعتراض أي من

رسـائلي ولا حتي إكتشف أي من مناوراتي حيث كـان هذان البكوان يبعثـان إلي دائماً مملوكاً يتكلم الروسية متخفياً في لباس أحد الأعراب، ومن ناحيتي حتي لا أثيـر الشك في نفـسـه إعـتـدت التنزه يومـيـاً علي بعـد فـرسـخين أو ثلاث من الإسكندرية في الأماكن التي كنت فيها علي موعد مع هذا المملوك.

نصحت البكوين المذكورين عاليه بالإنسحاب إلي داخل مصر العليا حيث يمكنهم تحت وطأة هذا المناخ الحـارق من إرهاق جنود Capitan Pacha بعمليات شـاقة من الكر والفر حتي وصل الحال بـ Capitan Pacha إلي التحصين داخل القاهرة وطلب الهدنة مع هذين البكوين، وفي اليوم الثاني عشر من شهر فبراير من السنة الماضية جـائني مملوك من طرف إبراهيم ومـراد بك يخطرني بأن سيداه يرجوان مني الذهاب إلي الصعـيد حتي يطلعاني علي مـا يدور في ذهنـهمـا وأعـترف بأنـني دهشت كل الدهشة لطلبهما هذا ولكن بعد كثرة إلحاحهـما تخفيت في لباس إعرابي وبعد أن كنت قد أشعت في مدينة الإسكندرية أنني أعد لزيارة آثار معبد جوبيتير Jupiter Ammon سـافـرت يوم 20 فبراير وبعد ثمانيـة أيام من السير في الصحراء علي الأقدام صادفت فليق من ألف مملوك يرافقهم مراد وإبراهيم بك كما كان معهم كاظم بك وهو الروسي الذي إستخدمه كترجمان وعن طريقه أخطرني مراد وإبراهيم بك بأن Capitan Pacha عرض عليهم مقتـراحات سلام وطلب منهـا الذهاب إلي القـاهرة لمناقشتـه هو شخصياً.

وطالبا مني بوضعهـما حلفين أمينين ومخلصين لروسيا بأن أطلعهم بصراحة علي رأيي بخصوص هذا الموضوع.. فأجبتهما بأنني لا أملك أوامر صريحة من وزارتي للتدخل في شئونهـما ولكن نظراً لكرمهـما معي في السابق فقد قبلت بتزويدهما بنصائح أظنها ضرورية لهما... ونصحتهما بعدم الذهاب إلي القاهرة والإعتصام داخـل Esux وهي عبارة عن حصن بين مصر السفلي ومصر العليا. ومن هذا الموقع إخـطـار Capitan Pacha بإرسال مفوض عنه لمناقشة السلام معهما.. وحصلت منهما في حالة توصليهما إلي السلام مع Capitan Pacha علي وعد بإعفاء الحديد

المستورد من البحر الأسود من أي ضريبة (وقد إتفقنا علي ذلك كتابة) وفضلاً عن ذلك فقد قبلا في حالة عودتهما إلي القاهرة علي منحي كل لصالح وخدمة بلدنا. . وفي اليوم التالي وبعد أن كانا قد عاهداني صداقة أزلية أكدا لي أنهما سيظلان الحليفين المخلصين لبلاطنا عدت إلي الإسكندرية.

في اليوم السابع عشر من شهر مايو وصلتني رسالة من ترجماننا من القسطنطينية مرفقاً بها شكوي ضدي مقدمة من Capitan Pacha إلي الباب العالي. فبرأت نفسي تماماً من التهمة الملصقة بي وطالب بإظهار أي كتاب صدر عني وقام Capitan Pacha بإعتارضهم وهذا ما إستحال تحقيقه.

في اليوم العشرين من مايو أرتحت تماماً عندما وصلني من إبراهيم ومراد بك نبأ حصولهما علي إتفاق سلام لصالحهما مع Capitan Pacha وفي الرابع والعشرون من الشهر نفسه قمت بإخطار وزيرنا في القسطنطينية بهذا الخبر.

في الخامس والعشرين من شهر أغسطس تم القبض علي جزافاً في منزلي. في الحال قمت بإرسال أحد القواسين الأمناء إلي إبراهيم ومراد بك مطالباً حمايتهما في الثامن والعشرين وصلني من حاكم الإسكندرية أمراً بإنزال العلم. إعترضت علي إجراء كهذا قائلاً له لم يصلنا ما يفيد بأننا في حالة حرب مع الباب العالي وفي هذه الأثناء أرسلت إلي البكوين المذكورين عاليه رسالة عاجلة أخري. وفي الثامن من سبتمبر تم إستدعاء مترجمي مع جميع ترجمانات الدول الممثلة في الإسكندرية وتم نشر فرمان الباب العالي وإعلان الحرب وطالبوني للمرة الثانية بإنزال العلم الخاص بي وحذروني بأنني إن لم أقم بذلك طواعية فيسقومون هم بإسال الجنود إلي منزلي لإنزاله بالقوة.. في أثناء ذلك تواجدت في الميناء قطعتان بحريتان روسيتان قمت بإنزال قائد كل منهما مع بحراتهما إلي الأرض ومع الترجمان الخاص بي والقائم بأعمالي صعدنا إلي سطح منزلي وقمت بإنزال علم عاهلتنا المبجلة... وألححت في طلب تمكيني من السفر مع السفينتين الروسيتين مصطحباً معي عائلتي وضابطي وجميع الرعايا الروس. رفض طلبي هذا وتم مصادرة السفينة بحمولتها

وأمرت بالإستعداد للسفر إلي القسطنطينية علي متن سفينة تركية وإعترضت علي هذا الفعل اللاإنساني مبيناً أن شروط إستسلامي تكفل لي حرية السفر علي باخرة أوروبية إلي الميناء الذي أراه مناسباً لي.. فأخطروني بأنني أتبع Capitan Pacha حيث أنني كنت علي علم بطبيعة الرجل الميالة إلي الثأر، قمت بحرق جميع أوراق مراسلاتي وكل ما يمكن أن يبين تواطؤ البكويان وقد أخطرت هذين البكوين بتصرفات Capitan Pacha معي ونواياه في إصطحابي معه إلي القسطنطينية. وطالبت حمايتهما ولهذا الغرض فقد عقدا إجتماعاً مع Capitan Pacha تقرر فيه خروجي من مصر خلال 24 ساعة. وأضافا بأنني حر في سفري علي الباخرة المناسبة لي أما في حالة العكس فإنهما علي إستعداد تام علي فسخ الإتفاق المبرم بينهما وبينه.

وفي يوم 17 سبتمبر جاءني ضابط من طرف Capitan Pacha بأمر مغادرتي في خلال 24 ساعة كما قدم لي من طرف Capitan Pacha كتاباً باللغة التركية أمرني بالتوقيع عليه. وإعترضت علي هذه المعاملة وطالبت بأن يقرأ مترجمي هذا الكتاب. فرفض طلبي وهددني في حالة عدم توقيعي علي الكتاب بأنه سيأمر بحجزي علي متن سفينة حربية تركية.. فقمت بالتوقيع علي الروقة باللغة الروسية وأنا أعترض في حالة إحتوائها علي أي شئ يشين بشرفة الأمة الروسية أو حتي بشرفي أنا شخصياً أو أنها تحتوي علي ما يفهم منه أنني مدين بأي شئ في الإسكندرية، فأنا أنكر ذلك تماماً ذلك تماماً حيث أنني لا أدين بأي شئ إلي أي أحد وأنهم قد قاموا بإجباري علي التوقيع.. قمت بصرف المرتبات حتي الأول من سبتمبر إلي مترجميني وإلي فواسيني المتعلقين بي شخصياً وإستلمت إخلاء طرف من كل منهم، وقد تركت في منزلي بعد إغلاقه كل ما يصعب حمله من أثاث ومتعلقاتي وقمت عمل مذكرة دقيقة حيث حددت تماماً بأن كل شئ علي ما يرام وأودعت هذه المذكرة ومفتاح بيتي لدي حكومة القاهرة.

اصطحبت معي إلي السفينة ربابنة الباخرتين المحجوزتين في الإسكندرية وتاجر

Diflis وأخو وشقيق زوجة كاظم بك والكود في Badimuth والذي كان قد جاء علي إحدي السفينتين للزيارة.

أهداني إبراهيم بك مهرة عربية رائعة أرسلها عن طريق أحد الضباط داعياً إلي بسفر مريح وأوصاني بإستخدام المهرة الإستخدام المناسب.. أما مراد بك فقد أرسل إلي سيفاً رائعاً أرفقه بنفس الدعوات تقريباً كما أضاف أن لي مطلق الحرية للعودة إلي مصر حينما يخرج Capitan Pacha وأنه وإبراهيم بك سوف يجدان دائماً طريقة لتوصيل خطاباتهم إلي.

في الثامن من سبتمبر وصلت إلي Mesiue وخرجت منها بعد مضي 20 يوماً في الحجر الصحي إلي Livourme حيث وصلت في 24 من نفس الشهر.

وهناك تقدم إلي قنصلنا وأخطرته بأنني أود نظراً لتوقيعي عنوة علي كمبيالة بإستلام مبلغ لسداد إنتقالي علي الباخرة التي حملتني إلي Mesiue وفي نفس الوقت لتكملة سفري إلي Petersburg إلا أنه أخطرني أن ذلك خارج صلاحياته ويجب علي الإتصال بالوزير (السفير).

في نفس اليوم سافرنا إلي Horeuce حيث قابلت سفيرنا (وزيرنا) وتقدمت إليه بنفس الطلب المقدم إلي القنصل وأظهرت له ضرورة وصولي إلي الوزارة في Petersburg لأطلعهم هناك علي أمور مهمة لما آلت إليه الحالة في مصر الآن وأخطرني أنه لديه أوامر بألا يسلمني إلا ثلث مرتبي فقط.. ومن ناحية أخري فقد أمرته الوزارة بأن يبقيني هنا لإستخدام في مهام بحرية.. أجبته بأنني مندهش لأوامر الوزارة بإستخدامي علي سفينة إغارة علماً أنهم يعرفون تماماً أني من ضباط سلاح الفرسان وليس من ضباط البحرية.

لذا أرجو بكل إحترام وزارة الإمبراطورية بإرسال أوامرها بهذا المعني وأرجو أن أعين في مأمورية أكون فيها مفيداً لوطني.

في التاسع من نوفمبر وصلت إلي هنا سفينة قادمة من الإسكندرية كانت قد

أبحرت عشرة أيام بعد مغادرتي لها وحاملة إليّ رسالة من مراسليني يخطروني فيه بـــأن Capitan Pacha وصل إلي الإسكندرية ومع أول ريح مـواتيـة سيـبحـر إلي القسطنطينية.

- **أسطوله مكون من خمس سفن:**

* La Capitan بها 74 مدفعاً- سفينة قديمة.
* La Reala بها 64 مدفعاً- سفينة جديدة.
* السلطان سليم بها 50 مدفعاً- سفينة قديمة.
* عدد 2 سفينة سويقية بكل منها 20 مدفعاً.
* Kirleugitz 10 تحمل كل منها 6 مدفعاً.

**بكل طاعة أنا من رعاياكم الأوفياء**

Livorne 5 نوفمبر 1787

**Conrad Tonus**

إلي البارون Tonus في Livourne

في 7 ديسمبر 1787 عن طريق رسول أفادنا وزير الإمبراطورة في Florence بوصـولكم إلي Livourne وحيث أن تقريركم يا سيدي قد تم قراءته بإرتياح يرغب السـيد ل بأن تذهبـوا أولاً إلي سانت بيتـرسبـورج الكونت Moucenigo الـــذي سيطلعكم علي هذه الرسالة مزود بجميع الأوامر الخاصة برحلتكم.

يا سيدي علي يقيم تماماً بأن حماسكم للواجب سيحثكم علي تنفيذه بالسرعة التي تلائمكم في إنتظار أن أراكم بيننا (تفضلوا بقـبـول كمـا تم وأقـول لكم إستحسان أفعالكم)

❋❋❋❋

# ملحق رقم (3) مذكرة عن مصر

تعد مصر من أغني أقاليم الإمبراطورية العثمانية وهي من أكبر منتجي المواد الغذائية للجيش التركي. يصعب وصف الظروف الحالية وعداء البكوات والمماليك للأتراك... أوشكت مصر أن تصبح مقاطعة مستقلة تماماً عن الإمبراطورية العثمانية وأن بتوصلنا إلي تحقيق ذلك نكون قد أحدثنا وبدون شك أكبر الضرر لأعدائنا.. قد بينت لسموكم في مذكرتي رقم 14 بتاريخ 20 نوفمبر علي وضع مصر اليوم والثورة التي أدخلها Capitan Pacha في البلاد وقلة النجاح الذي لاقاه في حملته تظهر تماماً أن الباب العالي ليس مؤهلاً للسيطرة علي هذا البلد وأنني لا أتكلم جزافاً حينما أؤكد أنه في مقدور وزارتنا أن تصبح مصر إقليماً مستقلاً. الظروف الآن مواتية أكثر مما كانت عليه إبان حكم علي بك والنفوس أكثر إستعداداً للثورة عنها في ذلك الوقت عندما أعلن الباب العالي الحرب علي وزارتنا أكد المماليك صراحة وكانوا يعتقدون كذلك بأن الروس سيستغلون الفرصة لحماية ومساعدة البكوت.

يوجد في الإسكندرية ميناءان الأول وهو الميناء الجديد والآخر وهو الميناء القديم وترسو في الأول جميع سفن الدول الأوروبية من ناحية أخري هو ردئ للغاية ومزود بأحد الأبراج الصغيرة به ستة عشر مدفعاً في حالة سيئة لحمايته.

أما الثاني فهو مينا جيد وواسع بما يكفي لإحتواء 25 سفينة حربية تكون في مأمن من العواصف ولا يوجد في هذا الميناء أي تحصينات يصعب إيجاد 50 قطعة مدفعية في مصر كلها... عموماً إنزال الجنود من العمليات الصعبة بسبب إنخفاض الشواطئ المصرية ويستلزم دخول الميناء القديم الإستعانة بمرشدين ماهرين وألا لزم إرسال زورق السفن مستعيناً بالمسير، وتبقي صعوبة أخري في حالة ما إذا تم إستقبال سفننا علي أنها من سفن الأعداء فلن يحصلوا علي الماء لأن الصهاريج تقع

خلف المدينة، وفي هذه الحالة يمكننا إرسال الزوارق إلي مدينة رشيد وهي علي مسافة ست ساعات.

دمياط مرسي مريح نسبياً تهب عليه رياح جنوبية غربية مما يجبر السفن إلي رفع المرساة والإتجاه إلي عرض البحر والمضي إلي ميناء Lernica في قبرص وهي مرسي ممتاز.

سانت بيتر سبورج في السابع من ديسمبر 1787 أفادنا وزير الإمبراطورة في Florence بوصولكم إلي Livourne وحيث أن تقاريركم قد تم قراءتها بكل إرتياح فإن جلال الإمبراطورة ترغب بأن تذهبوا علي الفور إلي سانت بيترسبورج قد تم تزويد السيد Conte Moncenigo الذي يحمل إليكم هذه الرسالة بالأوامر الخاصة بسفركم.

إنني يا سيدي مقتنع تماماً بأن حماسكم في تأدية واجبكم سيحثكم علي تنفيذه بالسرعة التي تناسبكم.. في إنتظار أن أراكم معنا فإنني لي الشرف بأن أكون سيد خادمكم.

**سي. اف . دوترمان**

❋❋❋❋

# ملحق رقم (4) تعليمات سرية
## مشروع للقنصل العام الروسي بالإسكندرية «بارون تونوس»

بصدد إرساله إلي مصر بالتكليف الخاص في 17 فبراير 1788 واضعاً في إعتبارنا كل معلوماتكم حول أوضاع ومواقف بكواتها وصول الوسائل التي يمكن إستعمالها لصالحنا في الحرب الجارية، ومن المستقبل علي السواء.. وتقييماً مميزاً لمجهوداتكم التي تبذلونها أيضاً أثناء رحلتكم إلي الأرض المذكورة آنفاً نقدم لكم النصائح التالية:

(1) ما هو الطريق الذي تسلكوه لرحلتكم عبر تريبا ست أم عبر راجوزا، ومن هناك علي متن المركب المؤجر فنترك لكم حرية إختيار هذا الطريق فكونوا علي حذر فقط في كلا الحالتين يجب عليك الإحتفاظ بسر مأموريتكم للدرجة التي لا يستطيع أحد معرفة أمر مغادتكم من هنا وما تعملونه وإنكم ذاهبون إلي أسرتكم وأنكم سوف تنتظرون هناك.. إما وصول الأسطول، وإما الفرصة الأخري التي تتناسب ووضعكم.

(2) سوف نوجز لسفيرنا في فلورنسا/ النبيل موسينيجو مرسومنا عن التقديم في متناول أيديكم المركب الذي سيتم تجهيزه بالمدافع والذي تستعملونه أنتم لصالحنا في مأموريتكم حذراً ألا يقوم هذا المركب بشئ يضر بمصالحنا نحن أو بنظام العلاقات الدولية القائمة الآن والشعوب التي تشارك في الحرب الحالية.

(3) وعند مغادرتكم يتحتم عليكم أن تأخذوا من أميرال جريج أمراً لقادة مراكبنا الحربية الموجودة في البحر الأبيض المتوسط ينص علي:

أن لحد إمرتنا المقبلة سوف يميزون العلم التجاري المصري عن العلم التركي وأنهم

يسون السفون التجارية المصرية العابرة تحت العلم المصري ويتعاملون معها كما يتعاملون مع السفن التابعة للدول المحايدة ويمكن أن تأخذوا نسخة من هذا الأمر معكم لتعرضوها علي قادة المراكب الروسية التي تقبلوها أثناء مأموريتكم... أما النسخة الثانية منه فإنقلوها إلي النبيل موسينيجو لكي يتولي إيصالها بطريقة سرية لباقي المراكب الحربية الروسية القائمة هناك.

(4) لكي تجدوا من جانب البكوات المصريين ثقة تامة الذين تحوزون علي ثقتهم أولاً بفرماننا وثانياً بتقديم لكم كل شئ من الإختصاصات تستعملونه بشكل طبيعي وكامل عندما ستعرفون ما يحتاجون إليه في إطار مصالحنا شريطة أن تسبق كل إتفاقية تجربة مسبقة من قبيل أميرال جريج ويليها تصديقنا.

(5) بالإضافة إلي التأكيدات المتضمنة في فرماننا أضيفوا شفاهة أننا نكرم مجهوداتكم للبلاد التي يحلمون فيها لتخليصهم من النير التركي وسوف يطيب لنا أن نراهم المتخلصين من تحت سيطرة الغير والمتمتعين بالحرية والأمن والآن أنسب وقت لتحقيق ذلك.. فإذا ضاع فمن المستحيل أن نجد وقتاً مماثلاً في المستقبل.. إن عدونا مشغول حالياً بالحرب ضدنا وضد حليفنا الإمبراطورية دولة ريم.. بالإضافة إلي الجيوش البرية الكثيرة تجذب كل قواه من جبال قوقاز إلي البحر الإدرياتيكي.. يوجد لدينا الأسطول في البحر الأسود الذي يهدده كما هذا الربيع نرسل إلي البحر الأبيض المتوسط أسطولنا أيضاً المعزز بالقوات البرية الكبيرة وكل ذلك يشغل بال عدونا للدرجة التي لا تمكنه من تخصيص أي شئ لإستبداد مصر الجديدة ونهبها مرة أخري.

(6) علي فكرة بمجرد حصول قائد الأسطول علي الخبر أن باشا مصر إعتزم إعلان إستقلاله عن الباب العالي وصديقاً لروسيا سيقدم علي عمل الشروط الأولية حول المساعدة الممكنة التي ستزداد بقدر مباركة ربنا علي سباحنا.

(7) عندما يعتزم البكوات تنفيذ الأمر ستبرمون معهم الإتفاقية بشكل عام شفاهة وتعكس إعترافهم بأنفسهم مستقلين كما قيل آنفاً وأصدقائهم من روسيا وعن عدم تقديم مساعدتهم لعدونا وعن توريدهم المؤن الغذائي لإسطولنا والقهوة وتغطية إحتياجاته الأخري بلاشك علي أساس الأسعار والعقول الطوعية وعن إمتيازات اتباعنا حاولوا أن تكون مثل البنود التي تشتمل عليها إتفاقيتنا مع فرنسا التي سترفق بهذه التعليمات إذ مع إعترافنا بإستقلالهم وإنهاء الحرب ستتجلي كل هذه الأمور.. كما ستحدد السبل التي سيلجأون إليها لإلحاق الأضرار البالغة بعدونا المشترك للحيلولة دون عدم إستخدام أي وسائط للإستبداد والإستعباد.

(8) ومع ذلك يمكنكم أن تبلغوهم بأننا علي علم تام بنقص مدفعيتهم فقد بعثنا لهم مع أسطولنا ببضعة مدافع من النحاس والذخائر الإضافية هدية لهم والتي من شأنها معاونتهم في إستخدامها لصالحهم دفاعاً عن النفس وسيتولي توريدها لهم أميرال جريج بمجرد إتصالكم بهم وتسألونهم هل توجد ضرورة لتعليم سبل إستخدامها وإذا وجدت يمكن إرسال بعض المدربين المهرة للذين سيبدلون ملابسهم وفقاً للظروف المحلية.

(9) من الضروري أن تبذلوا قصاري جهدكم لأنهم بمجرد وصول أسطولنا في البحر الأبيض المتوسط يجب أن يؤكدوا كلامهم حول الإستقلال بتوجيههم أسلحتهم ضد سورية حيث سيسعون إلي إرسال الإشارة والطلب لمراكبنا الحربية بهدف نجدتهم ودعمهم في تطهير السواحل مما سنبلغ أميرال جريج بالتفصيل... وأنتم أيضاً يتحتم عليكم أن تحاولوا مزاولة المراسلة معه والسبل الأخري طبقاً لإعتباركم وبعد أن تتأكدوا من حسن نوايا البكوات واستعدادهم للمقترحات آنفة الذكر أبلغهم بأننا أمرنا الآن بعدم المساس بمراكبنا الحربية بالعلم التجاري المصري علي إعتبار إنهم ليسوا من أتباع عدونا بل سيبقون شعباً طيب الأعراق وحسن النية حتي لا نري من قبل البكوات أي أفعال وخضوعهم للأتراك.

(10) أما عودتكم فنجعلكم الوقوف عليها بأنفسكم هل ستعودوا إلي أميرال جريج أم إلي إيطاليا مباشرة بينما ابعثوا أكثر ما يمكن من كميات من جريش الدخان المحلي والمواد الغذائية إلي أسطولنا قبل وصوله إلي سيتشيليا إلي العميد بسارو الذي أوكل إليه مهمة إمداد الأسطول نرجو من الله أن ينقذكم من كل شر نؤكد لكم أن مثل هذه الخدمة التي تتولون أدائها لن تبقي دون مجازاة الإمبراطورة الخاصة عليها.

(11) أثناء هذه المأمورية وحتي إستقراركم في مكان ما سوف تستقلون نفس المركب للقنصل العام... علاوة علي ذلك إذا إحتجتم إلي إرسال أناساً في بعثتكم في المأمورية سوف تتوافر عندكم هذه النقود حسب إحتياجاتكم لا نطلب منكم إلا حذراً بالغاً في المراسلة وفي الإقامة أو في أي شئ آخر إذ كنا في النضال الصريح نستعمل فيه كل الوسائل إضراراً له لكن سوف نأسف أسفاً شديداً إذا تسببتم في مصيبة ما لأنفسكم.

سانكت- بترسبورج 1788/7/18

**دون توقيع**

❋ ❋ ❋ ❋

# ملحق رقم (5) مذكرة

تألمت كثيراً العام الماضي عندما تحققت من أن عملية البانيا التي عهدت إليّ لتنفيذها قد باءت بالفشل بسبب تدخل الضباط النمساويين، فانسحبت إلي إيطاليا لأطلع صاحب السعادة Moudminoffde وزير صاحبة الجلالة الإمبراطورة في البندقية علي المهمة الفاشلة التي كان قد كلفني بها فضلاً عن الإحباط الذي أصابني نتيجة عدم جدوي مجهودي وتعبي وفي نفس الوقت الذي كنت أتوقع فيه أحسن النتائج تمكن مني ولسوء حظي مرض مزمن وخطير كنت قد أصبت به أخيراً خلال سفرياتي المنكوبة وإقامتي في Dalmatie عندما وصلني عن طريق المدعو Youssef Fakir العميل السري المقيم في الإسكندرية الكتاب المرفق رقم 1 لبكوات مصر المعروفين إبراهيم ومراد وصديقي القديم وإطلاعي علي خطة بهذه الروعة كنت أعرف مسبقاً وسع مداها وكل قوتها- وعندئذ أشعل حماسي لخدمة الإمبراطورة شجاعتي من جديد فبدأت أستعيد قوة كانت كثرة الآلام قد أهلكتها فأصبحت مستعداً تماماً للتضحية بأي شئ بحياتي في سبيل واجبي وبالرغم من حالة صحتي المنهكة لم أتردد ولو للحظة في أخذ البريد معي عند سفري إلي سان بيتر سبورنج لأدع أمام أعين الديوان الإمبراطوري تفاصيل ومكاسب إقتراح أنا من مؤيديه وأعلق عليه أكبر الآمال. جلبت ثورة إبراهيم ومراد بك أشد القلق علي الباب العالي شجاعتهما في الكفاح لمدة سنتين ضد كل سلطة ونفوذ الإمبراطورية العثمانية لم تجنبهاما الهزيمة وهذا ليس فقط بسبب الفارق في ميزان القوة بل أيضاً بسبب مؤامرات ودسائس Capitan Pacha الخفية، فقد تمكن من بذر بذور الشقاق بين رؤساء الإتحاد وإغتنم علي أثر ذلك فرصة ضعفهما فإنهال عليهما حتي أجبرهما علي التخلي عن كل شئ تاركين ممتلكاتهما ومناصبهما لأعدائهما عازمين الأمر علي الإنسحاب إلي مصر العليا ليضعا أنفسيهما تحت حماية الشيخ الإمام

الذي هو بمثابة الكاهن الأكبر عند العرب وهما في ملجأهما هذا لم يفقدا الأمل في إستعـادة أمجادهمـا القديمة في يوم من الأيام وهما يعيشـان مر الحيـاة وضنكها لإحساسهما بالظلم ولا يحييان تقريباً إلا علي الرغبة في الإنتقام وهذا الإحساس يزداد مع مرور الأيام ويتأجج بسبب قلة حيلتهما والتي تجبرهما علي تأجيله لقد إعتادا منذ زمن بعيد علي إعتبار الديوان الامبراطوري الروسي من بين أصدقائهما ذلك لأنه عدو طاغيتهما فلا يكفان بإرسال أمانيهما له وطلب نجدته بنا ءاً علي هذه المعطيات التي لم يتم التحقق من صدقها في الديوان الامبراطوري فإن الخطورة التي أقدما عليها الآن ما هي إلا نتيجة طبيعية لما يشعران به نحونا وهو ما كنا نقدره دائماً فيهما لقد علمتهما تجربة العام الماضي الفاشلة أن نظام اللجنة في مصر غير مجد بل هو علي العكس من ذلك يمثل خطورة كبيرة إذا تواجدت هذه اللجنة في قبضة يد رجل لا يمتلك خبرة كاملة وعميقة بمصر وبما يجري فيها ولا يتكلم لغاتها ويجهل المسببات السرية للأمور عند تعامله معها ويعتمد في إدارة أعماله حتي علي الأكثر حساسية منها علي غيره فيجد نفسه حينئذ تحت رحمة أشخاص ليست أمانتهم بعيد عن الشبهات في محاولة أخيرة أرادا توضيح أفكارهما وأرادا الإلحاح في طلب المساعدة التي تمكنهما من الظهور من جديد وفي يدهما سلاح الإنتقام للإهانة التي يعيشاها الآن والشيخ الإمام أو الحبر الأعظم عند العرب يتسلط علي عقول الشعب بهذه السلطة الإنتهازية والمطلقة التي يسيطر بها في كل العصور الكهنة المكرة والمتعصبون علي الأمم المستسلمة للجهة والخرافة ويبسط سيطرته أساساً علي قطاع الطرق المتجولين في الصحراء العربية، طاعة لا حدود لها وثقة عمياء تقابل دائماً النبوات والأوامر العليا الصادرة علي لسان حال الله هذا ويعرف عن الرجل الذي يقوم بهذا الدور في الوقت الحاضر بصدق نيته تجاه البكوات بالإضافة إلي أنه ليست له أي مطامع شخصية عصابات قطاع الطرق العديدة مقسمة إلي قبائل يرأس كل منها زعيم يعرف بالشيخ، أضعف هذه القبائل يمكنها أن توفر عدد من الخيالة يربو علي المائتين أما حشد وتجمع قوتهم يتكون فيه جيشاً يرتفع قوامه بسهولة إلي عشرين ألف محارب ويعيشون علي أرض

جدباء في مناخ يجبرهم علي الخمول والكسل، قطاع طرق لا يرتزقون إلا علي السرقة والنهب ويكثر الباب العالي من الهدايا ودفع الإتاوات المغرية حتي يسمح هؤلاء اللصوص بالمرور الحر للقافلة المتجهة إلي مكة والقوافل الأخري المتعهدة بالتجارة بين الهند ومصر لا مبادئ ولا قانون ولا رادع لجموحهم فإنهم لا يوفون بتعهداتهم إلا بهذا القدر الذي يتفق ومصالحهم وهو دائماً علي إستعداد وبعدم ذمة علي بيع ضمائرهم لمن هو قادر علي الدفع أكثر من غيره وإذا ما تم كسب رضاء الحبر الأعظم وتم شراء رؤساء القبائل بالقدر المناسب فلن يقف أي شئ عائقاً أمام نجاح العملية سيقوم الحبر الأعظم بلعن المغتصبين لمصر وسيعلن الله أن المالكين الشرعيين للملكة هما إبراهيم ومراد بك ويطلب من أتباعه جميعاً الإنتقام للضرر الذي أصاب البكوين كما يطالبهم بالإضافة إلي ذلك بمساندتهم بالجهاد المسلح ولما له من مصداقية طرفهم وسيعزز رؤساء القبائل أوامر الحبر الأعظم ويساندون حماس شعب عدو للسكينة بالفطرة وعاجلاً ما سيمتلك البكوان الفاران جيشاً سينضم إليه الساخطون في مصر جميعهم مع أنصارهم القدامي، وفي لحظة يكون أتون الحرب قد إشتعل أكثر عنفاً من أي وقت سيقومون بالسطو علي القوافل وكأول نتيجة لهذا العصيان وبالذات قافلة الحجاج السنوية والمتجهة إلي مكة وتكون دائماً أغني هذه القوافل وسريعاً ما تتوقف التجارة وتحرم العاصمة والإمبراطورية معها من المنتجات المصرية القيمة علي الأخص الأرز والقهوة وهما من المواد الأساسية عند الأتراك في الوقت نفسه سيعرف الجميع أن الأمن اللازم للقيام بالحج وهو أكثر الواجبات قداسة عند أي مسلم لم يعد موجوداً ولكن أن تتخيلوا الأثر الفظيع لهذه الثورة علي شعور الأمة وعلي أجهزة الباب العالي سيعيش الناس في رعب حين يجدوا أنفسهم محرمين من أشياء فيها ملذاتهم ومن ناحية أخري سيتلكون الحزن عندما يروا أكثر معتقَداتهم الدينية إحتراماً قد إنتهكت فلن يترددوا عن النداء بالجهاد (بالثورة) هكذا يبدأ حكم السلطان الجديد نذير نحس وشؤم وسرعان ما يصبح موضع بغض للناس حكمه لم يدم طويلاً وأعماله مازالت قليلة حتي يكون قد فرض نفسه علي شعب بدائي وعنيف، شعب قد أظهر في أكثر من حالة تمرده وعصيانه، شعب قد

أشعل فيه الحماس وحكمه لم يستمر طويلاً وأماله مازالت قليلة حتي يكون قد فرض نفسه عي شعب بدائي وعنيف كثيراً ما أظهر التمرد والعصيان شعب يكون هو السبب الأول في إشعال حماسه وثورته من جديد حينئذ لم يتردد الناس في أن يغزوا له جميع النكبات التي أصابت الامبراطورية فتنقلب سياسة الباب العالي رأساً علي عقب فيصبح في وضع إما أن يقبل بسلم مشروط يفرض عليه فرضاً أو أن يشتت قواته بحملة علي مصر النجاح فيها غير مضمون ويصبح في وضع إما أن يقبل فيه بسلام مشروط يفرض عليه وإما أن يشتت قواته تشتتاً وذلك بحملة عسكرية علي مصر غير مضمون النجاح فيها تضعفه وتهدده بالنكسات الأكثر شئوماً والتي لا يمكن التنبوء بعواقبها والخريف أنسب فصل السنة لدفع العرب للتحرك لأن في هذا الوقت بالذات كثرة...... يسهل عمليات سلاح الفرسان وفي نفس الوقت يتزامن مع موسم يتم فيه جمع البلح الذي يمد العرب بغذائهم لمدة خمسة أشهر.

إذا قرر البلاط الإمبراطوري أن يتبني مشروعاً يبدو لي سهلا وله إمتيازات كثيرة فإني أسمح لنفسي أن أؤمن وأكد أنه ما عدا في حالات عارضة لا يمكن للحكمة الإنسانية أن تضعها في الحسبان ولا شئ من ناحية أخري سيحول دون نجاحه الإمكانيات المطلوب توافرها لن تكون إلا باهظة التكاليف لكن البكوين وهم تحت حمايتنا عندما يصبحان مالكين مستقرين لأغني دولة في العالم من الأكيد أنهما لن يرفضا سداد أموالاً كنا قد مولناهم بها وفضلاً علي ذلك ستصبح في وضع يعطي لنا فرصة إبرام إتفاقية تجارية لا تحصي مكاسبها ولا تعد وأني أحتفظ بحقي في أن أقترح في الوقت المناسب خطة لدراستها في البلاد الأمبراطوري.

عندما تقدمت لإنجاز هذه المهمة بناءاً علي طلب البكوين دفعني إلي ذلك ليس فقط موهبتي المتواضعة ولكن أيضاً غيرتي علي خدمة صاحبة الجلالة التي تشجعني علي أن أتحمل ما هو فوق طاقتي من أعمال قضيت من حياتي عشرين عاماً أقيم في تركيا ومنها ستة في مصر قضيتها في إدارة الأعمال كما أنني

أتكلم اللغات بطلاقة ولدي معرفة دقيقة لظروف البلد وعادات شعبه بالإضافة إلي ذلك أمتلك عزيمة صادقة إن كل هذا ليس بكافياً لإنجاح المأمورية فإن روح روسيا الموفقة وبمساعدة روح الله التي توحي في هذا العالم بصورة الحكمة المتكاملة فكل هذا سيعضدني ويساند مجهودي.

## تكملة للمذكرة المقدمة

المذكرة التي كان لي الشرف بالتقدم بها ما هي في مجملها إلا ملخص لأفكار راودتني حينما أحسست أن خدماتي المتواضعة يمكن أن تأتي ولو بقسط بسيط من الفائدة وأيقنت أنه من واجبي الرجوع إلي تلك الأفكار والتوسع في عرضها.

بإفتراض أن المطلوب هو الإستفادة من الإستعداد الحالي للبكوات لمؤازرة نجاح المجهود العسكري الروسي وأن الوزارة تعتبر خطتي بوضع العراقيل أمام السير المستمر للمؤن من مصر إلي تركيا التي تعتمد عليها- إذا صح هذا القول- حياة القسطنطينية جديرة بالإهتمام فلابد:

1- أن أكون مزوداً بالتعليمات المفصلة والخاصة بتعاملاتي مع هؤلاء البكوات كما كان لي الشرف في ذكر هذا من قبل فإن إبراهيم بك وهو أعظمهم جميعاً، ومراد بك وهو المتحدث الرسمي بإسمهم وهو أيضاً أمير القافلة، وكذلك قاسم بك كلهم من أصدقائي وقد أديت لهم جميعاً خدمات جليلة فقمت بتوجيه الإرشادات لهم خلال عملياتهم الحربية ضد Capitan Pacha حتي وسلوا معه إلي سلام لصالحهم وقد أبعده هذا عن الأراضي المصرية، ومن المناسب أن أنقل إليهم بإسم جلالة الإمبراطورة التأكيدات الرسمية لجلالتها بتأييدها يعانون وهم تحت وطأته كما أنه أيضاً من المناسب أن يسمح لي ليس فقط بتزويدهم بالنصائح وإنما أيضاً بالوقوف إلي جانبهم في حالة ما إذا طلبوا ذلك صراحة. ولأنني وأنا في طريقي إليهم لا يمكنني حمل أي مكتوب حرصاً مني من أن يكون قد غدر بي أو أن يتم إيقافي خلال سفري بحراً فإني أطلب هذه التعليمات فقط للإسترشاد بها وسأبقيها في

ديوان الخارجية حتي تكون الأساس في الحكم علي المساعي التي أكون قد قمت بها تبعاً لذلك.

2- للوصول إلي مصر بالسرعة التي تتطلبها خدمة مولاتي لا أعرف إلا طريقتين:

- أن أرسل من هنا متخفياً في لباس تاجر يهودي مباشرة عن طريق Vienna إلي Trieste ومن هناك أصل علي ظهر سفينة إلي Raguse ومنها أقوم بإيجار سفينة Raguse بالشهر تنقلني مباشرة إلي دمياط المدينة المصرية التي لا يعرفني أحد فيها وحيث لا يوجد فيها لا قنصل ولا تاجر أوروبي. ومن هناك يكون طريق النيل مفتوحاً أمامي وبسعر زهيد.. ستبقي هذه السفينة الـ Raguse راسية في دمياط في إنتظار أي رسالة مني أو علامة متفق عليها تبين سلامة وصولي إلي غايتي.. من أسباب تفضيلي لطريق Raguse دون غيره أنني وأنا في سفري عن طريق إيطاليا لا يمكنني الإبحار علي أية سفينة إلا ويتكشف أمري وأتعرض للخيانة ومن ناحية أخري فإن صعوبة إيجاد سفن راسية والمغالاة في أسعار النولون ستضع عراقيل إضافية أمام وصولي السريع إلي مصر.
- أما بخصوص الطريق الآخر فيتم من هنا إرسال أمراً إلي السيد Moncenigo بوضع سفينة الإغارة التي قام بتسليحها لحساب صاحبة السمو تحت تصرفي.

3- من فوائد العلاقات الأكثر حماوة مع البكوات:

**أولاً:** أن أتمكن بسهولة من حشهم علي منع تصدير الأرز والبن لتموين القسطنطينية.

**ثانياً:** أن أدفعهم إلي القيام بحملة علي سوريا ضد باشا الأقاليم ومنعه من تقديم أي مساعدة إلي السلطان الأعظم مما ينتج عنه حرمان الباب العالي من عدد كبير من الفرق العسكرية.

**ثالثـاً**: إن يكون تزويد الأسطول الروسي الراسي في ميناء الإسكندرية بالأرز والمواشي أمراً سهلاً وفي نفس الوقت يكون هذا الأسطول قريباً جداً من Candie فيمكنه مصادرة كل كميات الزيت التي تصدرها تلك الجزيرة علي كل حال يجب علينا أن نقوم بقدر الإمكان بإيذاء هذه الجزر المأهولة بأكثر المسلمين غطرسة في الإسلام وهؤلاء السكان من ألد أعداء روسيا بعد هذا العرض ألتمس عطفكم بإضافة كلمة عن موضوع يخصني شخصياً من سعادتي أنني كنت ولمدة ثلاث سنوات القنصل العام لصاحبة السمو الأمبراطورة في الإسكندرية أود قبل إتخاذ أي قرار بشأني أن أضع جميع أوراق قنصليتي بين يدي من يأمرني ديوان الخارجية بتسليم إياها وأن أقدم حساباً تفصيليا عن الأموال التي تسلمتها لحساب معاونيني وأتسلم تبعاً لذلك إخلاء طرف عام يحميني من أي ملاحقة في المستقبل.

وعند تعييني في القنصلية تجرأت وتوسلت عند مولاتنا بأن لا أستبعد من الخدمة العسكرية حيث حصلت منذ ثماني سنوات علي رتبة Major لكني وبكل ألم إكتشفت عدم وجود إسمي بين أسماء القائمة ووجدت أيضاً أن خمسة عشر من يصغرني سناً قد تخطوني في الترقية ومع هذا الطلب المتواضع أتجرأ وأرفق طلباً إنسانياً يغفر له بكل المقاييس.

أنا متزوج وأعول ثلاثة أطفال في مقتبل العمر وأنني علي وشك ألا أري بلادي وعائلتي ثانية فما مصير هذه العائلة حينما لن أكون متواجداً لمساعدتها.

ولا يبقي لي إلا أن أتوسل إلي إحسان جلال الأمبراطورة لتلقي نظرة عطف علي مصير ذويي فتمنح زوجتي قطعة من الأرض لتلجأ إليها تقوم بتربية أولادها التربية الصالحة وأكون أنا أسعد الأحياء كلهم وأواجه الموت بشجاعة لأنه لن يصيبني إلا أنا وحدي.

سان بيتر سبورج 4 فبراير 1788

**لورد بارون Manus**

ماجور وقنصل عام

## تكملة للمذكرة المقدمة يوم 4 فبراير

أنني أطلب إرسال أمراً من هنا إلي السيد الكونت de Monnigo بوضع سفينة الإغارة والتي قد قام بتسليمها لحساب الديوان الأمبراطوري تحت تصرفي الشخصي وأغتنم هذه الفرصة وأرجو أيضاً بالإضافة إلي ذلك أن يتسلم قبطان هذه السفينة أمراً يحول دون خروجها لملاحقة السفن المصرية الصغيرة فيصيب مصالحنا بمقتل فيهدم كلية ثقة البلاد نزاهة وزارتنا. أما أنا فقد إرتبطت مع البكوات بكلمة شرف بعدم مهاجمة سفينتنا لسفنهم وذلك حتي يتم إيضاح ما إذا كنا مصممين علي التعامل معهم أم لا. وحيث أن سفينة الإغارة هذه قد أبحرت قبل مغادرتي لمدينة Livouove فلم أتمكن من إيجادها. لذلك سأتمسك برأي الأول وأذهب إلي اللحاق بها لإستلامها Raguse وأرجو الوزارة بمنحي خطابات موجهة إلي تلك الجمهورية التي كنت قد قدمت لها أيضاً خلال إضطرابات الحرب في مصر كثيراً من الخدمات بحماية قنصلها وسفنها بنفس السفينة التي سأقوم بالسفر عليها، اخطرني ساعدة أمير البحر Greigle بأنه يمكنني إرسال حمولة أرز للأسطول ويتيح لي هذا مكسبين فهي فرصة لتجنب سداد مصاريف نقلي علي السفينة كما أن هذه السفينة في عودتها ستحمل المؤن للأسطول وعلي نفس هذه السفينة عند مروري بجزيرتي Laute & Latalouie سأتمكن من إصدار الأوامر إلي سفن الإغارة بعدم ملاحقة السفن المصرية الصغيرة إذا صادفت خلال رحلتي سفينة الإغارة التي قام سفيرنا في Floreus بتسليمها لحساب الوزارة سأصطحبها معي وأحملها بالمؤمن وأرسلها إلي أحد الموانئ الإيطالية التي يكون قد تم تحديده لي.

سان بيتر سبورج 7 فبراير 1788

**Conrad Tonus**

قنصل عام في مصر و Mayor

❋❋❋❋

## ملحق رقم (6) ترجمة لرسالة المذكور Youssef Fakir إلي الترجمان Olivier في الإسكندرية بتاريخ 22 مارس 1789

بالإشارة إلي معلومات وصلتني من مصادر مختلفة، أعتقد أنه بإمكانكم التواجد في Trieste في حالة تعرض حياتي لأي خطر أرجو أن يصلكم كتابي هذا بسلامة. لا يمكنني أن أمنع نفسي من الكتابة لكم مع إنني أعرض نفسي لخطر جسيم إذا ما تم إعتراض رسالتي، لذلك حاولت تزييف الخط فيها حتي لا يكتشف الأمر لأنها تتعلق بشؤون علي أقصي درجة من الأهمية. في كتمان تام جاءني منذ أيام رجل ثقة إبراهيم ومراد بك اللاجئين حالياً في مصر العليا عند الشيخ الأمام كان مزوداً بأمر إبلاغي بأكفارهما شفوياً. لقد تجنبا الكتابة خوفاً من أن يكتشف أمرهما. مع أن هذا الرسول لم يكن يتذكر إسمكم إلا أنه تمكن تماماً من أن يفهمني بأن إبراهيم بك يود أن يكون بجواره نفس الترجمان الذي هيأ له إبان إقامته في الإسكندرية سنة 1776 فرصة شراء أربعة قطع مدفعية وبعض الأسلحة الأخري من قبضان إنجليزي بعد أن قمتم بالترجمة له. تعرف عليكم بهذه المناسبة ومن بعدها صاحبته طوال فترة إقامته بالإسكندرية. ووفقاً لتأكيدات الرسول فإنه علي ثقة كبيرة بكم لأنه يعرف تماماً قدراتكم وتمكنكم من اللغتين التركية والعربية الأساسيتين في مصر. لذلك فإن البكوين كلفاني بأن أخطركم بأنهما يودان الحصول علي بعض المساعدات ن أحد دوانين الإمبراطورتين اللتين هما في حرب الأن مع الباب العالي أو من كليهما معاً حتي يتمكنا بهذه المساعدة من دخول القاهرة والإحتكام من جديد علي المملكة جميعها ويؤكدان أنهما نظير معونات ضئيلة سيقومان بتحريض جميع قطاع الطرق العرب في الصحراء علي تهديد إستقرار مصر كلها ومنع خروج الكميات الهائلة للمنتجات والمؤن المصدرة يومياً إلي القسطنطينية وأنهم أيضاً سيقفان عائقاً أمام مرور القافلة المتجهة إلي مكة أما في

الوقت الحالي وما هي إلا قلة الحيلة فقط التي أجبرتهما علي التعامل مع إدارة القاهرة. أما إذا قبلت إحدي الدول بتزويدهم بالمساعدات فلن يترددا في أخذ السلاح وفي حالة ما إذا كللت عملياتهما بالنجاح واستقرا في القاهرة من جديد فإنهما يعدان القوة التي قامت بمساعدتهما بأكبر المكاسب لأن إعترافهما بالجميل سيكون بلا حدود. ولدي رسول البكوين أوامر بالبقاء هنا حتي إستلام ردكم. لذا أرجوكم بإيفادي بهذا الرد بأسرع وقت ممكن حتي أتمكن من صرفه. فهو يقيم هنا علي نفقتي لأنني مجبر بالإعتناء به إكراماً لأسيادي. ولا حاجة لي بالتعليق علي المكاسب التي يمكن أن تنجم عن مثل هذه العملية. وحيث أن لكم خبرة كاملة بمصر يمكنكم أن تروا كل المكاسب الناجمة عن هذه العملية وتعرضوها علي صاحبة الجلالة وتعملوا أقصي ما في وسعكم لإنجاز هذه المأمورية بأسرع وقت ممكن.

**رقـم 2**

**الرد من** Trieste **بتاريخ** 18 **يونيو** 1789

وصلني اليوم كتابكم بتاريخ 16 مارس واستوعبت كل محتواه. لا يمكنني في الوقت الحاضر إلا إخطار البلاد الأمبراطوري بما تعرضوه علي. أنا مسافر خصيصاً إلي روسيا لأقوم بعرض الأمر عليهم بنفسي وبأحسن الطرق. في أثناء ذلك يمكنكم صرف الشخص طرفكم وإعطاء أصدقائكم الأمل وتشجيعهم علي الصمود حتي يصلني الرد علي مقترحاتهما آملاً أن يكون ملائماً لهما. أعلم تماماً مدي أهمية الموضوع وكم من المكاسب يمكن أن تجنيها من وراءه. ولن أنسي أن أبرز كل هذا أمام الديوان الإمبراطوري وفي حينه سأخطركم بالنتيجة.

**Olivier**

**رقم 3**

**قائمة بالبكوات الموجودين في مصر في الوقت الحالي:**

- إبراهيم بك شيخ البلد أو الحاكم العام لمصر كلها من مواليد Defils.
- مراد بك شريف أو قائد قافلة مكة من مواليد Defils.

- قاسم بك من الأقاليم البحرية في مصر من مواليد Batimouti في روسـيـا الصغري وكان إسمه من قبل Simon Kirilovitch Boutihenlioff.
- سليمان بك حاكم الدلتا أمير چيورچى من مواليد Deflis.
- عبد الرحمن بك أخو سليمان بك.
- عثمان بك حاكم إسنا مدينة محصنة تفصل بين مصر العليا ومصر السفلي من مواليد Georgia.

# ملحق رقم (7) سموكم

شجعني كرمكم معني ورعايتكم لي علي عرض أفكاري أمام سموكم.

ستضطلعون فخامتكم من خلال تقريري الموجه إلي الديوان الإمبراطوري والمرفق طيه علي تعاملاتي في مصر وقد خرجت منها بكل الشرف الذي يستحقه شخصي.

لا أخشي أنني أكون قد تماديت في القول حينما أكدت أن عدوي Captian Pacha والذي يكون قد ترك الإسكندرية الآن بعدما أصبته بأقصي أذي ممكن فشل وهو مزود بعدد 18 سفينة حربية، 30 سفينة Idroites, 200000 من الخيل في جميع عملياته حتي إضطر إضطراراً إلي إبرام إتفاقيات السلام خزيه للباب العالي. في الحقيقة لم أكن أحتكم إلي تعليمات للتصرف علي هذا النحو لكنني أيقنت أنه من مصلحة وطننا أن أقوم بإيذاء الأتراك إلي أقصي حد وبدون إقحام الديوان الإمبراطوري الأعظم.

تصبح مصر إقليماً مستقلاً العدد الأكبر من البكوات والمماليك من الرعايا الروس كما أن ابراهيم من مواليد Deflis.

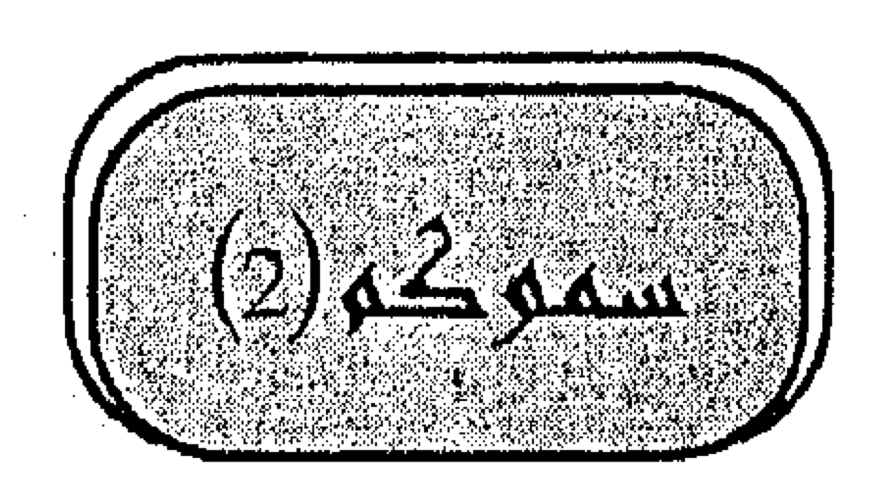
ميناء الإسكندرية أفضل موانئ البحر الأبيض المتوسط علي الإطلاق حيث سيرحبون بسفننا أحسن الترحاب، ويستحيل وصف العداء الموجه الآن ضد الأتراك. وفيما يخصني شخصياً فأنا علي أتم الإستعداد للذاهاب إلي الإسكندرية عندما تقررون جلالتكم أن الوقت أصبح مناسباً لذلك أو الإشتراك في أي حملة عسكرية تقررون أنني أهل لها. تحثني رغبتي في التقدم والوصول إلي درجات التميز علي القيام بأي عمل من شأنه إفادة بلدي وأنا بكل طاعة في إنتظار أوامركم.

**وإذ تفضلوا سموكم بقبول**

Livorne يوم 5 نوفمبر 1789

الخادم الخاشع والمطيع

**Conrad Tonus**



في الثامن الشهر الجاري وصلت من الإسكندرية سفينة حاملة لي رسائل تخطرني بأنه بعد مغادرة Capitan Pach وصل إلي الإسكندرية كل منها إبراهيم ومراد بك حيث أمروا القاضي بالإعتناء بقنصليتي وبكل ما كنت تركته في منزلي.

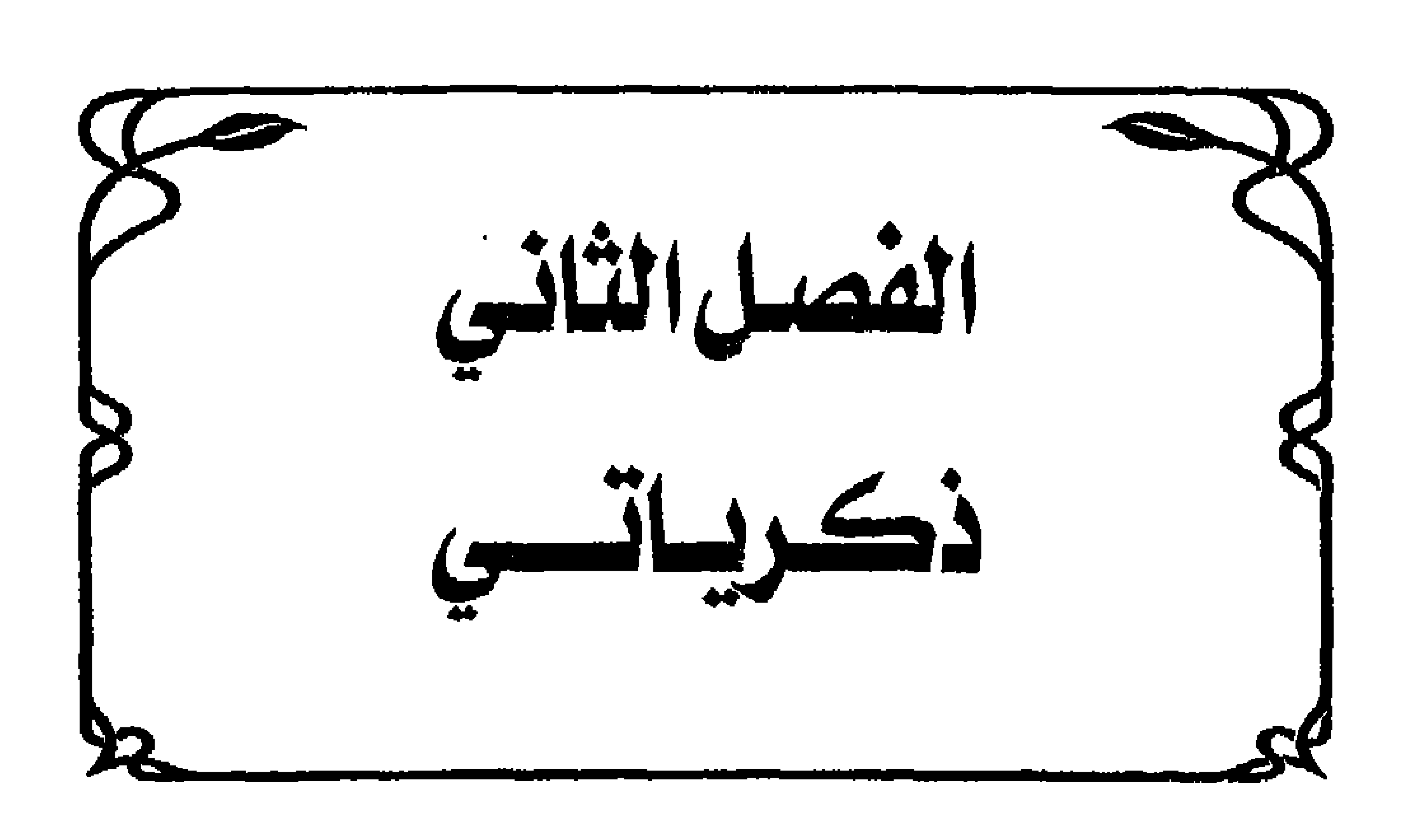
الأوروبيون متخوفون جداً من وجود رئيس مصر بينهم لأنهم كانوا قد قاموا بتوجيه الإتهامات لهما وهم الآن متخوفون من أن يطردوا من الإسكندرية.

أمرني وزيرنا كونت Moncenigo بأن أعرض عليه مراسلتي مع وزيرنا في القسطنطينية وبعد الإطلاع عليها فإنه قام بسداد مبلغ وقدره 2934 ايسكو إمبراطوري إلي القبطان النابوليتاني كمصاريف نقلي ومصاريف الكارنتبية. كما أنني وقعت له علي كمبيالة (إيصال) للمجمع الإمبراطوري بمبلغ وقدره 3211 روبل و65 كوبك فسمحت لنفسي بأن أنبه بأن قيمة الكمبيالة تزيد عن القيمة الأصلية بما قدره 200 روبل فأجابني بأن ذلك قيمة الصرف والفائدة. في تقريري إلي ديوان الخارجية والمرفق منه نسخة طبق الأصل، ستري معاليكم (سموكم) أن إبراهيم بك أهداني بمهرة عربية رائعة طالباً مني أن أتصرف بها علي أحسن وجه.

وأعتقد أن إهدائها إلي معاليكم وتقديمها عنكم إلي السمو الإمبراطوري الدوك الأعظم يعتبر أحسن إستعمال لتلك المهرة. لم يسبق أبداً أن تكون مهرة عربية مثل هذه المهرة قد خرجت من مصر لهذه المهرة أرجل دقيقة وعينان جميلتان وشعرها رمادي لون الحديد.

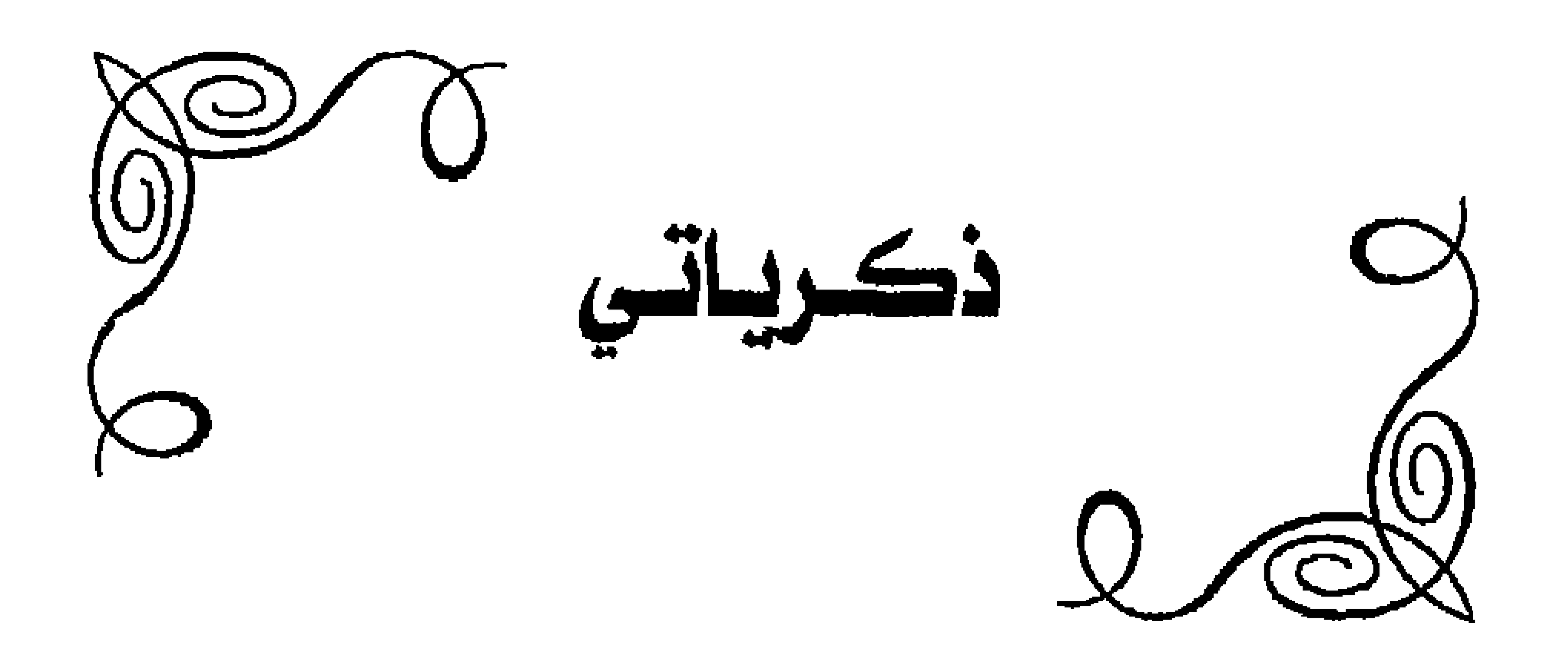
أما مراد بك فقد أهداني بسيف بديع وأرجو من فخامتكم التصرف فيه ويليق بهذا السلاح أن يحمله أحد المارشالات.

وإنني بكل طاعة في إنتظار أوامركم كما أنني لي الشرف أن أكون خادم سموكم



# الفصل الثاني

# ذكرياتي



# ذكرياتي

**• مقدمة:**

كان من المحتم عليّ كتابة هذه المقدمة التي تضم ذكرياتي عن تلك الفترة من حياتي حتى ولو كانت تلك المقدمة موجزة.

**أولاً:** لمرور فترة ليست بالقصيرة على تلك الأحداث التي سردتها في هذا الكتيب وكان من الطبيعي نسيان الكثير من تفاصيل هذه الأحداث.

**ثانيًا:** إن تلك الأحداث التي لازلت الآن أتذكرها قد مضى عليها زمن طويل وإلى حد ما تم تشويهها للعديد من الأسباب المختلفة. من هنا ظهرت ضرورة إحياء هذه الأحداث في ذاكرتي وإزالة ما شابها من تشوهات، ثم تحديثها مع الاحتفاظ بصورتها الماضية الواقعية.

تعتبر الذكريات والتأملات في أحداث الماضي شيئًا ذاتيًا محضًا. يجب ضوع ذلك في اعتبارنا. ولكن على الرغم من أن هذه المذكرات تحمل طابعًا شخصيًا فهي ضرورية ولازمة للفهم الأفضل للتاريخ. وذلك لأن التاريخ ما هو إلا تفاعل سلوكيات الأفراد على مختلف المستويات سواء الحكومية إم الجماعية أم الفردية... إلى غير ذلك من المستويات. لذلك فإن ذكريات حتى أفراد الواحد لها دور فعال لا يستهان به في استكمال المادة المجمعة والمنشورة في موضوع معين.

في كتابي هذا يدور الحديث عن التعاون السوفييتي ـ المصري العسكري المتعدد الجوانب، كما يثير أيضاً لدى القرئ الأفكار لتتبع دراسة هذا الموضوع والتعمق في التفكير فيه.

يعتبر هذ الكتيب جزءاً لا يتجزأ من كتاب مذكرات السوفييت المشاركين في

الأعمال الحربية في مصر وفي الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. وقد ظهرت مذكرات هؤلاء العسكريين السوفييت لأول مرة على شكل كتاب في عام 1997، بعد عام واحد من زيارة وفد المحاربين القدماء السوفييت للقاهرة تلبية لدعوة رجل الأعمال المصري المعروف السيد/ إبراهيم كامل، الذي ربط مصالحه الاقتصادية والتجارية والاجتماعية بروسيا فهو نائب رئيس جمعية أصدقاء روسيا في جمهورية مصر العربية. وبعد مرور حوالي عام صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب بعنوان «رفع الكود» سري جداً..وفي عام 2001 خرجت إلى النور الطبعة الثالثة من هذا الكتاب التي حوت تسعة وعشرين مقالة قام بكتابها عدد كبير من السوفييت الذين عاشوا تلك الفترة على مختلف المستويات بدءاً من السيد/ فلاديمير فيناجرادوف نائب وزير الخارجية السوفييتي والسفير السوفيتي بالقاهرة وعدد من كبار الجنرالات السوفييت إلى أصغر رتبة في القوات المسلحة السوفيتية التي كانت متواجدة في مصر للمشاركة في صد العدوان الإسرائيلي. كانت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب تحمل عنوان «... حينئذ في مصر» وقد اشتركت بإحدى مقالاتي التي نشرت في هذه الطبعات الثلاث.

لقد أسست هذا الكتيب على تلك المقالة مع عمل بعض الإضافات الجوهرية لها وفي الوقت ذاته أزالت التفاصيل الغير لازمة منها.

يدور الحديث هنا على وجه العموم عن تواجدي في مصر للعمل كمترجم عسكري سوفييتي في الفترة من 26 أغسطس من عام 1969 حتى 26 أغسطس من عام 1971.

أ.د. جينادي جارياتشكين

الأسكندرية - صيف عام 2003

في شهر يونيه من عام 1969 وبعد إنتهائي مباشرة من أداء إمتحانات التخرج في معهد اللغات الشرقية (الذي أصبح يعرف في الوقت الحالي باسم معهد بلدان آسيا وأفريقيا) التابع لجامعة موسكو المسماة باسم لومونوسوف، حيث كنت أدرس هناك منذ عام 1963 اللغة العربية وغيرها من المواد المرتبطة بتاريخ وثقافة وحضارة الدول العربية، تم استدعائي لأداء الخدمة العسكرية في صفوف الجيش السوفييتي. أصبح من الواضح الجلي أنني سأقضي مدة الخدمة العسكرية كمترجم عسكري للغة العربية وتاريخ، فقد كان تخصصي المبين في الشهادة الجامعية التي حصلت عليها هو: «اللغة العربية وتاريخ البلدان العربية». لم يكن عندي أدنى شك في أنه سيتم إرسالي إلى إحدى الدول العربية للعمل هناك كمترجم عسكري، ذلك لأن الوضع في الدول العربية بمنطقة الشرق الأوسط كان قد بلغ أقصى درجات الاضطراب وكانت «حرب الاستنزاف» تدور رحاها في جميع أنحاء جمهورية مصر العربية.

لقد تم استدعائي لأداء الخدمة العسكرية بالجيش في أوائل شهر يوليه. ومنحت رتبة عسكرية بدرجة ملازم. كما حصلت على إجازة قضيتها مع والديّ في منطقة ايركوتسك بالقرب من بحيرة بايكال الواقعة في شرق سيبيريا. لقد كنت احتفظ بخبر استدعائي للسفر إلى إحدى الدول العربية عن طريق وزارة دفاع الاتحاد السوفيتي في طي الكتمان، حيث أخذوا عليْ تعهد والتزام كتابي بعدم إفشاء هذا السر العسكري. لكن والداي كانا يعرفان بالطبع عن تلك المهمة التي كانت تنتظرني وكانا يعانيان من جراء ذلك كثيراً فقد كنت أنا ابنهما الوحيد الذي لم ينجبا غيره. وقد أصاب الحزن العميق والدتي على وجه الخصوص التي كانت تعمل مدرسة بإحدى المدارس الابتدائية. أما والدي فكان متماسكًا ومتمالكًا أعصابه إلى حد كبير بالنسبة لما كانت تعانيه والدتي، نظراً لأنه كرجل فهو أكثر تحملاً، كما أنه قد اشترك في القتال في الحرب الوطنية العظمى، حيث أصيب بالصمم.

مرت أيام الأجازة مروراً سريعًا غير ملحوظًا. وفي أوائل شهر أغسطس كنت في موسكو تحت أمر وتصرف هيئة الأركان العامة. وكان قد تم تحديد البلد الذي سيتم

إرسالي إليه. وحيث أنني قد أنهيت داستي بمعهد اللغات الشرقية في المجموعة التي تدرس اللغتين العربية والفرنسية بهدف العمل فيما بعد في بلاد المغرب. لذا فقد كان من المتوقع أن أسافر إلى الجزائر كمترجم عسكري، حيث كان يعمل انلخبراء والمستشارون العسكريون السوفييت هناك منذ سنوات عديدة. بالإضافة إلى ذلك فقد كنت على علم بأن كبير المستشارين العسكريون السوفييت في الجزائر كان قد طلب منذ فترة طويلة إرسال أحد المترجمين العسكريين إلى الجزائر الذي يجيد إجادة تامة اللغتين العربية والفرنسية. ولما كان عدد هؤلاء المتخصصين في بلدنا في ذلك الوقت قليل جداً يعد على أصابع اليد الواحدة. عندئذ رفضت هذا العرض. وقد حاولوا اقناعي ـ على ما اتذكر ـ لمدة ثلاثة أو أربعة أيام لكن دون جدوى. ولا أستطيع أن أجد سببًا حقيقيًا وراء رفضي السفر للعمل في الجزائر على ساحل البحر الأبيض المتوسط التي كانت تتمتع بالهدود والسكينة، بينما اصررت على السفر إلى مصر حيث كانت الأوضاع غاية في الاضطراب، فهناك تراشق بنيران المدفعية عبر قناة السويس، بينما تقوم الطيارات الحربية بطلعات جوية متكررة وكذلك كانت قوات السلاح البحري تؤدي بنشاط دورها الفعال في هذه الحرب.

لقد توصلت إلى معرفة سبب اتخاذي هذا القرار، وهو أنني عندما كنت طالبًا بالمعهد وكنت أؤدي فترة تدريبي على ممارسة اللغة العربية بمصر، تعرفت حينئذ على اللهجة المصرية عن قرب وعقدت العزم على أنني بعد إنتهائي من أداء الخدمة العسكرية بالجيش سأقوم بكتابة رسالة دكتوراة عن هذا البلد.

وأخيراً ستطعت اقناع القائمين على عملية التسفير بهيئة الأركان العامة بأنه من الضروري إرسالي للعمل في مصر.

وأود أن استطرد هنا قليلاً كل يتفهم القارئ بصورة أكثر وضوحًا أسباب وبواعث مسلكي هذا ـ ألا وهو لماذا اخترت مصر بالذات كي أسافر إليها للعمل بها؟...

والذي حدث أنه قبل ذلك وبعد إنهائي السنة الدراسية الرابعة بالمعهد أرسلت إلى مصر في بعثة علمية تدريبية لرفع مستوى الكفاءة لمدة عشرة أشهر، حيث كان لابد لي من رفع مستوى كفائتي في معرفة اللغة العربية والتعرف على البلد وكذلك جمع كافة البيانات والمعلومات اللازمة لكتابة العمل العلمي للحصول على درجة الليسانس بالمعهد.

ولما كان لابد لي من قضاء مدة هذه الدراسة العلمية في مصر، لذا فقد كان موضوع العمل العلمي الذي كان يجب عليّ أن اكتبه للحصول على درجة الليسانس بالمعهد يتعلق بتاريخ هذا البلد وفحواه: «الوضع الاقتصادي لطبقة العمال بجمهورية مصر العربية».

وفي اعتقادي أنه لا حاجة لي لشرح السبب في اختياري هذا الموضوع بالذات عن طبقة العمال. فلقد كانت مشاكل الصراع الطبقي وطبقة العمال وغيرها من المواضيع المتعلقة بالطبقة العاملة في المجتمع تعتبر في ذلك الوقت مواضيع حديثة جديدة مواكبة للعصر وأحداثه ومشاكله. علاوة على ذلك فإن المشرفة على رسالتي العلمية الدكتورة/ أتسامبا كانت قد كتبت رسالة علمية فيما مضى عن وضع العمل المصريين قبل ثورة يوليو عام 1952. لذا فقد كان يتعين علي أن استكمل بدوري هذا العمل الذي بدأته مشرفتي العلمية. بالنسبة للوضع في مصر في ذلك الوقت، فإن طبقة العمال كانت تشغل مكانة مرموقة في المجتمع المصري الذي كان آنذاك ينتهج المنهج الاشتراكي وكانت تلعب دوراً هامًا في سياسته الداخلية. ويكفي أن نذكر أن نسبة 50٪ من أعضاء مجلس الشعب والاتحاد الاشتراكي العربي كانوا من ممثلي العمال والفلاحين، وكذلك في منظمة الشباب الاشتراكي وسائر المنظمات الاجتماعية الأخرى. وخلال فترة مهمتي العلمية الطلابية عن طريق وزارة التعليم العالي بالاتحاد السوفييتي قمت بجمع مادة علمية جيدة وغزيرة لاستخدامها في كتابة العمل العلمي اللازم للحصول على درجة الليسانس بالمعهد. وقد وضعت هذه المواد العلمية حين عودتي إلى موسكو في عشرين صندوق.

كانت فترة تواجدي بمصر ابتداء من شهر نوفمبر 1967 وحتى أغسطس 1968 هي المرة الأولى في حياتي التي أتواجد فيها خارج وطني. حقًا أن البلد الأجنبي الأول الذي يسافر إليه المرء كالحب الأول في حياته. ولم أكتف فقط بكتابة العمل العلمي لنيل درجة الليسانس عن مصر، بل وفيما بعد كتبت أطروحة لنيل درجة الدكتوراة عن: «تكون طبقة البلوريتاريا بالمعامل والمصانع بجمهورية مصر العربية والوضع المادي لها (في السنوات من عام 1952 وحتى عام 1970)». وقد دافعت عن أطروحتي بنجاح في عام 1975. وفوي عام 1996 أنهيت كتابة رسالة الدكتوراة للدولة ودافعت عنها بنجاح وكان موضوعها عن: «تكوين الطبقة العمالية في مصر في ظروف التحديث الاستعماري (في الفترة من عام 1841 وحتى عام 1914)».

وبعد إنتهاء اجازتي حضرت إلى القاهرة في 26 أغسطس عام 1969. ومن خلال باب الطائرة المفتوح أحسست بحرارة جو شهر أغسطس الشديدة. لم تستغرق إجراءات الجمارك بمطار القاهرة الدولي وقتًا طويلاً. فلقد كان طريق العسكريين السوفييت إلى مصر في تلك الأيام ممهداً ومنظمًا وبلا أية تعقيدات تذكر. استقبلنا أحد موظفي هيئة أركان كبير المستشارين العسكريين وهو الجنرال كاتيشكين الذي حجز لنا أماكن في أحد الفنادق المتواضعة وهو فندق «سعود-2» بحي مصر الجديدة بالقاهرة بالقرب من مستشفى هيليوبوليس. وهذا المبنى في الوقت الحالي لا أثر له، حيث كان يعد مسكنًا مؤقتًا للمترجمين السوفييت القادمين للعمل في مصر. ثم بعد ذلك كانوا يوزعون للإقامة في أماكن سكنية أخرى وبصفة أساسية كانوا يقيمون في مجمع الفنادق «نصر سيتي» بمدينة نصر. وكان يعيش معنا في نفس الفندق خبراء عسكريون سوفييت حضروا إلى مصر للعمل لفترة قصيرة. لازلت اذكر حتى الآن أربعة من بينهم كانوا يدربون الجنود والضباط المصريين على كيفية استخدام القذيفة المضادة للدبابات التي تعرف باسم «مالوتكا».

كان الفندق الذي نزلنا به فور وصولنا إلى مصر عبارة عن مبنى صغير يتكون

من ثلاثة أو أربعة طوابق ويقع بالقرب من حمام سباحة. وفي الليلة الأولى لمجيئ للفندق سمعت بالصدفة حواراً قصيراً دار بين اثنين من المصريين، حيث سأل أحدهما الآخر: «عائلات؟» فأجابه الآخر: «لا، عزاب». هذا يعني أننا نعيش في فندق «سعود-2» للرجال العزاب، أما في فندق «سعود -1» فقد كانت تعيش العائلات، كما كان يوجد به أيضاً مكتب الرائد البرديسي. كان الرائد البرديسي ممشوق القوام، حسن المظهر وكان معروفاً بالحزم والدقة والنظام والدرجة العالية من الفكر والثقافة، وقد رقيّ فيما بعد إلى رتبة مقدم. كان يرأس قسم «الخدمة الروسية» الذي كان يتبع وزارة الحربية المصرية. ويدخل في حدود اختصاصه تنظيم إقامة وتسكين العسكريين القادمين إلى مصر من الاتحاد السوفييتي، وتوفير كافة الخدمات اللازمة لهم والحراسة وغير ذلك.

أقمت بعض الوقت في فندق «سعود -2» في انتظار تعييني وتحديد وظيفتي. بالإضافة إلى ذلك فلم يكن هناك مكانًا خاليًا في فنادق مدينة نصر. وبعد مرور حوالي أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخبرني جيورجي ريئوتسكي - رئيس مكتب الترجمة بهيئة أركان كبير المستشارين العسكريين السوفييت بأنني سأعمل كمترجم أول بفرقة المشاة الميكانيكية الثالثة التابعة للمنطقة العسكرية المركزية المرابطة على بعد حوالي عشرين كيلومتراً في طريق القاهرة - الإسماعيلية. وبعد فترة قصيرة حضر فيكتور جافريلوفيتش ستوبين - كبير مستشاري الفرقة إلى مكتب الترجمة، حيث كنت قد قمت بعمل عدة تراجم تحريرية مع زملائي من المترجمين أمثال: فاليري فجنيفتس من منطقة جبال الأورال، يوري ليباكين من مدينة كييف، نيكولاي لوكاشونك من مدينة كييف، نيكولاي لوكاشونك من مدينة مينسك. وقد تم إخلاء سرير لي كان يخص أحد المستشارين العسكريين السوفييت الذي استشهد قبل ذلك بفترة وجيزة نتيجة لقصف طائرات «الفانتوم» الإسرائيلية. كانت الشقة التي عشت فيها تتسع لإقامة أسرة متوسطة العدد، وهي مكونة من حجرتي نوم وحجرة طعام وصالة. فنقلنا إلى هناك حيث عشنا كل اثنين في حجرة فقد كنا ثمانية أفراد.

كان هذا المستشار العسكري السوفييتي الذي استشهد أثناء القصف الإسرائيلي هو ثالث ضابط سوفييتي يستشهد خلال غارات العمق الإسرائيلية. لقد أدى هؤلاء الشهداء الثلاثة واجبهم العسكري على أكمل وجه كمستشارين عسكريين لقائدي كتائب المدفعية المصرية المضادة للطائرات التي كانت تحمي كتائب الصواريخ المضادة للطائرات. ففي ذلك الحين كانت «حرب الاستنزاف» التي أعلنها الرئيس جمال عبد الناصر ضد إسرائيل قد دخلت مرحلة جديدة حاسمة. فبعد تبادل اطلاق نيران المدفعية عبر قناة السويس عمدت القوات الجوية الإسرائيلية إلى تدمير وسائل الدفاع الجوي المصري بصورة مخططة. في البداية في منطقة قناة السويس ثم بعد ذلك داخل البلاد. ومما كان يحز في نفسي أن جاري في الحجرة التي كنت أقيم فيها وهو رائد مستشار قائد كتيبة المدفعية الجوية بمنطقة الدلتا كثيراً ما كان يشير إلى نفسه مردداً أنه سيكون الضحية التالية....

بالنسبة لي فقد كانت هذه المرة الأولى التي اتعرض فيها لمثل هذه الأحداث المروعة وهي سقوط الناس صرعى وقتلى خلال المعارك الحربية فقد كانت معرفتي بالحرب وما تجره على البشرية من ويلات معرفة قاصرة محدودة لا تتعدى ما كنت قد قرأته عنها في الكتب وما شاهدته في الأفلام السينمائية وما كان يقصه عليّ والدي من واقع مشاهداته على جبهة القتال حيث كان يقوم بواجبه نحو وطنه خلال الحرب العالمية الثانية. والحق يقال فإن الوضع كان غاية في السوء. فحتى الهواء المنبعث من المروحة الكهربائية القوية لم يستطع أن يخفف من شدة حرارة ولا رطوبة الهواء أو أن يبعد عن خاطري تلك الأفكار السوداء المقيتة من أنني أنام على نفس السرير الذي كان ينام عليه المستشار العسكري السوفييتي الذي لقي حتفه أثناء القصف الإسرائيلي منذ فترة وجيزة. هذا بالإضافة إلى أنني قد اشتركت في إعداد قائمة بمتعلقات وأشيائه الشخصية وتم إرسالها إلى موسكو. في هذه الأسام كثيراً ما كانت تراودني أحلام مفزعة تقلقني وتقضي عليّ مضجعي فكنت أرى نفسي مصابًا في قدمي أهرب أو بصورة أدق أزحف هاربًا من أحد معسكرات الاعتقال والتعذيب الإسرائيلية تحت الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسكر بينما اسحب

معي إحدى الفتيات.

كانت قـوات الفرقـة الثلاثة الآلية ترابط في منطقة الهايكستب، حيث كانت تتواجد هناك ثكنات جيش الاحتلال الانجليزي قبل قيام الثورة المصرية في عام 1952. لذا ففي صباح كل يوم كنا جميعًا المستشارين العسكريين والمترجمين السوفييت ننتقل بواسطة ميكروباص أزرق اللون إلى منطقة الهايكستب ثم نعود في المساء إلى مدينة نصر. كان يقوم معي بأعمال الترجمة مترجمان آخران يجيدان اللغة الإنجليزية حضروا من الاتحاد السوفيتي وبعض المصريين الذي أتموا في القاهرة فصلاً دراسياً لتعليم اللغة الروسية مدته ستة أشهر.

ووفقًا للتصريح الذي أدلى به الجنرال شوكين - نائب كبير المستشارين العسكريين السوفييت بالقسم السياسي - في أحد الاجتماعي التي ضمت جميع المترجمين العسكريين السوفييت، الذين كانوا يعلمون آنذاك في كل أنحاء مصر، فقد وصل عدد هؤلاء المترجمين إلى حوالي 500 مترجم. وكان عدد المترجمين العسكريين السوفييت الذين يجيدون اللغة الإنجليزية يفوق عدد الذين يجيدون اللغة العربية. من بين المترجمين السوفييت الذين يتحدثون اللغة العربية كان هناك طلبة أنهوا الفصل لادراسي الثاني بالمعهد العسكري للغات الأجنبية وحضروا إلى مصر لقضاء فترة تدريبية بها. لقد حضر زملائي من المترجمين السوفييت من أماكن عديدة مختلفة: من أوزبكستان، أذربيجان، أوكرانيا، أرمينيا، موسكو، ليننجراد، من ضفاف نهر الفولجا وشمال القوقاز وغيرها.

وقد وقع العبء الأكبر في أعمال الترجمة على عاتق المترجمين السوفييت المتخصصين في اللغة العربية وعلى وجه الخصوص هؤلاء الذين كانوا على علم ودراية من قبل باللهجة المصرية. لم تمح من ذاكرتي حتى يومنا هذا أعمال الترجمة الشفهية الفورية التي كنت أقوم بها أثناء التدريبات العسكرية العملية لجنود وضباط الجيش المصري وكذلك خلال الاجتماعات المختلفة التي كانت تعقد بصفة دورية منتظمة. وهكذا فقد كنا نقوم بترجمة فورية. كان معظم المستشارين والخبراء

العسكريين السوفييت يتفهمون تمامًا وضع المترجم العسكري باعتباره مهندس حديث التخرج يحتاج إلى تهيئة وإعداد في مجال الإنتاج الصناعي لفترة اختبار معينة. لكن لم يكن هناك وقتًا كافيًا لذلك فلقد تطلب الوضع المشتعل بدء العمل على وجه السرعة بالرغم من صعوبة اللهجة العامية المصرية. وعلى الرغم من وجود بعض المعوقات والصعوبات عند الترجمة فإن المستشارين ومن يعملون معهم من المصريين كانت علاقتهم بنا علاقة جيدة. لقد كانت أعمال الترجمة تتم صباحًا ومساءًا، داخل الخيمة وفي الصحراء، في العراء أو داخل السيارة الجيب أثناء التدريبات العسكرية في التراب والرمال المريعة. لقد كان الواجب يحتم علينا العمل في مختلف الظروف والأحوال فعملنا ضمن كتيبة دبابات ومع أفراد لواء المدفعية وكتيبة ناقلات وغيرها. بل إنه يحضرني الآن أني قد قمت أيضًا بالترجمة في مكتب قائد الفرقة في نفس الوقت بينما كان يتم قصف لواء دبابات مجاور لنا ومستقل عنا بالقنابل. وعندما سمعت أصوات سقوط قنابل مدوية، كنت أول فرد يندفع من خلال الباب وقفزت في الحال في خندق على شكل برميل يقع على مسافة حوالي عشرة أمتار من المبنى الذي كنا فيه. تبعني إلى هذا الخندق أحد الجنود الذي قفز ورائي في الخندق فهوى على ظهري بشدة بحذائه الضخم المطعم بالحديد. وبعد مرور عدة دقائق عاد الهدوء إلى المكان مرة ثانية فرجعت إلى مكاني. شعرت بالخجل والحرج الشديدين أمام قائد الفرقة ورئيس الأركان والسيد/ ستويين الذين ظلوا جالسين بهدوء على مقاعدهم ولم يصبهم الذعر أو الهلع. أما أنا فكنت الوحيد الذي هرعت من المكان وكأن الريح طيرتني. اعتقد أنه كان من الأفضل لي أن أجلس معهم بدلاً من الألم الذي عانيت منه في ظهري نتيجة سقوط الجندي عليّ في الخندق بحذائه المطعم بالحديد.

وبهذه المناسبة فإن الحيطة والحذر دائمًا ما كان سببًا في إنقاذ المترجمين الشبان من الخطر المحدق بهم. يكفي أن أذكر هنا حدثين من هذا القبيل. أحدهما حدث في منطقة الدلتا في كتيبة مدفعية مضادة للطائرات، فما أن بدأ قصف القنابل حتى أسرع المترجم تاركًا مركز القيادة، أما المستشار العسكري السوفييتي وقائد

الكتيبة فقد ظلا في مكانهما ولم يغادراه، كي يستعرضا هدؤهما وعدم اكتراثهما بما يحدث حولهما، وما هي إلا بضعة لحظات حتى سقطت عليهما إحدى القنابل أودت بحياتهما معًا. بينما ظل المترجم على قيد الحياة.

أما الحدث الثاني المماثل له فقد وقع لكبير مستشاري إحدى الفرق التابعة لأحد الجيشين الميدانيين المصريين اللذان كانا يرابطان على طول جبهة قناة السويس. فبينما كان عائداً إلى فرقته على جبهة قناة السويس بعد إجازة لمدة يومين، التي كانت تمنح عادة في يومي الجمعة والسبت توقفت السيارة التي كانت تقل القائد فجأة في الطريق. من الممكن أن يكون السائق قد أحس بوجود خطر ما، أو يكون قد سمع أصوات انفجارات أمامهم. على وجه العموم ليس هذا هو المهم. المهم أن ذلك قد حدث في منتصف الطريق إلى القنال. فالمدفعية الإسرائيلية لم تتمكن من الوصول إليهم في هذا المكان من الضفة الشرقية لقناة السويس. مهما يكن الأمر فما أن توقفت السيارة حتى أسرع المترجم خارجًا منها وانبطح على الأرض وغطى رأسه بيديه من شدة الخوف والهلع، أما العقيد فقد وثب من السيارة متمهلاً على غير عجلة وأخذ يهز رأسه في لوم وعتاب آخذاً على المترجم جنبه وشدة خوفه. وهنا سمع في التو واللحظة صوت انفجار صاروخ. لم يصل المترجم بأى سوء، بينما أطاحت إحدى الشظايا بنصف رأس العقيد.

أما أصعب أنواع الترجمة فكانت تلك التي تتم أثناء تدريبات الأركان والقيادة على مستوى الفرقة والجيش. كان يشترك فيها غالبًا المترجمون السوفييت المستعمرون من ذوي الخبرة الذين يجيدون اللهجة المصرية إجادة تامة فهما وتعبيراً، فذلك النوع من الترجمة كان يختلف اختلافًا تامًا عن الترجمة أثناء إجراء المباحثات والمداولات بين المستشارين العسكريين السوفييت والضباط المصريين العاملين معهم، ففي هذه الحالة يمكنكم الترجمة بهدؤ وروية. وبهذه الكيفية أيضًا كان يدور أي حوار أو مناقشة.

كان شرح وتحليل هذه التدريبات يتم عادة في مكان واسع فسيح، حيث كان

يحضر بضعة عشرات من الأفراد على أقل تقدير. يبدأ قائد الفرقة أو قائد الجيش أو أحد القواد العسكريين من ذوي الرتب العليا هذا الاجتماع الذي كان في البداية يسير بصورة منتظمة ثم تبدأ بعد ذلك المناقشات والمداخلات ويقاطع الضباط بعضهم البعض أثناء المناقشة وأحيانًا يتدخل السوفييت في هذا النقاش. وهذا كله يشكل بالنسبة للمترجم صعوبة بالغة، فعلى الرغم من كل هذه الصعوبات في الترجمة فإن المستشارين كانوا يريدون فهم ومتابعة كل ما يدور في هذا الاجتماع دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة، لذا فكثيراً ما كنت أحس بستوبين يلكزني بكوعه في جنبي يستحثني على ترجمة ما يدور من أحاديث ومناقشات. وعندما كنت أصمت قليلاً ولو لبضع لحظات كنت أحس بذلك بصورة أكثر وضوحًا مستفسراً مني وسائلاً إياي: «عن أي شئ يدور الحديث؟» فكنت أتابع ترجمة حديث ونقاش الجنرالات والضباط المصريين. هذا بالرغم من أن هذا الحديث قد يطول إلى الساعة أو الساعة والنصف أو الساعتين، بل وأحيانًا إلى الثلاث ساعات. كانت هذه التدريبات العسكرية وقتًا طويلاً قد يصل إلى الأربع أو الخمس ساعات على التوالي تتخللها بالطبع فترات راحة قصيرة لتناول بعض المشروبات كالشاي والقهوة والكوكاكولا.

كان الوضع في بعض الأحيان يصل إلى درجة عالية من الجدية، بل وأحيانًا يصل إلى حد معركة قتالية. أنا لا اتحدث هنا عن تلك التعقيدات الإضافية التي أوجدتها وسببتها «حرب الاستنزاف» التي اندلعت في شهر مارس من عام 1969. لذلك فكان يجب عليّ أن أبذل قصارى جهدي في ترجمة كل ما يدور غير منتظراً أن يلكزني أحد بكوعه مستحثًا إياي على مواصلة الترجمة دون أي توقف. لقد كانت ترجمة فورية حقيقية مضيئة، ليست كتلك التي استوجب الأمر سماعها في موسكو. ففي موسكو كان المترجمون يقومون بالترجمة الفورية في الاجتماعات التي كان يعقدها الحزب الشيوعي السوفييتي، والنقابات السوفيتية وغيرها من الاجتماعات والندوات الأخرى الاتحادية والدولية الهامة. وكثيراً ما كان هؤلاء المترجمون يقرأون نص الترجمة المعد فيما قبل ذلك، بينما كان الخطيب يلقي خطابه من فوق المنصة. وفي هذه الحالة كان من المهم أن تتزامن قراءة الترجمة المعدة مع

كلمات المندوب المتحدث فلا تسبقه ولا تتأخر عنه وتنتهي تمامًا مع نهاية حديثه. وبالطبع فقد كان المترجمون يقومون بالترجمة الفورية بصورة صحيحة دون إعداد مسبق في قصر المؤتمرات وقاعة الأعمدة في دار الاتحادات وغيرها. وإني أعرف الكثيرين من هؤلاء المترجمين وأكن لهم كل تقدير واحترام.

لكن تحليل وشرح التدريبات العسكرية كان يمتد إلى ثلاث أو أربع ساعات وأحيانًا إلى أكثر من ذلك. كان النقاش يشتد ويحتدم ويتحول إلى حوار ساخن ونتيجة لذلك تتراكم الأعباء على المترجم. لذا فقد كان يجب عليَّ تركيز كل اهتمامي على الترجمة التي كانت تتم في هذه الحالة بصعوبة بالغة.

إلى جانب ذلك فقد كان مثل هذا النوع من الترجمة يزداد تعقيداً وفقًا لظروف وملابسات أخرى متعددة منها على سبيل المثال: أن الكثيرين كانوا يجلسون على مسافة بعيدة عني، خلف الأعمدة وقد ولوا ظهورهم نحوي، كان هناك آخرون يعانون من عيوب في نطق بعض الحروف أو بصفة عامة يتحدثون بصوت منخفض غير مسموع، بينما كان البعض يتعمد أن يتحدث بصوت غير واضح وبصورة غير مفهومة لأنهم لا يريدون أن يسمعهم السوفييت العاملون معهم ويفهمون ما يقولون. فعلى سبيل المثال كانت أصوات الحروف العربية تنشأ وتموت في حنجرة قائد الفرقة الميكانيكية الثالثة السيد/ حجازي ولا يسمع منها شيئًا. فكانت الكلمات تسمع في الحلق وكإن هناك «خليط ما غير متجانس من الأصوات» أو غرغرة كتلك التي تصدر من الأجهزة الإلكترونية. وفي ههذ الحالة فإن لكز كوع السيد/ ستوبين في جنبي لا يمكنه أن يساعدني بأي حال من الأحوال. لكن على وجه العموم فإن السيد/ ستوبين كان ينتمي لفئة الأشخاص المتهمين: فكان يدرك كنه الموضوع ويلم بمضمون الشئ ويتعمق في جوهر المسألة من سيق الحديث ومن مجريات الأمور حوله، فقد كان يرى أن المترجم عاجز عن القيام بشئ ما حيال ذلك الوضع المعقد. لكن هذا التفهم لم يكن دائمًا متوفراً حتى لدى هؤلاء المستشارين أمثال فيكتور ستوبين. ففي بعض الأحيان كان المترجم يصبح مثل «كبش الفداء» سواء أكان

مـذنبًا أم غـيـر مـذنب حيث يحملونه نتـائج عـدم نجاح المباحـثـات التي دارت بين المستشارين والضباط المصريين العاملين معهم نظراً لعدم فهم بعضهم البعض الفهم الصحيح. لكن عدد هذه الخلافات ووقائع سوء الفهم بسبب أخطاء المترجمين كان قليلاً جداً.

استـمرت الهجـمات والغارات في العـمق فـقد كـان لابد من إنقـاذ الموقف. ثم جاءتنا أنباء عن إعادة تمركز الفرقة الميكانيكية الثالثة التي كانت تعتبر في رأي المتخصصين العسكريين أفضل فرقة في الجيش المصري على الإطلاق. وكان قائد الفرقة السيد/ حجازي - على حد تعبير الرئيس جمال عبد الناصر - يعبتر واحداً من أفضل قـواد الجـيش المصري العـسكريين. وكـان قـد تمت قـبل ذلك نقـل أحـد ألوية الفرقة إلى الجنوب. كان الهدف من إعادة التمركز هو توفير الحماية والأمن للقوات. لذا فقد اتخذت القيادة العسكرية والسياسية المصرية العليا قراراً بإعادة تمركز اللواء العاشر من فرقتنا ونقله إلى شاطئ البحر الأحمر بمنطقة سفاجا والغردقة وجمصة.

كان لهذا اللواء مهمة قتالية أخرى هي حماية والدفاع عن تلك المساحة الكبيرة البعيدة من ساحل البحر المصري الممتدة بمحاذاة خليج السويس والبحر الأحمر، حيث كانت القوات الإسرائيلية تقوم بهجمات تخريبية استفزازية من وقت لآخر. وقد استطاع الإسرائيليون القيام بالعملية العسكرية المعروفة باسم «الإغارة» بنجاح مستخدمين الدبابات السوفيتية الصنع التي استولوا عليها أثناء حرب الأيام الستة في عـام 1967، كما ارتدوا أيضًا الزي العسكري المصري وتمكنوا من أخذ محافظ البحر الأحمر في الأسر الذي كـان يقوم بعملية تفقدية بالمنطقة الواقعة على امتداد شاطئ البحر. وبهذه المناسبة فإني أذكر هنا أن الإسرائيلين قد استخدموا أيضًا هذا الأسلوب المخادعا ف تنفيذ بعض عملياتهم العسكرية بنجاح أثناء حرب أكتوبر عـــام 1973. فبعدت عملية عبور قناة السويس الناجحة التي قام بها المصريون واستيلائهم على خط بارليف الحصين بالضفة الشرقية للقناة، قام الإسرائيليون بعد

فترة قصيرة بعملية عسكرية مضادة رداً على ذلك تم فيها إنزال قوات إسرائيلية بالضفة الغربية لقناة السويس بمنطقة البحيرات المرة، حيث استولوا على رأس كوبري بهذه المنطقة. وقد استخدموا في هجومهم هذا مرة أخرى الدبابات السوفيتية الصنع متنكرين في الزي العسكري المصري. اقترب الإسرائيليون من التشكيلات الفرعية للدفاع الجوي المصري التي كانت تحمي سماء مصر من الطائرات الإسرائيلية عن طريق تكوينها مظلة جوية، حيث حاصروها واطلقوا عليهم وابلاً من الرصاص. وفي الحقيقة فقد كان لهذه التشكيلات المصرية المضادة للطائرات الفضل الأكبر واليد الطولى في إنجاح عملية الهجوم المصري في الساعات والأيام الأولى من حرب أكتوبر 1973.

بعد مرور فترة وجيزة على نقل اللواء العاشر، تقرر إعادة تمركز سائر وحدات وتشكيلات الفرقة الثالثة الميكانيكية بصورة عملية لنفس هذه الأهداف إلى الجنوب من منطقة الهايكستب. قبل تحريك ونقل الفرقة الثالثة للمشاة الميكانيكية قامت القيادة ومستشارو الفرقة برحلة استطلاعية بسيارات الجيب حتى مدينة أسوان.

لقد كانت بحق رحلة رائعة ومفيدة جداً للتعرف على البلد. كان طابور سيارات الجيب كثيراً ما يتوقف أثناء الطريق لعمل بعض الملاحظات اللازمة على الخريطة أو القيام بمباحثات ومشاورات في المراكز الريفية وتبادل الآراء بين المحافظين والرؤساء العسكريين المحليين. بعض هذه المدن التي زرناها تركت لدينا انطباعًا جميلاً وأثراً كبيراً لا يمحى. بدأنا رحلتنا من محافظة الجيزة ثم المنيا ثم بني سويف وسوهاج وأخيراً وصلنا أسيوط بلد سائقنا أحمد. كان أحمد فتى لطيفًا أسمر اللون ذا شعر مجعد. وقد منحه ستوبين إجازة أثناء توقفنا لفترة طويلة بمدينة أسيوط كي يزور والديه هناك. ويمكنني أن أتصور وأتخيل مدى الفخر والفرحة التي كان يحس بهما أحمد في أعماقه فقد استقل عربتنا الجيب ورحل في سعادة غامرة إلى منزل أهله حيث ينتظره الأهل والأقارب الكثيرو العدد.

لقد كانت مدينة أسيوط - «عروس صعيد مصر» - بلداً جميلاً مضيافًا. وقد

أعجبنا أهل أسيوط بدءاً من محافظ المدينة الذي كان في استقبالنا لحظة وصولنا إلى المدينة حيث أخذ يروي لنا العديد من المعلومات والبيانات الشيقة عن عاصمة صعيد وانتهاء بالمواطنين البسطاء الذين كان معظمهم يرون لأول مرة في حياتهم «خبراء» يرتدون الزي العسكري المصري. كان الشبان والفتيات الصغار من أهالي مدينة أسيوط يلازموننا ويتبعوننا على الدوام ويقفون بالقرب منا وبالأخص على شاطئ النيل الذي يطلق عليه أهالي المدينة «الكورنيش» ويسمون النيل «البحر».

كان من الواضح أن الأولاد في مدينة أسيوط لم يتم تدليلهم بعد - ربما من جانب السياح والأجانب - فلم يكونوا ملحاحين ولا متطفلين كأترابهم من أولاد مدينتي القاهرة والإسكندرية الذين كانوا يتبعوننا عشرات بل وأحيانًا مئات الأمتار متشبثين وممسكين بأيدينا وملابسنا يطلبون منا حقهم المشروع في البقشيش. أما أولاد مدينة أسيوط فكانت تصرفاتهم تنم عن عزة نفس وكبرياء ويبدو من نظرات أعينهم أن الدافع لملاحقتهم لنا هو قبل كل شئ حب الاستطلاع والاهتمام الكبير وعدم التكلف والطبيعية الطفولية، علاوة على النشاط والحيوية الغير عادية والتي تفوق الحد.

أخيراً كانت المحطة التالية في رحلتنا وهي مدينة قنا (جنا باللهجة الصعيدية أو أنا بلهجة باقي سكان مصر). وهنا كان الخبراء الأجانب أو بلهجة أهالي قنا «الخبرا الأدانب» وضباط الفرقة الثالثة مشاة أو «موش ميكا» كما كان الجنود والضباط يطلقون عليها يتوقفون لمدة أطول قليلاً ذلك نظراً لأنه كان معلومًا في القاهرة بأن الفرقة قد تم إعادة تمركزها هنا في هذا الموقع بالذات. والسبب في ذلك يرجع إلى أن النيل هنا في هذا المكان كان أكثر اقتراباً من أي مكان آخر من البحر الأحمر يقع على بعد 160 كيلو متر فقط من هذا الموقع. وكانت القيادة السياسية والعسكرية المصرية تعتقد بأن إسرائيل يمكنها بسهولة هنا في هذا الموقع القيام بشطر وادي النيل وفصل شمال البلاد عن جنوبها. وكانت قوات الكوماندوز الإسرائيلية قد قامت قبل ذلك بوقت قصير بتفجير محطة التحويل الكهربائي

الفرعـيـة في نجع حـمادي بالقـرب من مـدينـة قنا. وقـد تواجـدنا هناك وصعـدنا إلى أعلى قمة جبلية في المنطقة بالقرب من هذه المحطة الفرعية حيث هبطت مروحيات العدو.

يمتد من البحر الأحمر حتى مدينة قنا طريق معبد رائع. بالإضافة إلى ذلك فهناك وديان عـميقة متعـددة تقطع المرتفعات الصخرية المنخفضة بدءاً من الشـاطئ وعلى امتداده حتى وادي النيل. وقد قـمنا بتتبع أحد هذه المرتفعات سائرين بسـيارتنا بمحاذاتها إلى مسافة 20 كيلو متر. فتراءى لنا الوادي كطريق مستوي تقريبًا، رائع خلاب، مـدكوك في مكان خالي تمامًا من الناس. كان من الواضح أن هذه الوديان الجافة تعطي للإسرائيليين إمكانيـة ممتازة لا مثيل لها للاختباء خلفها والزحف في سرية تامـة إلى وادي النيل. كما كان أيضًا من الصـعب كشف قفزاتهم من خلال الوديان نظراً لأنها كانت عميقة جداً.

وهكذا انتهت هذه الرحلة التي كانت بالنسبة لي متسعة للغاية حيث أنها أثرت وجداني بانطباعات جديدة لا تمحى عن تلك الأماكن النائية من صعيد مصر التي لم أزرها قط في حـيـاتي من قـبـل، هذا على الرغم مـن صـعـوبة الطريـقـة ووعـورته والجلوس الدائم لفترات طويلة في عربة الجيب المتأرجحة وغير ذلك من الصعوبات التي واجهتنا خلال هذه المهمة.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المهمة لم تكن هي المهمة الاستكشافية الأولى بالنسبة لي فقد قمنا قبل ذلك برحلة استطلاعيـة مماثلة إلى مدينة رشيد الواقعة عند مصب فرع النيل الأيسر. وكانت مجموعتنا حينئذ تتكون تقريبًا من نفس هؤلاء الأفراد الذين ذهبوا إلى أسوان فقـد كـانت تتألف من الضـبـاط المصـريين والمسـتـشـارين العسكريين تحت قيـادة السيد/ حجازي قائد الفرقة وكبير المستـشـارين فيكتـور ستوبين.

وقبل ذلك بنحو عـام ونصف أو عـامين مضت قمت برحلة إلى مصب فرع النيل الأيمن فرع دمياط ضمن مجموعة من الطلاب، حيث قام بتنظيمها النادي الدولي

للوافدين الأجانب الواقع بحي الدقي بالقاهرة. لقد سحرتنا حينئذ مدينة دمياط الساحلية وهي ميناء بحري وتعد مركزاً لإقليم ريفي يحمل نفس الأسم. لقد فتنتنا مدينة دمياط بصخورها وأمواجها المتلاطمة عند الشاطئ. إنها بصخور دمياط» بعينها تلك التي ذكرها في أشعاره الكاتب الروسي الرائع نيكولاي جوميليوف، وهي أيضًا نفس هذه الصخور التي كان يشاهدها الحجاج الروس الجوالون أثناء رحلتهم من روسيا عبر أوكرانيا ثم مولدافيا ثم البحر الأسود فالبحر المتوسط إلى مصر للسجود أمام المقدسات الدينية المسيحية في مصر، ثم يتوجهون بعد ذلك من خلال مصر إلى مقصدهم الأساسي وهو أرض فلسطين. كان الحجاج الرحالة الروس كثيراً ما يذكرون مدينة دمياط في مذكراتهم التي يدونوها عن رحلتهم هذه إلى بيت المقدس.

أريد أن اختم حديثي عن تلك المهمة الاستطلاعية ف جنوب مصر متطرقًا إلى ذلك الصدام الذي حدث بيني وبين ستوبين والذي اعتقد أنه كان كثيراً ما يحدث مع العديد من المترجمين. فقد قررنا في إحدى المحطات التي توقعنا عندها تناول شيئًا من الطعام الخفيف. طلب مني كبير المستشارين إحضار حقيبة المؤونة والأطعمة من سيارة الجيب ولكني رفضت طلبه هذا. وقد لاحظ الكثير من الموجودين هذا، وأعقب ذلك لحظة صمت ثقيل. عندئذ قام السائق أحمد الذي فهم الموقف بدون أي كلام بإحضار حقيبة الماء والطعام لستوبين. خيّم الصمت علينا لبعض الوقت، بل لقد وصل الأمر إلى حد أننا لم نعد نتجاذب أطراف الحديث فيما بيننا، ولكن عندما قربت الرحلة على الانتهاء ذاب الخلاف فيما بيننا وعادات المياه إلى مجاريها مرة أخرى.

لقد كنت كغيري من زملائي المترجمين افقد أعصابي عندما يطلب مني طلب كهذا معتبراً أن ذلك يحط من قدري وأن مثل هذه الأعمال يقوم بها المراسلة وليس المترجمون الذين لا ينتمون إلى هذه الفئة. لا يمكن تحديد السبب في ذلك التصرف.. هل هو مجرد ماضينا، زمن الشهادة الجامعية التي حصلنا عليها، أم أنه اندفاع

الشبـاب، أم هو علـى وجه العمـوم - في هذه الحالـة - طبعي وخلقي الذي لا يسمح بقبـول فرض أي قرار عليّ؟... أو ربما كان لكل هذه العوامل التي ذكرتها بعالية مجتمعة أثرها فيما حدث. ولكن سواء كانت هذه الأسباب أم غيـرها فإني قد اعتبرت هذا الطلب الذي يتسم بصفة الأمر هو إهانة بالنسبة لي.

ولكن هناك أمثلة أخرى من نوع آخر تستحق الاحتذاء بها. فلا يزال حتى الآن محفوراً في ذاكرتي ما رواه لي أحد أصدقائي الذي كان يعمل مترجمًا عسكريًا في الأسطول البحري الحربي المصري من أن قائد السفينة الحربية السوفيتية التي كان عليه أن يقوم بالترجمة للمصريين على متنها قال له قبل النزول على سلم السفينة لملاقاة المصريين: «اعذرني يا صديقي فأنا في الزي الرسمي العسكري فاحمل عني من فضلك حقيبتي». لقد كنا نستوعب مثل هذا النوع من المعاملة كشئ قياسي ولم يكن هناك بالطبع أي رفض من جانب المترجمين في مثل هذه الأحوال لطلبات القادة والرؤساء والمستشارين.

إن ماضينا الدراسي الجامعي، بل ومجرد الكرامة الإنسانية أيضًا لم يكونا ليسمحا لنا بالتصرف بطريقة غير هذه أمام الوقاحة والطريقة المهينة في المعاملة من جانب الرؤساء والقادة والمستشارين العسكريين. مثل هذه الفلتات من جانب هؤلاء القادة والمستشارين كانت قليلة ولكنها كانت تحدث. ومرات أخرى كانوا يتطلعون إلى المتارجم وكأنه إنسان من نوع آخر مختلف عنهم تمامًا. ليس عبثًا أننا كثيراً ما كنا نحب تكرار وسرد والاستشهاد بأحد الأوامر الكتابية التي عادة ما كان يصدرها القادة كدليل قاطع على علاقتهم غير السوية بنا. فعلى سبيل المثال كانوا يصدرون مثل ذلك الأمر الكتابي: سنرجوكم أن ترسلوا لنا 5 دبابات ومدفعين و 1000 قذيفة وعشرين صندوق طلقات و500 قنبلة، 100 مدفع رشاش ومترجم واحد».

كان مضمون هذه العبارة المتكررة تقليديًا يتغير كثيراً، لكن المعنى والجوهر كان يظل كما هو بدون تغيير.

ربما كان ذلك مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بقراري الثلاثي الذي اتخذته بعدما أديت مدة خدمتي العسكرية الإلزامية وهي السنتين المفروض العمل خلالهما بالتمام والكمال وكان قراري هو: عدم البقاء في الجيش، عدم العمل كمترجم وعدم السفر في مهمة طويلة المدة وحيداً.

لم يكن فيكتور ستوبين يسمح لنفسه إهانة أو التحقير من شأن أحد المترجمين باستثناء حادثة واحدة أو ربما حادثتين، بل وقد حدث هذا كما يقولون بضجر وعلى مضض منه. وبهذه المناسبة فهو إنسان يستحق الحديث عنه باسهاب وبصورة أكثر تفصيلاً، نظراً لأنه ـ من وجهة نظري ـ كان يجسد ويمثل كل ما هو جيد وحسن وكان أفضل بكثير من غيره من المستشارين العسكريين السوفييت الذين كانوا يعملون في مصر في تلك الأوقات العصيبة.

لقد حضر للعمل في مصر من مدينة كورسك حيث كان يخدم هناك في الجيش كمساعد قائد فرقة. في عام 1969 كان قد بلغ الثانية والخمسين من عمره. قالت عنه زوجته نيلا سيرجييفنا ـ لقد كان طوال حياته إنسانًا غاية في التواضع فلم يحدث أن تكلم عن نفسه أبداً. قرب نهاية الحرب الوطنية العظمى أصبح قائداً لإحدى الكتائب الاستطلاعية في الجيش السوفييتي. بعد إنتهاء الحرب ترقى حتى وصل إلى رتبة عقيد. ولكن حدثت ذات مرة أثناء التدريبات النموذجية التي كان متواجداً بها حينئذ مندوب من وزارة الدفاع واقعة مؤسفة مفاجئة: ففي أثناء رماية طاقم هاون بالذخيرة الحية أدخل أحد أفراد الطاقم قذيفة تلو الأخرى في ماسورة الهاون مما أدى إلى انفجار القذيفتين بالماسورة ونتج عن ذلك استشهاد جميع أفراد الطاقم. وتسببت هذه الواقعة المريعة في إنزال رتبته إلى رتبة نقيب واضطر ستوبين كي يترقى مرة أخرى إلى رتبة عقيد أن يعاود الخدمة في الجيش السوفييتي للمرة الثانية.

وعند مجيئه إلى مصر أوكلت إليه مهام كبير مستشاري الفرقة الثالثة الميكانيكية مشاه. وبعد مرور بعض الوقت ظهرت أنا في هذه الفرقة في وظيفة

كبير مترجمين.

وبعد مرور وقت قصير نسبيًا من بدء خدمتي بهذه الفرقة انتهت سفرياتي الهادئة إلى حد ما من مدينة نصر إلى الهايكستب والعودة، حيث كنت أقوم خلالها بإبلاغ المستشارين العسكريين السوفييت وأحاطتهم علمًا بآخر الأنباء وأحدثها التي كانت تنشر بالصحف المصرية الهامة مثل «الأهرام» و«الأخبار» و«الجمهورية».

وفي خريف عام 1969 أخذ الطيران الإسرائيلي يقوم بغارات العمق فلم تكن تعترضه بطبيعة الحال أية وسيلة جادة من وسائل الدفاع الجوي من الجانب المصري، حيث أن وسائل الدفاع الجوي المصري كانت قد دمرت تمامًا في بداية الحرب. أخذت طائرات «الفانتوم» و «الميراج» و«السكاي هوك» الإسرائيلية تقصف بضراوة وتدمر بشدة وعنف المنشآت المصرية الاقتصادية الحيوية الهامة كالمصانع والمحطات الفرعية وطرق وخطوط المواصلات والمدارس (على سبيل المثال واقعة قصف وتدمير مدرسة بحر البقر بمنطقة أبو زعبل). لقد حاول الإسرائيليون بذلك إضعاف الروح المعنوية للشعب المصري ومن أجل هذا كانوا يتخيرون للقيام بعمليات الضرب الجوى الأوقات والفترات الزمنية الحساسة التي يتجمع فيها أكبر عدد من المواطنين المدنيين مثل مواعيد تغيير ورديات العمال والموظفين بالمصانع وأيام العمال والموظفين لأجورهم ومرتباتهم. لقد توصلت عن طريق قراءة الأخبار العادية التي كانت تنتشر انذاك في الصحف المصرية إلى أن عدد القتلى المدنيين نتيجة إحدى هذه الهجمات الجوية لم يقل عن مائة أو مائة وخمسين فرداً.

وكان من الطبيعي ومن البديهي أن يستهدف القصف الجوي القوات العسكرية المصرية كذلك.

لقد كان الهدف الرئيسي من حضور المستشارين العسكريين من الاتحاد السوفييتي إلى مصر هو إعداد وتدريب قوات الجيش المصري التدريب العسكري الكافي واللازم لخوض غمار المعركة ضد العدو الإسرائيلي، إلا أن تلك التدريبات

العسكرية قد أحبطت وباءت بالفشل إلى درجة كبيرة ذلك على الرغم من تواجدنا من بداية شهر فبراير من عام 1970 بصفة دائمة مستمرة بالفرقة، حيث كنا ننام في المخابئ والمخيمات ونتناول طعامنا في مطعم الضباط «الميس».

ولا زلت حتى الان اذكر هذه اللحظات جيداً. وقد استكملت في ذلك الوقت العام الخامس والعشرين من عمري، أي ربع قرن، لذا فإن هذا التاريخ لا يزال محفوراً في ذاكرتي حتى يومنا هذا. وقبيل حلول عيد ميلادي الخامس والعشرين طلبت إذنًا من المستشار العسكري الذي حل محل ستوبين أثناء فترة أجازته التي كان يقضيها آنذاك في الاتحاد السوفييتي بالسماح لي بعدم الذهاب إلى الهايكستيب فقد كنت أريد شراء بعض الأطعمة والخضر والفواكه وبعض المستلزمات الأخرى كي أعد غذاءاً متواضعًا للاحتفال مع أصدقائي بعيد ميلادي الخامس والعشرين. ولكن في الصباح في حوالي الساعة السادسة استيقظت فجأة على صوت قرع شديد على الباب لدرجة أن الباب كاد أن ينخلع من مكانه وسمعت صوت أحد الخبراء العسكريين السوفييت وهو يصيح بأعلى صوته: «إشارة إنذار لابد من التجمع عند المدخل في خلال 15 دقيقة، مع مراعاة إحضار كافة الأشياء اللازمة». وعند محاولتي الاستفسار إلى أين سنتوجه ولماذا وما هي الأشياء التي سوف نأخذها معنا لم أتمكن من معرفة أي شئ سوى أننا سنذهب إلى منطقة تمركز فرقتنا. أخذت القي على عجل في حقيبة سفري كل ما كانت تصل إليه يداي من أشياء. وفي أسفل كان المستشارون العسكرون يتساءلون في حيرة وذهول وارتباك: «ما الذي حدث، هل سنستولى على تل أبيب، أم ماذا؟».

وصلنا إلى موقع الفرقة الثالثة ميكانيكية مشاة واقتربنا من ملجأ رئيس هيئة الأركان، حيث كان العقيد نجاتي وقد أيقظه الجندي المراسلة من نومه وهو يفرك عينيه وينظر إلينا من أسفل الملجأ بينما أحطنا نحن بالملجأ وقد أمسكنا حقائبنا في أيدينا. كان ينظر إلينا مشدوها وقد عقدت الدهشة لسانه وأخذ العجب منه كل مأخذ. واتضح لنا أنه لم يكن لديه أي علم أو دراية بحدوث أية إشارة إنذار

بالخطر. لاشك أنه كان موقفاً غاية في السخف. لكن الأمر كله اتضح لنا فيما بعد. فنظراً لتصاعد التوتر واستفحال الموقف وخطورته نتيجة للضربات الصاروخية والضرب المتلاحق بالقنابل، فقد تم اتخاذ قرار حاسم بضرورة تواجد المستشارين العسكريين السوفييت وكذلك المترجمين وإقامتهم بصفة دائمة في مواقع فرقهم. علاوة على ذلك فقد كان من الضروري أيضًا تواجدهم معظم الوقت في الملاجئ. وهذا الذي حدث كان لمجرد أنه لم يتم مسبقًا إحاطة العقيد نجاتي علمًا بهذا الأمر.

وهكذا أصبحنا جميعًا نعيش في مواقع الفرقة. لم تتسع الأماكن في الملجأ كي أقيم مع المستشارين السوفييت، لذا فقد أقمت في خيمة كبيرة من المشمع مع السائقين المصريين الذين كانوا يقومون بنقل المستشارينت. وكانوا قد أخبروني قبل ذلك أن هذه الخيمة تحترق خلال خمس ثواني فقط في حالة ما إذا ألقي عليها قنابل النابلم، لذا فقد كنت أشغل سريراً بالقرب من مدخل الخيمة حتى أتمكن في حالة إلقاء قنابل النابلم غليها من الإسراع بالخروج منها وعدم الاحتراق بداخلها. وبعد فترة قصيرة عاد ستوبين من إجازته وتم إيجاد مكان لي في الملجأ. هذا على الرغم من أن الملجأ لم يكن ليحمينا في حالة الضرب المباشر سواء بالقنابل أم بالصواريخ.

في ظروف المعركة يتصرف الناس عادة بأسلوب مختلف عما هو معتاد. وطبعًا المترجمون لا يشكلون استثناء عن هذه القاعدة. فعلى سبيل المثال أثناء قصف الفرق المتواجدة بالمنطقة العسكرية المركزية بالقنابل مرض بعض الزملاء فجأة أو بمعني أصح تمارضوا وتظاهروا بالمرض، أما البعض الآخر فتظاهروا بأن وجودهم ضروري جداً في أماكن أخرى بعيدة اختاروها بأنفسهم كي تكونت أكثر أمنًا وأمانًا. ويحضرني هنا على سببيل المثال أن أحد المترجمين الشبان الذي كان يعمل في الفرقة الثامنة عشر مشاة وكان والده عميداً في هيئة أركان الحرب السوفيتية تم نقله على وجه السرعة إلى منطقة جبل المقطم، حيث كانت توجد في أعماقه حينئذ هيئة الأركان لقوات الصواريخ المضادة للطائرات. كان مفهومًا أن لباقي المترجمين لم يكن آباء من ذوي المناصب الهامة مثله، بل ومن البديهي أيضًا استحالة نقل

الجميع بعيداً عن ميدان المعركة لتأمين سلامتهم. ولهذا السبب فقد استمر باقي المترجمين في مزاولة عملهم في نفس أماكنهم.

لقد جلبت حرب الاستنزاف التي كان الهدف من شنها إنهاك إسرائيل وإضعافها نتائج عكسية تمامًا. حيث لحقت بمصر خسائر فادحة وبلغت الخسائر والأضرار المادية والمعنوية التي سببتها غارات طائرات الفانتوم الإسرائيلية على مصر حداً كبيراً هائلاً فاق كل تصور. وسقطت أعداد كبيرة من الضحايا سواء من جانب المواطنين العاديين أم من جانب العسكريين. ولا زلت اتذكر حتى الآن ذلك التلاعب اللفظي الحزين الذي كان المصريون المحبون لإطلاق النكت والفكاهات ونقد الذات عادة ما يستعملونه فكانوا يقولون: «حاضر يا فانتون» بدلاً من «حاضر يا فندم».

سقط عدد من القتلى والجرحى من الجانب السوفييتي كذلك. لقد كان الوضع أكثر صعوبة وتعقيداً على وجه الخصوص بالنسبة لزملائنا من الفرقة السادسة الميكانيكية بالمنطقة العسكرية المركزية التي كانت ترابط دهشور بالقرب من أهرامات الجيزة الشهيرة. فقد كان نتيجة للقصف الجوي الذي قامت به طائرتان إسرائيليتان على مركز قيادة هذه الفرقة أن استشهد ثلاثة من الخبراء العسكريين السوفييت ورئيس المترجمين بالفرقة المستعرب محمود يوسوبوف جاري بنفس الطابق بالمبنى الرابع بمدينة نصر. لقد كنت أعرفه حق المعرفة فقد كان شابًا مكتنز البدن، جميل الطلعة، بشوش الوجه، صبوحًا، له شارب حالك السواد وهو من مدينة باكو. وكان الإبن الأكبر لعائلة كبيرة العدد مكونة من ثمانية أفراد يعد هو عائلها الوحيد.

روى لي مترجم اللغة الإنجليزية بهذه الفرقة فيما بعد ما حدث في ذلك اليوم المشئوم. وكان هذا المترجم قد أصيب بجرح نافذ في الرئة نتيجة لهذا القصف. والذي حدث ـ حسب ما رواه لي أنه في الصباح وأثناء اجتماعهم بمركز قيادة الفرقة سمعوا فجأة صوت إطلاق نار من مدافع رشاشة. كان يقوم بإطلاق النار اثنان من المصريين المتواجدين على سطح أحد المباني المكون من طابقين. اندفع الجميع إلى

الخارج وفي التو أخذت صواريخ طائرات الفانتوم الإسرائيلية تتساقط من حولهم محدثة انفجارات شديدة. وكنا قد أصبحنا في هذه الأيام بالذات - كما ذكرت ذلك آنفاً - نعيش في موقع كتيبتنا ونعمل وننظم اجتماعاتنا في الملاجئ.

ولا يزال يرن في أذني ذلك اللحن الجنائزي الحزين لشوبان الذي كان يصاحب مراسم وداع الخبراء العسكريين السوفييت الذين استشهدوا أثناء قصف طائرات الفانتوم الإسرائيلية. تمت تلك المراسم في النادي العسكري الخاص بنا في هيليوبوليس. كان النادي يقع بجوار أحد القصور المهجورة الذي كان يخص فيما مضى بارون نمساوي. وهذا القصر مبنى على الطراز القوطي يكتنفه السكون والظلمة الحالكة من كل جوانبه، لذا فهم يطلقون عليه اسم «القصر الميت». ولا يزال بكاء ونحيب زوجات الخبراء العسكريين السوفييت الذي يقطع نياط القلوب يرن أيضًا في أذني». لقد كان الجو المحيط بنا غاية في الصعوبة وتمت الترجمة للجنرالات والضباط المصريين المتواجدين في حفل التأبين بمشقة بالغة. ومن هنا أرسلنا الخبراء العسكريين السوفييت الشهداء في توابيت من الزنك إلى مثواهم الأخير في موسكو.

وحتى الآن عند مروري من أمام مبنى النادي العسكري السوفييتي السابق رقم 12 بشارع العروبة في طريقي إلى مطار القاهرة الدولي لازلت أتذكر تلك الصور الحزينة القاتمة التي عايشتها في هذا المبنى في زمن الحرب.

لم تنج فرقتنا ولا الفرقة الثامنة عشر مشاة المجاورة لنا من قصف طائرات الفانتوم الإسرائيلية المتواصل، لكن عدد الخسائر في الأرواح بالرغم من ذلك كان ضئيلاً جداً بكاد لا يذكر - فبالنسبة لنا فقد تم توجيه ضربتهم إلى أركان حرب اللواء الرابع عشر الذي كان يقع في مركز الهايكتسب حيث كانت هذه المنطقة تزدحم بالمساكن. ربما كان هذا هو السبب في اختلاط الأمر على الإسرائيليين فظنوا أن الأركان حرب هو مركز قيادة الفرقة الذي كان يقع على بعد نصف كيلو متر تقريبًا من مكان القصف بالقنابل. لقد ساعدنا الحظ في ذلك كثيراً لأنه في تلك

اللحظة كان يجرى اجتماع مركز قيادة الفرقة ضم قيادة ومستشاري الفرقة الثالثة الميكانيكية، وكما قال قائد الفرقة العميد حجازي: «فإن الله قد ساعدنا».

كان واضحًا أن الروح المعنوية كانت منخفضة للغاية وبدا المستقبل قاتمًا مظلمًا. استمر الحال هكذا إلى حين وصول الفرقة السوفيتية الثامنة عشر دفاع جوي للمهمات الخاصة، التي بوجودها استطعنا أخيراً أن نتنفس الصعداء. ومما هو جدير بالذكر أن القوات السوفيتية النظامية قد حضرت إلى مصر في أوائل عام 1970 بناءً على طلب خاص من الرئيس جمال عبد الناصر.

كم أشكر الظروف والأقدار التي جعلتني أعمل في مصر تحت امرة فيكتور ستوبين فلقد كان يتمتع بإرادة قوية كما كان إنسانًا عادلاً يهتم بشئون مرووسيه وبالأخص ممن هم في مرحلة الشباب، كان شجاعًا جسوراً، حازمًا، حكيمًا يتمتع بقدر كبير من الخبرة الحياتية واللباقة وأدب السلوك الفطرى. لقد كان يمتلك تلك الصفات والخصائص التي كانت ضرورية ولازمة في ذلك الوقت.

طلب ستوبين من المصريين منذ بداية عمله معهم ألا يطلقوا عليه لقب «مستر» كما كان ذلك معتاداً وطلب منهم أن يتوجهوا إليه باسم «الرفيق فيكتور». كان من بين فضائله أنه كان لا يحب أن يقوم أحد الرؤساء الكبار بمعاقبة مرؤوسيه الذين يعملون تحت امرته وكان دائمًا ما يقول: «ما دام هذا الخطأ قد حدث في دائرة اختصاصي فمعنى ذلك أنني أيضًا قد أخطأت في شئ ما ويجب عليَّ أن أقوم بنفسي بمعاقبة المخطئ». كان هذا هو مبدؤه الذي لا يحيد عنه.

كان فيكتور ستوبين مستشاراً عسكريًا شديد الحماس، بالغ النشاط، كثير الحركة لا يهدأ ولا يعطي فترة راحة لأحد سواء لقائد الفرقة أو لضباط الفرقة أو للمستشارين أو حتى لي أنا شخصيًا. كان يحاول دائمًا أن يتعمق إلى جوهر المسائل ويدرك ويستقصي كنه الأشياء ويلم بمضمونها باذلاً أقصى ما في وسعه كي يتم عمله على أكمل وجه بما يمليه عليه ضميره وكان يطلب ذلك أيضًا من المصريين ووالمستشارين العسكريين، كان دائمًا ما يتفقد أحوال الفرقة ويذهب إلى اللواءات

والكتائب حيث كان يساعد ويسدي النصح والارشاد معتمداً في ذلك على خبرته الحياتية الواسعة، كان يعرف جميع قادة الكتائب وكذلك قادة بعض السرايا. ليس من قبيل الصدفة أن قال عنه قائد الفرقة المصري حجازي: «أن الرفيق فيكتور يتعامل مع الفرقة وكأنها إحدى الفرق السوفيتية التي كان يرأسها في الاتحاد السوفييتي». وهكذا يمكن الإشارة إلى أن عمل كل المستشارين العسكريين السوفييت تقريباً قد سار على نفس هذا المنوال.

وسأذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر واقعة حدثت تدل دلالة قاطعة على علاقة فيكتور ستوبين القوية وارتباطه العميق بالعمل. ففي إحدى المرات أثناء التدريبات العسكرية كان هناك تدريب على إطلاق النار على أهداف معينة فالحظ ستوبين أن هناك جندي مشاه واحد فقط من بين مجموعة المتدربين على ضرب النار هو الذي يطلق النيران. عندئذ صاح بي قائلاً: «جينا، هيا بنا إلى الأمام». وأخذ يزحف مقترباً من خط النار. وعندما صرنا على مقربة من هذا الجندي الذي أخذ يطلق النار بدون توقف عليه فاستدار نحونا بوجهه الغاضب الذي غطاه التراب الأبيض واتضح لنا أنه النقيب قائد السرية الميكانيكية، وأنه قد قام بجمع الذخائر المعطاة لاستعمال أعضاء السرية في التدريب على الرماية واستخدمها هو وحده حتى يبين أن جنود سريته على درجة عالية من الكفاءة. اعتقد أنه من المستبعد أن يقوم أحد الضباط المصريين أو أي مستشار عسكري سوفييتي آخر بذلك أو حتى أن تخطر بباله فكرة الزحف والاقتراب من خط إطلاق النار. لكن ستوبين هو ستوبين لا بديل له.

وعلى وجه العموم فقد كان ستوبين يقيم علاقات جيدة جداً مع كل ضباط الفرقة، بينما كان يشعر بالنسبة لبعض منهم بمجرد الميل مثل تلك العلاقة التي كانت تربطه بالضابط مرشد قائد إحدى كتائب اللواء مشاه ميكانيكية الرابع عشر. فقد كان يسبق كل حديث له مع الضباط بسؤاله بلغته العربية الركيكة: «ازيَّك؟ وازاي صحتك؟» لكنها بالنسبة لمرشد وغيره من المصريين كنت مفهومة. دأب

ستوبين على بذل كل ما في وسعه كي يزيد بصورة مستمرة من حصيلته اللغوية من الكلمات العربية.

كان ستوبين موضع حب وإعجاب وتقدير الضابط مرشد والكثيرين غيره من الضباط المصريين الآخرين، نظراً لبساطته الشديدة وبعده عن الترفع والعجرفة وخلقه الحسن الطيب، علاوة على ذلك فقد كان إنسانًا اجتماعيًا ودوداً يحب التعرف على الناس ومصادقتهم. ويحضرني هنا تلك الواقعة التي حدثت أثناء احتفالنا مع المصريين بعيد الأضحى الذي يأتي عادة بعد عيد الفطر بشهرين فقد اجتمعنا عند مرشد في الكتيبة حيث كان هناك قائد الفرقة حجازي ورئيس أركان حرب نجاتي ورئيس العمليات الكسار وغيرهم من قادة الفرقة ولواءاتها. أخذ الجميع يلتهمونه بفرح وابتهاج وسط الأحاديث الحارة والنكات التي لا تنقطع. وبسبب الترجمة التي كنت أقوم بها أثناء تناول الطعام لم اتمكن من تناول سوى كمية قليلة جداً من اللحم والأرز، لذلك فقد اضطررت للبقاء لفترة قصيرة من الوقت جالسًا إلى المائدة بعد انصراف قادة الفرقة والمستشارين تحوطني النظرات النهمة الجائعة والغير مرحبة على وجه الإطلاق لضباط كتيبة مرشد الذين كانوا ينتظرون دورهم في الجلوس إلى مائدة الطعام.

لم يكن ستوبين فقط مستشاراً عسكريًا، اجتماعيًا، خبيراً بأمور الحياة، حكيمًا ودبلوماسيًا في تعاملاته مع الآخرين، بل أن الأهم من كل ذلك بالنسبة لي على سبيل المثال هو أنه كان إنسانًا كثير العناية والاهتمام بالآخرين وقوي الملاحسطظة ويمكن تلخيص كل ذلك في كلمة واحدة هو أنه كان خير معلم وأفضل مرشد ومرب. كان ذلك على جانب كبير من الأهمية خصوصًا في تلك الظروف المعقدة، البالغة الصعوبة، والتي كانت في بعض الأحيان تتسم بالخطورة.

سمعني ستوبين ذات مرة وأنا أنادي علي أحد زملائي فأخذ يطلق عليّ «الشيخ» وأحيانًا كان يتوجه إليّ بالحديث قائلاً لي: «يا ابني». فكثيراً ما كان يقول لي وللآخرين: «اسمع يا بني». كان يردد الوصايا العشر من الإنجيل بطريقته

الخاصة فيقول لنا: «لقد علمني والدي منذ الصغر ألا أسرق أموال الحكومة وأن احترم أبي وأمي وألا أخون أصدقائي، أما الباقون فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم...» لقد كان يجيد استعمال الكثير من الألفاظ والتعبيرات السوقية الدارجة ومع ذلك فقد كان يتمتع بعالم داخاي واسع، رحب، وذوق وسلوك مثاليين واهتمام متميز بالمحيطين به. فقد كان كثيراً ما يسألني إذا ما كنت اتسلم خطابات من أسرتي وماذا يكتب لي والدي وما هي الأماكن التي ارتادها في القاهرة ومع من أتقابل....؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي لم تكن تخفي وراءها مجرد اهتمام زائد، بل إشتراك حقيقي في صنع مستقبل إنسان وضعته الظروف الأقدار تحت رعايته وإشرافه.

كانت مثل هذه العلاقة الوطيدة، الحميمة، لازمة وضرورية بالنسبة لي ولزملائى وأقراني الذين تم استدعاؤهم للخدمة في الجيش السوفييتي بعد إنتهائهم مباشرة من دراستهم الجامعية فابتعدوا فجأة عن الأهل والوطن ولكنهم ذهبوا إلى وطنهم الحبيب الثاني. وكنت قبل ذلك ـ كما ذكرت آنفا ـ قد قضيت في مصر عام بأكمله في دورة تدريبية حيث استمتعت بكل ما في هذا البلد من مباهج واغراءات. وقد تم اختياري حينئذ كي أكون رئيساً لمجموعة الطلبة المتدربين الوافدين التي كانت تضمني وتضم ستة طلاب غيري من معهد اللغات الشرقية بموسكو وثمانية طلاب من جامعة طشقند.

عندما كنت أذهب إلى السيد/ يميليانوف المستشار الثقافي بالسفارة السوفيتية في القاهرة لإفادته عن أحوال الطلبة السوفييت الوافدين ومشاكلهم كان ينظر إليَّ من أعلى نظارته ولسان حاله يقول: «لماذا حضرت؟... ألا ترى أنني مشغول جداً ولدي أعمال كثيرة يجب عليَّ أن أنجزها. هيا اذهب لتتنزه». وبالفعل فقد كنا نتفسح ونتجول كثيراً. ونظراً لأن الحياة في المدينة الجامعية بجامعة القاهرة كانت صعبة، ذلك لأن أبواب مبنى المدينة الجامعية كانت تغلق في وقت مبكر جداً في الساعة الثامنة مساء ومن يتأخر عن هذا الموعد كانت تقدم عنه تقارير كتابية (أما

فيما يتعلق بغير ذلك فكل شئ آخر كان محتملاً، حيث أنني قد عشت قبل ذلك في مساكن الطلبة التابعة لجامعة موسكو الحكومية لمدة أربع سنوات كاملة)، لهذا السبب فقد قمنا باستئجار شقة بحي العجوزة خلف السيرك القومي ومسرح البالون مباشرة وتطل على النيل. كنا ندعو لزيارتنا من نشاء وفي أي وقت نشاء فكان من بين زوارنا كتاب وصحفيين ومؤرخين وغيرهم كثيرين. كما أقمنا علاقات طيبة جداً مع الكثير من المصريين الذين لا زالت تربطني بهم صداقة وطيدة حتى الآن.

وقد حكيت لستوبين الكثير من هذه الذكريات مضيفًا أنني لا زلت حتى الآن وأنا أعمل كمترجم بالفرقة الثالثة مشاه ميكانيكية أواصل التقابل مع الكثير من أصدقائي ومعارفي المصريين القدامى، لأن نسيان الأصدقاء أو خيانتهم وفقًا لوصية أبيه خطيئة لا تغتفر. بالطبع لم أقص على ستوبين كل شئ. وبصورة عملية فقد كنت أزور معارفي المصريين القدامى كل أسبوع. وكنت استقل الأتوبيس مساء كل يوم خميس بعد الانتهاء من عملي من مدينة نصر ـ 3 إلى الزمالك. في ذلك الوقت كان يعيش بمدينة نصر - 3 المختصون في مجال الطاقة من العاملين بالسد العالي، كما كانت توجد صالة بليارد ورائعة حيث كانوا يلعبون الفولي بول خلف أسوارها وبعد وصول قواتنا النظامية تم تسكين الأطباء العسكريين في هذه المنطقة حتى يكونوا بالقرب من المستشفى العسكري الميداني السوفييتي الواقع بمنشية البكري.

لقد توصلت أخيراً إلى فهم معنى أن يقع الإنسان في أيدي طيبة أمينة مثل أيدي ستوبين، وذلك عندما ذهبت معه ومع رئيس أركان حرب الفرقة نجاتي في مهمة تفتيشية على اللواء العاشر في منطقة البحر الأحمر. توجهنا إلى هناك في عربة جيب مع السائق أحمد. كان الإسرائيليون هنا يقومون بأعمال تخريبية منذ فترة طويلة: حيث كانوا يقومون بعمليات إغارة وزرع ألغام بالطرق وفي آخر الأمر سرقوا راداراً حديث الصنع كان موجوداً في إحدى كتائب اللواء العاشر مشاه ميكانيكية بمنطقة جمصة. وقد تمت معاقبة كل من المستشار العسكري تاراس بانتشينكو والمترجم ايجور كوليكوف وتوقيع الجزاء الرادع عليهما، وكنت اعتبرهما

من أصدقائي المقربين إليَّ. كان إيجور كوليكوف حينئذ لا يزال طالبًا بالمعهد العسكري للغات الأجنبية.

سافرنا بالنهار، لذا فقد كان الطريق إلى البحر الأحمر بالنسبة لنا سهلاً وممهداً. حين وصلنا الغردقة أقمنا هناك في الفندق الدائري، وهو الفندق الوحيد الذي كان موجوداً بالغردقة في ذلك الوقت. كان يفصلنا عن الإسرائيليين حينئذ شريط مائي فقط، حيث أنهم في ذلك الوقت كانوا قد استولوا على جزيرة شدوان التي تقع في مواجهة الغردقة. حكى لي ستويين فيما بعد عن حالتي أثناء هذه المأمورية فقال لي أنني ما أن كنت اذهب إلى الفراش في نهاية اليوم حتى كنت أتنفس الصعداء قائلاً: «آه يا أمي». ثم أروح في التو واللحظة في سبات عميق. من الواضح أنني كنت مفعماً بشتى المشاعر والأحاسيس والانطباعات.

ما أن انهينا التفتيش على اللواء العاشر حتى تأهبنا للعودة لأدراجنا في المساء. انتظرنا وصول العربة المدرعة التي وعدونا في اللواء بإعطائها لنا لمرافقتنا لكنها لم تصل.

يتكون الطريق إلى مدينة قنا من ثلاثة أجزاء: الجزء الأول ساحلي بحري وهو طريق مستوي يمتد حوالي 20 كيلو متر، ثم بعد ذلك طريق آخر يمتد عبر صخور رأسية صغيرة داكنة اللون، وأخيراً يمر الطريق خلال أرض منبسطة حتى مدينة قنا. كان أخطر جزء من الطريق هو الجزء الجبلي. فهناك بالتحديد قام الإسرائيليون قبل سفرنا بتلغيم هذا الجزء بالذات من الطريق بألغام وثابة، وهي عادة ما تنفجر مندفعة إلى أعلى إلى ارتفاع غير كبير لتحقيق أفضل النتائج في إصابة قوات العدو الحية.

قبل أن نتوجه في طريقنا، قرر العقيد نجاتي أن يجرب مدي صلاحية المدفع الرشاش الذي كان يحمله معه السائق أحمد، وهو صناعة مصرية ماركة «بورسعيد»، فوجد أن ترباس المدفع قد علاه الصدأ بحيث لا يمكن سحبه أو تحريكه وأن المدفع الرشاش في حالة سيئة وغير صالح للاستعمال. استشاط العقيد نجاتي

غضبًا خصوصًا أن ذلك حدث أثناء تواجد السوفييت وفي حضورهم فاستخدم سلطته وعاقبه أحمد بالحبس لمدة 15 يومًا. ولكن هل كان في إمكانية هذا المدفع الرشاش من ماركة «بورسعيد» أن ينقذ أرواحنا. أود أن أذكر هنا ـ سابقًا الأحداث ـ أنه عندما أدراجنا إلى الهايكستب قضى أحمد مدة سجنه المقررة.

بدأنا التحرك عائدين أدراجنا مستخدمين إضاءة ضعيفة فكنا نرى الطريق أمامنا بالكاد. فالظلام كان دامسًا والتوتر قد بلغ أقصى حده. كنا ننظر إلى الطريق الممتد أمامنا الذيْ بدا وكأنه لا نهاية له وقد اعترانا الخوف وأخذت منا الرهبة كل مأخذ. قطعنا على هذا النحو عشرات الكيلومترات. وفجأة تراءت لنا على البعد بعض الأنوار وبعد قليل أخذنا نحث السير في اتجاه مدينة قنا. على اليمين رأينا المطار الذي كان يتم بناؤه في هذه المنطقة فتنفسنا الصعداء وخفت حدة التوتر والقلق.

قمنا على وجه السرعة بنقل الفرقة في قنا جزء منها عن طريق السكة الحديد والجزء الآخر ـ بالعربات المدرعة واللوريات. تركنا هناك الميكروباص الأزرق اللون الذي كنا نستعمله في التنقل من مدينة نصر إلى الهايكستيب ثم العودة. بدأ في قنا ارتفاع درجة الحرارة. تم بالتدريج تسكين الفرقة ونشرها في مخابئ بالصحراء. وفي كل يوم كانت تحدث بين أفرادها من 20 إلى 30 لدغة من العقارب التي كانت تعج بهم تلك المنطقة. وعمليًا فتحت كل حجر تقريبًا حيث كان يجلس الجندي كان يوجد هناك عقرب. وقد قمنا بتأمين أنفسنا من لدغ هذه العقارب في الملجأ الذي تم تخصيصه لإقامتنا بأن ربطنا علب مملوءة بالكيروسين حول أرجل الأسرة التي كنا ننام عليها. كان الجو في الملجأ محاراً خانقًا وعلاوة على ذلك كانت هناك الأبخرة المتصاعدة من الكيروسين المنتشرة في المكان كله.

كان العمل كثيراً وكان الرفيق فيكتور كعادته دائمًا متخمًا بالعمل فقد كنا كل يوم نتفقد كل الموقع تقريبًا الذي تنتشر فه الفرقة. ثم بدأت التدريبات. كان هذا يعني أننا لابد لنا أن نتابع بعربة الجيب تحركات الدبابات والمدرعات والجنود المشاه

الميكانيكية. كان الجو في الصحراء الواقعة بالقرب من مدينة قنا خانقًا للغاية وقد صبغته باللون الأبيض الأتربة المتصاعدة من الأحجار البيضاء والزلط الذي كان يتكسر ويتهشم أثناء سير الدبابات والعربات عليه. كان التراب والرمل يملآن حلقي بصورة دائمة بينما ارتفعت درجة حرارة الجو إلى درجة يصعب احتمالها حيث كنا على مسافة حوالي ألف كيلو متر جنوب القاهرة. لذا فقد كان علينا أن نحمل معنا جيركن مليء بالماء بصفة دائمة.

وكما ذكرنا من قبل فقد كنا نجلس مع المصريين على مائدة طعام واحدة مشتركة. لم نكن نتناول أي نوع من أنواع الشوربة تقريبًا. بل كانوا يقدمون لنا على الغداء لحمة مع البطاطس أو الأرز أو حمام محشي ففي مصر عدد الحمام كبير وأبراج تربية الحمام تعد جزءاً رئيسيًا من منظر الريف. لكن الطامة الكبرى أنني لم أكن أستطيع أكل الحمام حيث أنني لم أتعود على ذلك في بلدي. فكنت أتناول عدة لقيمات فقط كي أسد بها رمقي. أضف إلى ذلك أنني فقدت شهيتي للطعام في مثل هذا التراب والجو الحار وكنت أدخن وأشرب الشاي بصفة دائمة، لذلك فقد فقدت الكثير من وزني لدرجة أنني أصبحت أبو كالمومياء أو ـ كما يقولون في مصر ـ كخيال الضل.

استمر الحال على هذا المنوال عدة أشهر. وأخيراً حانت لحظة الخلاص من هذا الكابوس المخيف على يد صديقي ايجور الذي كنت أدرس معه في دفعة واحدة. ففي صباح أحد الأيام فوجئت بفيكتور ستوبين وهو يوقظني من نومي قائلاً لي: «انهض حالاً فهناك بأعلى المكان ينتظرك صديقك». نهضت بسرعة وأخذت أصعد الدرج إلى أعلى الملجأ حيث كان يقف ايجور. ولم أدر حينئذ السبب في ارتدائه بالطو طويل جداً مثل تلك البلاطي التي يرتديها عادة العسكريون. وبعد أن تعانقنا قال لي ايجور: «فلنجلس الآن ونتحدث فهناك أشياء كثيرة أريد التحدث معك عنها وياحبذا لو كانت لديك بيرة»». لكن للأسف البيرة كانت موجودة فقط في قنا. وبالرغم من عدم وجود البيرة إلا أنه قد دار بيننا حديث طويل ممتد ذو شجون.

وحرى أن أذكر هنا أنه من بين مجموعتين من دارسي اللغة العربية تتألفان من ثمانية عشر فرداً قد وقع الاختيار علينا أنا وايجور فقط لاستدعائنا للخدمة العسكرية في الجيش السوفييتي. أما الباقون فمنهم من حصل على وظائف بوزارة الخارجية السوفيتية ومنهم من التحق بالدراسات العليا بالجامعة، أي أن كل خريج منهم التحق بعمل ما ولكن لم يتم استدعاء أحد للجيش سوانا نحن الاثنين. وقد رشحتني الإدارة الرئيسية للكوادر بوزارة دفاع الاتحاد السوفييتي للسفر للخارج. والحقيقة أن العاملين بالإدارة حاولوا إقناعي لمدة أربعة أيام على التوالي بالسفر إلى الجزائر. لقد درست في مجموعة دراستي اللغتين العربية الفرنسية وفي نفس الوقت كما ترى فقد قرر فجأة كبير المستشارين السوفييت في الجزائر أن يطلب للعمل معه هناك مترجمًا يجيد اللغتين العربية والفرنسية. على مدى أربعة أيام متتالية وأنا أبذل قصارى جهدي كي لا أسافر إلى الجزائر وطلبت بدلاً من ذلك إرسالي إلى مصر. لذا فقد أصبحوا ينظرون إلى طلبي هذا بعين الشك والريبة: لماذا يرفض بشدة السفر إلى بلد كالجزائر يقع على شاطئ البحر المتوسط، حيث الأوضاع هناك آمنة ومستقرة، بينما يلح في السفر إلى مصر حيث تدور المعارك العسكرية على أشدها حتى ولو كانت مجرد تراشق بالمدفعية الثقيلة عبر قناة السويس، بينما ينشط الطيران والأسطول الحربي. ربما قد يكون راغبًا في أن يعبر القناة؟...

في ذلك الوقت كان الهرب إلى خارج الاتحاد السوفييتي أمراً شائعًا وأذكر أنه خلال فترة تدريبنا بجامعة القاهرة هرب اثنان من الدارسين معنا بنفس الصف الدراسي - أحدهما إلى باكستان والآخر إلى فرنسا (وقد بعث الطالب الأخير برسالة من باريس إلى مدير معهد اللغات الشرقية بموسكو السيد/ كوفاليوف يطلب منه إرسال شهادة تفيد إنهائه أربع سنوات دراسية بالمعهد). وعندما وصلنا نبأ هروب زميلينا ونحن في القاهرة أصابنا ذعر شديد وتوقعنا أن يتم ترحيلنا من القاهرة إلى موسكو حتمًا ومن كل بد.

وعندما حصل ايجور على رتبة ملازم تم تعيينه بمعهد إعداد المترجمين

العسكرين للعمل به كمدرس للغة العربية. ولكن في بداية عام 1970 تم إلحاقه للعمل كمترجم ضمن مجموعة المشتركين في العملية الحربية «القوقاز»، كما كان من المفروض أن يعمل مترجمًا بمركز الإشارة وبالمستشفى العسكري. سافر ايجور عن طريق البحر، حيث أن معظم المشتركين في العملية الحربية «القوقاز» حضروا إلى مصر عن طريق البحر وتعرف على ظهر السفينة بصفة مباشرة بالعاملين بمركز الإشارة والمستشفى العسكري السوفييتي.

كانت هذه هي المرة الثانية التي يحضر فيها ايجور إلى مصر. فقبل ذلك حضر إلى مصر وهو لا يزال بعد طالبًا للعمل كمترجم عسكري. لذا فقد كان يعرف مصر جيداً ويعرف عاصمتها بصورة أفضل. وبعد حضور مجموعة ضباط مركز الإشارة بصحبة ايجور بعدة أيام تعرفوا على أهم معالم مدينة القاهرة السياحية حيث زاروا أهرامات الجيزة وغيرها من الأماكن التاريخية والأثرية. قضى الشبان أوقاتًا مرحة بصورة زادت عن الحد المفروض مما أدى إلى مخالفتهم لقواعد الانضباط الخاصة بتواجدهم بمصر، خصوصًا وأن تواجدهم بها كان مرتبطًا بمهمة عسكرية سرية. باختصار فقد تم ترحيل المسئولين عن هذه المجموعة من ذوي الرتب الكبيرة إلى الاتحاد السوفييتي في ظرف 24 ساعة، أما باقي ضباط الإشارة فقد تمت أيضًا معاقبتهم فنفي ايجور «المرشد السياحي» للمجموعة إلى مدينة قنا حيث كانوا عادة ينفون إلى هناك أيام حكم الملوك المصريين المغضوب عليهم وغير المرغوب في تواجدهم في العاصمة.

كان يتعين عليَّ وفقًا للتعليمات أن أحل مكان ايجور بموقع عمله بمركز الإشارة والمستشفى العسكري السوفييتي بمنشية البكري. تغيرت طبيعة العمل في موقعي الجديد هذا إلى حد كبير. فالآن أصبح معظم المحيطين بي من الضباط والجنود السوفييت وأصبحت أعيش كما كنت أعيش من قبل في مدينة نصر - 4. كنت أتناول طعامي في مطعم ضباط مركز الإشارة حيث كانت تقدم تلك الأطعمة المألوفة بالنسبة لنا مثل شوربة البورش وخبز القمح الأسمر والدجاج وعصيدة الحنطة

السوداء والزبد وغير ذلك من حصص الطعام الأخرى الإضافية. وقد تسبب هذا النوع من التغذية في أنني أصبحت في موقف صعب لا أحسد عليه. إذ أنني أصبت بانسداد جزئي في الأمعاء بسبب كثرة الطعام وبسبب بعض الآثار الجانبية لعملية جراحية أجريت لي في موسكو في عام 1965، مما أدى إلى انسداد الأمعاء كلية. تم نقلي إلى مستشفى سوفييتي ميداني عسكري كان يقع هناك في منشية البكري حيث أجريت لي عملية جراحية عاجلة.

وقد قام بإجراء العملية الجراحية لي الطبيب الجراح بهاء الدينوف الذي تقابلت معه مرة ثانية بعد مرور 25 عاماً عندما حضرت إلى مصر ضمن وفد يضم المحاربين القدماء السوفييت في عامن 1996. وكان قد قال لي حينئذ بعد إجراء العملية أنه إذا كان قد حدث وبقيت في قنا ولو لبضعة أيام أخرى فإن النتيجة كانت ستكون غير حميدة بالمرة. إذن لقد أنقذني صديقي ايجور من أسوأ ما كان من الممكن أن يحدث لي وذلك بنقله إلى قنا كي يحل مكاني هناك.

لا زلت اذكر عملي بمركز الإشارة بكل ما أحمله من مشاعر الحب والاعتزاز. فقد كان عملاً فريداً في نوعه. وكان يتحتم عليَّ أن أتحدث كثيراً جداً مع المصريين بالتليفون. كان الرمز الكودي لمركز الاشارة السوفييتي هو الكلمة الروسية «أموليت» التي تعنى بالعربية «تميمة» أو «تعويذة» وهي تنطق مثل كلمة «عمليات» باللغة العربية وكلمة «عمليات» هي اختصار لتسمية إدارة العمليات بهيئة أركان الحرب العامة للقوات المسلحة المصرية. وهكذا أصبح المصريون يطلقون على السوفييت العاملين بمكتب المستشار العسكري الرئيسي «أموليت». كان هذا بالنسبة لي شيئًا مسليًا وظريفًا وكذلك بالنسبة للمصريين.

وكم أود أن أعبر بأصدق الكلمات الطيبة عن زملائي الذين كانوا يتناوبون معي العمل بمركز الإشارة وهم: كوزمين، ولاجوتين، وكوريوسينكو، وفورونين الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر حضوري إلى العمل. كانوا يقومون بتبليغي عن الأعطال التي تحدث بخط الاتصال، عندئذ كنت اتصل تليفونيًا بعمال الإشارة المصريين كي

أبلغهم بالعطل الذي حدث، بعدها يبدأ عمل مرهق وشاق معهم بهدف تحديد مكان قطع خط الاتصال للعمل مركز الإشارة. وكان الجميع يكنون لي كل ود وتقدير واحترام ويطلقون عليّ جينادي فاسيليفيتش ربما كان هذا الاحترام مرجعه إلى أنهم جميعاً كانوا يعملون أنني خريج جامعة موسكو.

كانت المساحة التي تقع عليها مركز الإشارة تلمع من شدة النظافة وكان الضباط والجنرالات المصريون يطلقون على المكان «المكان الشيك». هنا كانت الظروف والأحوال عادية وطبيعية سواء كانت أحوال الخدمة والعمل أم الأحوال المعيشية. وبدأت فترة راحة نسبية لاسيما بعد إيقاف غارات العمق التي كانت تقوم بها طائرات الفانتوم الإسرائيلية: فأصبحنا نقضي أوقات فراغنا في لعب البلياردو والعزف على الجيتار وغير ذلك من وسائل التسلية والترويح عن النفس من إطلاق للنكات وعمل مقالب مضحكة مع بعضنا البعض وارتفعت الروح المعنوية بين الجنود والضباط.

ولا زلت اذكر بصورة جيدة جداً تلك الزيارة التي قام بها اليكس نيكولا يفيتش كوسجين لمركز الإشارة في عام 1970. فقد وقفنا نحن الضباط بالقرب من المطعم، ثم ظهرت الحاشية المرافقة لكوسيجين وعلى رأسها كبار الرؤساء والقادة والمسئولين. كان يصاحبهم الملازم ميشا كوفا لينكو نائب رئيس مركز الإشارة للشئون الإدارية. دخل الجميع في المطعم. فجأة وعلى حين غرة انفتح باب المطعم بشدة على مصراعيه واندفع ميشا كوفالينكو من خلاله صائحًا: «يا شباب من منهم كوسيجين؟... انفجر الجميع ضاحكين ووصفوا له على وجه السرعة كيف يبدو كوسيجين. بدا سؤال ميش هذا غريبًا إذ أن صور أعضاء المكتب السياسي ومن بينها صورة كوسيجين نفسه كانت معلقة في كل مكان تقريبًا، وكانت هذه الصورة معلقة أيضًا لدينا، وربما أيضًا كانوا يرافقون كوفالينكو خلال جميع مراحل حياته. بعد فترة وجيزة خرج كوسيجين مع مرافقيه من المطعم. خرج أيضًا ميشا مشدوها، مبهوتًا، على شفا الجنون من هول وثقل المسئولية الملقاة على عاتقه. عندئذ قال له

أحد الضباط ناصحًا إياه على سبيل الدعابة: «ميشا. كان يجب عليك إهداء إليكس نيكولا ييفيتش كوسيجين بضعة أرغفة كي يأخذها معه أثناء سفره فإنه سيطير اليوم عائداً ري موسكو». وما أن سمع ميشا ذلك حتى انطلق إلى داخل المطعم وبعد بضعة ثواني فقط لا أكثر خرج من المطعم مهرولاً، مندفعًا كالسهم، حابسًا أنفاسه من شدة الخوف من التأخير، كان يحمل معه عدة أرغفة من الخبز الأبيض ملفوفة في قطعة من الورق وجرى خلف ركن المبنى حيث كان الوفد قد اختفى تمامًا عن الأنظار. لا أدري ما الذي حدث هناك بالضبط، ولكن بعد مرور حوالي 15، أو 20 ثانية ظهر ميشا من خلف ركن المبنى منكس الرأس، مكتئبًا، منقبض النفس حاملاً في يده أرغفة الخبز الأبيض المخصصة من أجل اليكس نيكولا ييفيتش. وهكذا طار كوسيجين عائدًا إلى موسكو دون أن يأخذ معه في رحلته أرغفة الخبز التي أعدها له ميشا.

بالإضافة إلى عملي بمركز الإشارة كنت أقوم بأعمال الترجمة في المستشفي العسكري السوفييتي الذي كان يقع على بعد مائة متر فقط من منزل الرئيس جمال عبد الناصر. كان المستشفى العسكري ومركز الإشارة قد تم إنشاؤهما منذ عهد قريب، لذا فقد كان العمل بهما على أشده: ففي نفسن الوقت وبصورة متوازية كان يتم بناء وتشييد مشاريع جديدة تقوم بإنجازها هيئات إنشائية عسكرية مصرية، كما كان يتم نشر وتوزيع المعدات والتجهيزات بكل من مركز الإشارة والمستشفى العسكري وتشغيلها.

في ذات الوقت بدأ تدفق القوات السوفيتية النظامية التي كانت تلتحم على الفور في معارك القوات السوفيتية النظامية. ففي أثناء إحدى المعارك الغير متكافئة التي دارت رحاها بين أربعة من الطيارين السوفييت واثنتي عشر طائرة طائرة «ميراج» من طائرات العدو استشهد منهم ثلاثة طيارين أما الطيار الرابع فقد قذف نفسه بالمقعد المقذوف وتمكن من الهبوط على الأرض بسلام وكسرت ساقه في هذه الحادثة.

لن تمحى من ذاكرتي ما حييت تلك الصورة عندما ذهبت بمرافقة مدير المستشفي العسكري لتوصيل جثث الجنود السوفييت إلى المشرحة بالقاهرة. كان هؤلاء الجنود السوفييت قد احترقوا في مركز قيادة كتيبة الصواريخ نتيجة السقوط المباشر لأحد الصواريخ الإسرائيلية.

كانوا ثمانية شبان تتراوح أعمارهم ما بين التاسعة عشر والعشرين، وكان من بينهم شابان توأمان. كانوا وهم متفحمين يبدون جميعًا كالتوأم. كان الملازم سومين قائد الطاقم هو الوحيد من بينهم الذي لم يحترق وإنما أصيب بشظايا الصاروخ الإسرائيلي المنفجر. كان من الواضح أنه لحظة سقوط الصاروخ كان يقف رافعًا يده كي يعطي أوامره بإطلاق صاروخ مضاد، لكنه استشهد وهو في هذا الوضع وتجمدت يده الميتة المرفوعة ولم نتمكن من فردها بأي حال من الأحوال. ووجدنا صعوبة بالغة في إدخاله في مكان حفظ الموتى الضيق بالمشرحة، مما اضطررنا معه في نهاية الأمر إلى إدخال جثة الملازم في مكان حفظ الموتى مع غلقه وبقاء يده الميتة المتجمدة المرفوعة خارجة منه.

طبقًا لحساباتي وتقديراتي فقد وصل عدد الجنود والضباط السوفييت الذين استشهدوا أثناء العمليات العسكرية في مصر خلال عامي 1969 - 1970ن من 40 30 - فرداً من الجنود والضباط السوفييت. نصفهم تقريبًا كان يعمل بجهاز المستشارين العسكريين، أما النصف الآخر فكان من بين أفراد القوات النظامية السوفيتية التي حضرت إلى مصر وفقًا لعملية عسكرية خاصة وضعت خطتها لإيقاف غارات العمق الإسرائيلية كانت تحمل اسمًا كوديًا «القوقاز».

كان عمل المترجم متنوعًا إلى حد كبير ولم يكن مقتصراً فقط على أعمال الترجمة وحدها. فلقد كانت هناك أعمال تدخل في نطاق الترجمة وأعمال أخرى لا تدخل في نطاقها، لكنني اعتقد أنها كلها كانت متقاربة ولم يكن الفرق بينها كبيراً، علاوة على ذلك فالمترجم مكلف بأداء أية أعمال أخرى توكل إليه.

لا اتذكر على وجه الدقة إن كانت هذه الواقعة التي سأذكرها هنا مرتبطة بحضور القائد العام للقوات الجوية السوفيتية المارشال كوتاخوف إلى القاهرة أم بحضور القائد الأعلى لقوات الدفاع الجوي السوفييتي المارشال باتيتسكي. كانت مباحثات المارشال مع الجانب المصري معقدة للغاية. بعد الانتهاء من المباحثات قام المصريون بتنظيم حفل استقبال بنادي الصيد بالهرم. جلس المارشال مقطب الجبين، عابس الوجه، مكتئبًا لدرجة أن الرقص الشرقي الذي كانت تؤديه واحدة من أحسن الراقصاتْ المصريات لم يحسن من حالته المزاجية. فجأة وعلى حين غرة اقتربتبت مني الراقصة عندما سمعتني أتحدث مع الجنرالات المصريين باللغة العربية وأوقفتني ثم راحت تفك رباط عنقي، لكنها لم تتمكن من فعل ذلك على وجه السرعة. وأخيراً شدت عقدة ربطة عنقي لدرجة لم تستطع معها فكها. أدى هذا إلى بعث السرور في نفوس الضيوف العسكريين الذين كانوا يجلسون حول موائد موضوعة على شكل حرف «ب» في اللغة الروسية خصوصًا بعد تناولهم الويسكي. لكن بالرغم من كل ذلك فقد ظل المارشال كسابق عهده مكفهر الوجه، مكتئبًا.

استمر عزف الموسيقى الشرقية في حين طلبت مني الراقصة أن أشاركها الرقص وهي تهز وسطها. أما أنا فقد وقفت متجمداً في مكاني من شدة الخجل ومن الموقف المحرج الذي وجدت نفسي فيه فجأة وبلا مقدمات، رفضت مشاركة الراقصة في حركاتها. لم أجد أمامي مخرجًا من هذا الموقف الذي لا يحسد عليه أحد. حاولت أن أقلد الراقصة في حركاتها متمشيًا مع الموسيقى، بينما أخذت هي تشجعني بانحناءات من رأسها وأخذت في زيادة سرعة الرقص. حاولت جاهداً أن أؤدي حركات الرقص الشرقي بمصاحبة تصفيق الحاضرين. استمرت حركات الرقص هذه لعدة دقائق خيل إليّ أنها دهراً بأكمله. انفجر الجنرالات المصريون والسوفييت في الضحك، بينما انفجرت أخيراً أسارير المارشال. قمت مع الراقصة بتنفيذ المهمة على أكمل وجه.

في أحيان كثيرة كنا نقوم بالترجمة التحريرية. كما قلت مسبقًا فقد كان يوجد مكتب ترجمة في الإدارة التابعة لكبير المستشارين السوفييت التي كان يرأسها بعد وصولي مباشرة إلى مصر المقدم السوفييتي جيورجي ريئوتسكي من مدينة أوديسا. بعد مرور فترة زمنية أصبح العقيد كفاسوك من موسكو كبيراً للمترجمين لا أعرف السبب في أن معظم المترجمين السوفييت الذين كانوا يعملون في مكتب الترجمة كانوا من مترجمي اللغة الإنجليزية. كانوا يترجمون شفهيًا ولكن نادراً جداً. كان عملهم الرئيسي ينحصر في الترجمة التحريرية لبعض مقالات صحيفة «أيجيبسيان جازيت» ذات الأهمية الإعلامية الخاصة. كانت هذه المقالات تجمع وتستخدم في عمل نشرات إخبارية توزع بين القيادات السوفيتية بمصر. وعلى أساس هذه المقالات كان المترجمون يعملون نشرات إخبارية يقرأونها كل صباح أمام موظفي هيئة أركان حرب كبير المستشارين السوفييت. وكنت كثيراً ما اشترك معهم في هذا العمل.

كان يوجد هناك مترجمون آخرون في هيئة أركان الحرب من بينهم: أوليج كولموجوروف الذي كان يترجم من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الروسية وبالعكس لنائب كبير المستشارين السوفييت جنرال شيشيموروف، والمستعرب شامل ميسيرياشايف الذي كان مترجمًا لنائب كبير المستشارين للشئون السياسية الجنرال شوكين، والمستعرب يوري شيفتسوف الذي كان مترجمًا لنائب كبير المستشارين للشئون العامة جنرال نيريتين، والمستعرب نيكولاي لوكاشونوك الذي كان مترجمًا لرئيس هيئة أركان الحرب جنرال جاريبف. كان عمل هؤلاء المترجمين لدى رؤسائهم الجنرات كثيراً، والمناصرين لهم كانوا كذلك من أصحاب الرتب العليا الرفيعة، لهذا السبب فكثيراً ما كان كفاسيوك يرسل لمركز الإشارة في طلبي إذا ما كانت هناك حاجة ملحة للترجمة باللغة العربية.

وهنا تحضرني حادثتان مرتبطتان بوصول الرئيس المصري أنور السادات للحكم.

في اليوم الأول أو ربما الثاني من شهر مايو عام 1971 قام أنور السادات قبل إنتخابه رئيسًا للجمهورية بصفة رسمية بالقاء خطاب عيد العمالْ بمجمع الحديد والصلب بحلوان كما كان ذلك معتاداً من جانب الرئيس جمال عبد الناصر. لاحظ المراقبون تغيب السيد/ علي صبري من بين كبار رجال الدولة الحاضرين في الاحتفال. وكما هو معروف كان علي صبري يحتل مكانة هامة بين الناصريين اليساريين وكان حلقة الوصل بين موسكو والقاهرة.

عرفت بعد ذلك أن السفير السوفييتي في القاهرة فلاديمير فينوجراد قدْ أرسل مترجمه الخاص إلى منزل علي صبري، حيث اكتشف المترجم أن علي صبري كان موضوعًا تحت الحراسة في منزله. وبتاريخ 13 مايو عامن 1971 بدأ أنور السادات «حركة التصحيح»، حيث أزاح بمهارة تامة من طريقه جميع كبار رجال الدولة والساسة البارزين المناوئين له. في ذلك الوقت استدعاني محمود جارييف رئيس أركان حرب كبير المستشارين السوفييت الذي كان معروفًا بنشاطه وحماسه ومبادرته وكلفني بمهمة ألا وهي: تغيير ملابسي العسكرية وارتداء ملابس مدنية بدلاً منها ثم التوجه بعد ذلك إلى الأحياء الشعبية بالقاهرة لمراقبة وتتبع ـ على حد قوله ـ مظاهرات الاحتجاج الشعبية ضد أنور السادات، ومعرفة الشعارات التي يرفعها المتظاهرون، والتصنت على ما يقوله أفراد الشعب المصري.

توجهت من فوري إلى حي العتبة، ذلك الحي الشعبي الذي كثيراً ما كنا ونحن طلبة نجوبه ونتمشى به، أخذت أسير هناك وأراقب ما يحدث حولي واتصنت على ما يقوله عامة الناس. كنت حائراً مشوش الفكر وقد إحمرٌ وجهي من شدة الخجل. كان يخيل إليّ أن الجميع حولي يعرفون كنه المهمة التي حضرت من أجلها. كان الوضع مستتبًا والأمور تجري في مجراها الطبيعي كالمعتاد وقد سارت حركة البيع والشراء بصورة طبيعية. رحت انظر إلى أنواع البضائع والأقمشة المختلفة. لم تكن هناك أية مظاهرات احتجاج ولا أية شعارات. وعندما عدت أدراجي إلى منشية البكري أبلغت الجنرال جارييف بأنني لم الحظ أية أحداث غير عادية في حياة

الناس في القاهرة. ابتسم الجنرال وأخلى سبيلي فذهبت إلى مركز الإشارة.

أما الحادثة الثانية فد كانت مرتبطة أيضًا بالجنرال جاريبف والرئيس أنور السادات.

فبعد قيام الرئيس المصري المقبل أنور السادات بإقصاء وإزاحة كبار رجال الدولة والسياسيين المعارضين له المتهمين بتكوين ما يسمى «بمراكز القوى»، أخذ في تنظيم العديد من اللقاءات مع العمال والمثقفين وطلبة وأساتذة الجامعة وكذلك مع أفراد القوات المسلحة. كانت خطبه التي يلقيها والتي كانت تستمر من ساعتين إلى ثلاث ساعات تتميز بالهدوء تارة وبالانفعال والاحتدام تارة أخرى.

وبما أن الوضع في مصر في تلك الحقبة التي كان يتم فيها القبض على الناصريين اليساريين والزج بهم في السجون والمعتقلات لم يكن مستقراً تمامًا، فقد قرر الجنرال جاريبف ـ كما يبدو ـ أنه لابد من ترجمة خطب أنور السادات. وقد وقع اختياره لأداء هذه المهمة عليَّ أنا شخصيًا. من أجل ذلك كان يتم إحضار جهاز راديو إلى مكتب الترجمة وفي أثناء إذاعة خطاب أنور السادات كنت أقوم بالترجمة الفورية لكل كلمة يقولها. وكنت أبذل قصارى جهدي في نقل خطابه باللغة الروسية.

كان زملائي المترجمون يقومون على الفور بتصحيح وتحرير ما كنت أقوم بترجمته. بعد ذلك يقوم الجندي المراسلة بتوصيل الترجمة المصححة ورقة بعد أخرى إلى الطابق الثاني حيث يوجد قسم الكتابة على الآلة الكاتبة. كان كل ذلك يتم بسرعة رهيبة بحيث تكون الترجمة معدة وجاهزة تمامًا باللغة الروسية بعد حوالي 30 دقيقة فقط من إذاعة الخطبة عن طريق الراديو. يتم بعد ذلك نقل الترجمة بواسطة سيارة كانت تقف دائمًا على أهبة الاستعداد في فناء الإدارة. كانت السيارة تسير بسرعة البرق وتنهب الأرض نهبًا عن طريق شارع صلاح سالم حيث كان هذا الشارع يخلو دائمًا من المارة متوجهة إلى السفارة السوفيتية بالجيزة. اعتقد أنه على الرغم من أن السفارة السوفيتية كان لديها عدداً كافيًا من

المترجمين والاستعداد التام للترجمة في أية لحظة، إلا أنها لا يمكن أن تكون منافسًا مساويًا للجنرال جاربيف بما يتمتع به من نشاط وحماس وإصرار زائدين عن الحد.

كان نتيجة لكل ذلك أن نجح الجنرال محمود أحمد وفيتش جاربيف في أن يصل إلى أعلى وأرقى المناصب: تولى مناصب قيادية متقدمة في هيئة أركان حرب القوات المسلحة السوفيتية كما أصبح كبيراً للمستشارين العسكريين السوفييت أثناء الحرب في أفغانستان. ويشغل في الوقت الحالي عدداً من الوظائف العسكرية السوفييت أثناء الحرب في أفغانستان. ويشغل في الوقت الحالي عدداً من الوظائف العسكرية العليا في روسيا الاتحادية بما في ذلك منصب رئيس الأكاديمية العسكرية الروسية.

استمرت عملية الترجمة الفورية ـ التحريرية لخطب الرئيس أنور السادات مدة طويلة جداً حتى أخذ مني الضيق كل مأخذ. فقد كانوا يستدعونني في أي وقت وأي يوم. حتى أنهم قد استدعوني ذات مرة في يوم الجمعة ـ يوم أجازتي الرسمية. في ذلك اليوم وجدوني في زيارة المستشار فيكتور ستوبين. كانت زوجته نيللا سيرجييفنا قد أعدت لي غذائًا فخمًا بالنسبة لإنسان عازب مثلي مكونًا من لحمة روستو في الفرن. أخبرني الجندي ـ المراسلة بأنني يجب أن أذهب على وجه السرعة إلى منشية البكري للترجمة حيث أنه كان من المتوقع أن يقوم أنور السادات بإلقاء إحدى خطبه. رفضت بشدة الذهاب مع الجندي. عندما سمع ستوبين هذا الحديث بيني وبين الجندي هز رأسه قائلاً لي: «كان من الواجب عليك أن تتصرف بطريقة أخرى بأن تقول للجندي أن يبلغ الإدارة بأنه لم يتم العثور عليك بما أن اليوم كان يوم إجازتك.

تأكدت تمامًا في اليوم التالي من صحة كلام ستوبين... هذا الرجل الحكيم ـ فما كدت أصل إلى مركز الإشارة حتى أخبروني بتوقيع العقاب عليَّ بالسجن لمدة 15يوماً. تم نزع الحزام الذي كنت أرتديه تحسباً لقيامي بأي عمل متهور

قد يودي بحياتي. لكنهم لم يقوموا بوضعي في السجن مباشرة فقد كان من الواضح أنهم ينتظرون شيئًا ما. علمت فيما بعد أن السبب في تباطئهم في وضعي بالسجن كان تلك المحاولات المستميتة التي كان يبذلها نائب رئيس مركز الإشارة للشئون المعنوية أوليج شوجل لرفع عقوبة السجن عني. كان دفاع أوليج شوجل عني مبنيًا على الآتي: أن الملازم أول جينادي جارياتشكين يقوم بعمله على الوجه الأكمل. ولا توجد ضده أية ملاحظات علي أداء واجبات عمله الأساسية في مركز الإشارة، حيث يتمتع بحب واحترام وتقدير جميع زملائه العاملين معه بالمركز. وقد ارهقه كبير المترجمين كفاسيوك باستدعاءاته المتكررة اللانهائية إلى مكتب الترجمة كي يقوم بأعمال ترجمة لا تدخل في نطاق عمله المنوط به. لقد حان الوقت للدفاع عنه وليس لإنزال العقاب به. كان لهذا الإصرار من جانب أوليج شوجل على رفع عقوبة السجن عني أثر كبير على المقدم/ راسكازوف - الرئيس الجديد لمركز الإشارة الذي كان من أبرز صفاته ضعف الشخصية والتردد.

بالنسبة للمترجم الأجنبي أو أي زائر أجنبي في أي بلد، فأهم مشكلة تواجهه هي لا شك مشكلة ملء وقضاء وقت الفراغ. هذه المشكلة تكون أكثر حدة بالنسبة للأجانب الذين لا يعرفون لغة البلد الذي يقيمون فيه والكسالى منهم وكذلك غير القادرين على قضاء أوقات فراغهم بالصورة المثلى. لكن هذه المشكلة لم تواجهني قط على وجه الإطلاق، نظراً لأنني كنت قبل مغادرتي من الاتحاد السوفييتي متوجهًا إلى مصر قد اتفقت مع قسم تاريخ بلدان الشرقين الأدني والأوسط ومع مشرفة بحث التخرج العلمي بجامعة موسكو الأستاذة الدكتورة فريدة أتسمبا أنني بعد انتهاء خدمتي بالجيش السوفييتي بمصر سألتحق بالدراسات العليا وبأنني سأقوم - بقدر الإمكان - بأداء امتحانات الدراسات العليا خلال فترة أجازتي السنوية. كان من الضروري أن أجمع المواد العلمية اللازمة لكتابة رسالتي العلمية أثناء تواجدي بمصر. كان لي ارتباطات وعلاقات شخصية كثيرة منذ فترة دراستي بكلية الآداب بجامعة القاهرة وكنت أعرف مصادر الحصول على المراجع والمصادر العلمية اللازمة لذلك.

كان من الطبيـعي خطورة استـئناف هذه العـلاقات الشـخصـيـة مرة أخرى في ظروف عملي كمترجم عسكري. إذ من الممكن أن تفهم هذه العلاقات الشخصية كخرق للقوانين العسكرية وكمحاولة لتسريب الأسرار العسكرية. وقد كانوا في موسكو يحذروننا من مثل هذه العلاقات الشخصية مراراً. لذلك كنت أتصرف طبقًا للموقف.

كنت احتفظ بمكتبي في مركز الإشارة بملابس مدنية ارتديها عندما أريد الذهاب إلى مكان ما. كنت استأجرت تاكسيًا وأتوجه إلى وسط القاهرة وهناك أستأجر تاكسيًا آخر أعود به مرة أخرى إلى مصر الجديدة ماراً بإدارة كبير المستشارين العسكريين السوفييت واطلب من سائق التاكسي أن يتوقف عند سينما روكسي أو عند ثالث مبنى خلف السينما وهو مبنى معهد الدراسات الاشتراكية التابع للاتحاد الإشتراكي العربي. كانت توجد به مكتبة كبيرة نسبيًا، وهناك في قاعة المطالعة المكيفة كنت أجلس للقراءة لبعض الوقت. كنت أعيد الكتب التي استعرتها من قبل كي استعير دفعة جديدة أخرى بعد أسبوع أو أسبوعين. ثم بعد ذلك أعود إلى مكان عملي سيراً على الأقدام نظراً لقرب المسافة بين مقر عملي ومعهد الدراسات الاشتراكية ماراً بمنزل الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان يوجد عند مدخله مدافع صغيرة من العصر العثماني، بينما يقف عند المدخل الحرس الجمهوري الذي يتكون من جنود فارعي الطول من ذوي الطلعة الحسنة والبشرة السمراء والأسنان البيضاء.

كان أكثر ما يهمني هو جمع البيانات الإحصائية ومذكرات معهد التخطيط القومي التي وجهني للحصول عليها أساتذة جامعة موسكو. كانت مذكرات معهد التخطيط القومي تحوي بحوثًا ودراسات علمية ذات قيمة كبيرة عن التركيبة الديموجرافية والاجتماعية لسكان مصر وعن أحوالهم الاقتصادية، كما كانت تشتمل أيضًا على دراسات ميدانية. هذه المواد العلمية القيّمة كنت اجمعها أيضًا أثناء فترة تدريبي عندما كنت طالبًا بجامعة القاهرة. وحينما كانوا يسألونني عن مكان عملي كنت أجيب عادة أنني موظف بالسفارة السوفيتية بالقاهرة.

كنت أذهب أيضًا إلى السفارة السوفيتية. هناك كنت لا أخفي حقيقة عملي كمترجم عسكري. كان يعمل هناك أحد الخريجين من معهد اللغات الشرقية الذي كنت أدرس به في موسكو. كنت كثيراً ما أتقابل معه هو وزوجته في الفيلا المخصصة لاستراحة المدنيين السوفييت التي كانت تقع في شارع ويل كوكس بالزمالك. كنت أذهب إلى هناك مرات كثيرة لأشرب بيرة ستللا وآكل الكباب، وأتقابل مع المواطنين السوفييت كي نتجاذب أطراف الحديث في جو من الود والسلام. بدا لي هذا الوضع غريبًا بعض الشئ. فبينما كان من الممكن التمتع بالحياة وممارسة الرياضة مثل لعب الكرة الطائرة والعيش في سلام وهدوء في حي الزمالك ومعرفة ما يجري من أحداث فقط عن طريق الجرائد والمجلات ومن أحاديث الآخرين، كان هناك من يتعرض لخطر الحرب والاستشهاد أثناء شن غارات العمق. لقد كنت أدرس أنا وصديقي هذا في معهد واحد وسنة دراسية واحدة وفي مجموعة واحدة وبالرغم من ذلك فإن مصير كل منا اختلف كثيراً عن الآخر.

كما ذكرت آنفا فقد أدى قيامي بجمع المواد العلمية اللازمة لكتابة رسالة الدكتوراة الخاصة بي إلى تنويع نمط حياتي في مصر. ولا أنكر هنا أن المصريين كان لديهم الفضل الأكبر في جمع هذه المواد العلمية، فعلاقتهم بالمستعربين كانت تتسم بالحب والدفء. لاسيما أفراد الحراسة لا زلت أذكر ذلك العريف المصري ذا الشعر الأحمر الذي كان يعيش في حي الروضة. كان شخصًا مرحًا يجيد فن إلقاء النكت والفكاهات. فعند وفاة الرئيس جمال عبد الناصر حضر إلى مصر رئيس الوزراء السوفييتي اليكس كوسيجين للاشتراك في مراسم تشييع جنازته. وما كاد كوسيجين يترك القاهرة عائداً إلى موسكو بعد إنهاء مراسم تشييع الجنازة حتى قص عليَّ ذلك العريف النكتة اللاذعة التالية: يحضر اليكس كوسيجين إلى مصر للاشتراك في جنازة الرئيس جمال عبد الناصر ويسأل كوسيجين أنور السادات نائب الرئيس المرحوم: «هل قال لك جمال عبد الناصر شيئًا ما قبل رحيله؟» فأجابه أنور السادات بالنفي. يتوجه كوسيجين بنفس السؤال إلى أحد كبار رجال الدولة الآخرين، ثم إلى الثالث فيتلقى نفس الإجابة بالنفي، عندئذ صاح كوسيجين قائلاً:

«إذن من سيعيد إليَّ نقودي؟...».

كان العريف رجب يسجل لي أول كل شهر أسعار السلع الاستهلاكية الضرورية بما في ذلك أسعار المواد الغذائية. استمر ذلك على مدى عام 1970 بأكمله. كان يقوم بنفس هذا العمل مصريان آخران هما صاحب أقرب محل بقالة وعامل النظافة في الفندق الذي كنا نقيم فيه، اللذان كانا يسكنان في أحياء أخرى في القاهرة. سجلت أنا بنفسي هذه الأسعار بمدينة نصر. كان الكشف الذي كنت أسجله يضم ما يقرب من خمسين نوعًا من البضائع. كانت هذه البيانات ضرورية ولازمة بالنسْبة لي حتى يمكنني عمل مقارنة بين الأسعار الرسمية التي كان يصدر بها بيان من إدارة خاصة بالاتحاد الاشتراكي العربي والتي كانت تطبق في القطاع العام الحكومي وبين الأسعار الأخرى التي كانت تباع بها نفس هذه البضائع في القطاع الخاص.

كانت الحكومة المصرية ترسل سنويًا بيانًا بهذه الأسعار إلى منظمة العمل الدولية في جينيف، التي كانت تقوم بدورها بإصدار كتاب سنوي يضم بين بياناته المختلفة الأسعار المشار إليها آنفًا.

بمقارنة الأسعار المدونة بكتاب منظمة الدولية وأسعار نفس هذه البضائع في أسواق القاهرة لاحظت وجود فروق كبيرة في الأسعار تصل إلى ما بين من 15 - 20٪، لذلك توصلت إلى النتيجة التالية: وهي أن أهالي القاهرة يدفعون في شراء البضائع الاستهلاكية 5/1 تكلفتها.

فيما بعد استخدمت نتائج هذا البحث الميداني الي قمت به في كتابة رسالة الدكتوراة بهدف حساب الأجور الفعلية والحد الأدنى للمعيشة للعمال المصريين.

في أوقات فراغي كنت استعد لأداء الامتحانات الخاصة بالالتحاق بالدراسات العليا بجامعة موسكو في التاريخ والفلسفة واللغة العربية الفصحى. ولكي لا أنسى قواعد اللغة العربية الفصحى كنت أداوم على قراءة مختلف المقالات بالصحف والمجلات المصرية مع قيامي بتشكيل نهاية الكلمات حسب موقعها

من الإعراب.

أديت امتحانات الالتحاق بالدراسات العليا بنجاح في صيف عام 1970.

وهكذا مر عامان.

❋ ❋ ❋ ❋

# خـاتمـة

طويت صفحة أخرى من صفحات حياتي قضيتها في العمل كمترجم عسكري سوفييتي في الجيش المصري. لقد مر على ذلك ما يزيد على الثلاثين عامًا.

اعتبر هذه الفترة من حياتي التي سردت أحداثها مرحلة طبيعية من مراحل حياتي كمواطن سوفييتي يخضع لقوانين بلده، أدى الخدمة العسكرية التي كلف بها، وكمستعرب درست بالجامعة دورة في مجال الترجمة العسكرية استخدمتها خلال عملي في فترة زمنية تعد أكبر محنة وأصعب اختبار يمر به إنسان - ألا وهي فترة الحرب.

وكغيري من زملائي ورفاقي الذين يزيد عددهم على الألف فرد هم في الوقت الحالي أعضاء جمعية المحاربين القدماء الذين حاربوا في مصر، التي يقع مقرها بموسكو ويرأسها بطل الاتحاد السوفييتي العقيد كونستنتين بوبوف (وهو أول من قام بإسقاط طائرة فانتوم عسكرية إسرائيلية)، حقيقة أنا غير آسف على تلك المرحلة من حياتي، لأنني قد نفذت الأوامر الصادرة إليَّ من القيادة العسكرية السوفيتية العليا. وقد نلت «نوط الواجب العسكري من الدرجة الأولى»، مما أفخر به. كما أنني فخور جداً لأنني ساعدت الشعب المصري في أحلك وأصعب أوقاته... ساعدت ذلك البلد الذي كرست حياتي وجهدي كمستعرب من أجل دراسته.

**أ.د/ جينادي جارياتشكين**

الساحل الشمالي صيف ٢٠٠٣

❄❄❄❄

# السيـرة الذاتيـة

ولدت بمنطقة سيبيريا الشرقية بالاتحاد السوفييتي في عام 1945. التحقت في عـام 1963بمعهد اللغات الشرقية (حاليًا يعرف باسم معهد بلدان آسيا وأفريقيا) التابع لجامعة موسكو المسماه باسم العالم الروسي لومونوسوف، تخصص «اللغة العربيـة وتاريخ البلدان العربية». خلال العام الدراسي 1967 - 1968 قضيت فترة تدريبية بقسم التاريخ بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة. في عام 1969 أنـهـيـت دراستي بجامعة موسكو، في نفس هذا العام استدعيت لأداء الخدمة العسكرية في الجيش السوفييتي، حيث تم إيفادي إلى مصر للعمل كمترجم عسكري. بعد انتهاء مدة خدمتي العسكرية وهي سنتين عدت إلى جامعة موسكو حيث أنهيت دراستي العليا وحصلت على درجة الدكتوراة عن موضوع: «تكون طبقة البلوريتاريا بالمعامل والمصانع بجمهورية مصر العربية والوضع المادي لها (في السنوات من عام 1952 وحتى عام 1970)». تم تعييني أستاذاً لتاريخ البلدان العربية الحديث والمعاصر بقسم تاريخ بلدان الشرقين الأدنى والأوسط بمعهد بلدان آسيا وأفريقيا التابع لجامعة موسكو. في عام 1996 دافعت عن أطروحتي للحصول على دكتوراة الدولة (بروفيسور) بنفس القسم. في عام 1998 تم إنتخابي نائب رئيس جمعية أصدقاء مصر في روسيا، التي كانت تسمى في السابق «جمعية الصداقة السوفيتية ـ المصرية».

حضرت إلى مصر مرات عديدة: رافقت طلاب جامعة موسكو الوافدين إلى مصر للتدريب اللغوي بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة، اشتركت في العديد من

الندوات والمؤتمرات العلميـة والسيـاسيـة والاجتمـاعيـة. مؤلف حوالي عـشرة كتب كرس معظمها لتاريخ وثقافة مصر. تمت ترجمة مؤلفاتي والأخيرة إلى اللغة العربية: «الأقليات الأجنبية في مصر»، «روسيا ومصر في ضوء الأرشيفات الروسية»، «بحثًا عن الذهب».

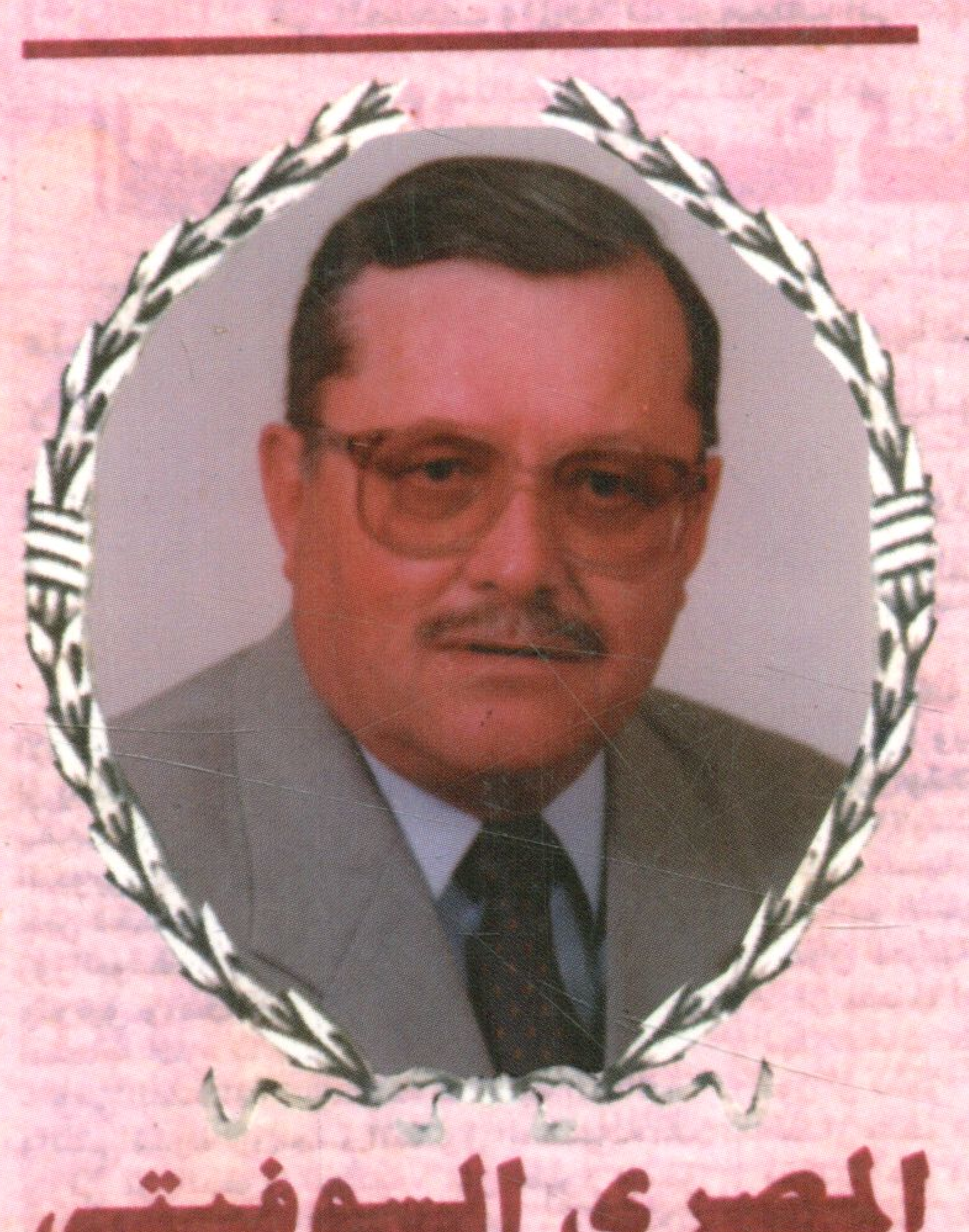
في الوقت الحالي يتم إعداد بعض مؤلفاتي باللغة العربية.

أعمل في الفترة من يوليه 2000 حتى الوقت الحالي مديراً للمركز الروسي للعلوم والثقافة ونائباً لقنصل روسيا الاتحادية بالإسكندرية.

❋ ❋ ❋ ❋





# المصرى السوفيتى

حين تمتزج الانتماءات، وتتضافر الثقافات، ويراوح العقل المسافات الجغرافية بين عالمين كالبندول.. هذا بلدى الذى أنجبنى.. وذاك البلد الذى عشته.. هذا انشأنى.. وذاك ألهمنى.. إذا كنت «هناك» فإن قلبى معلق بـ «هنا».. وإذا كنت «هنا» فإن روحى «هناك».. حين تكون أمام تلك الحالة من التقاطعات.. أى البلدين يكون وطنك؟ «جينادى جاريا تشكين» وجد أخيرا حلا لهذه المعضلة.. ولخص حالته الخاصة، واعتبر مصر وطنه الروحى.

المستشرق السوفيتى المعروف «جينادى جارياتشكين»، المولود فى العام ١٩٤٥، فى سيبيريا الشرقية، واحد من الذين عشقوا مصر.. فى البداية عن غير عمد.. وفيما بعد عن قصد وترصد.. شغف بها.. وولع بشعبها.. وظل يتردد عليها ويكتب عنها.. ويبحث فى مضمون ثقافتها.. منذ درس بها.. وبعد أن تخصص كأستاذ للتاريخ العربى الحديث والمعاصر، فى معهد دراسات آسيا وأفريقيا بجامعة موسكو.

المستشرق السوفيتى جاريا تشكين، الذى وضع سبعة كتب مهمة عن تاريخ مصر والعالم العربى، مستشرق من نوع مختلف تماما، لا يكتب عن «أمة» لم يرها أو ثقافة تعامل معها قشريا، ولا هو صاحب رؤية عدائية، كما أنه لم يتبن رؤية مجاملة، ولا هو ارتكب الخطيئة المتكررة فى دراسات الاستشراق.. حين يقرر البعض أن ينقلوا إلى الأمم الأخرى عن أمم غيرها دون أن يعرفوها أو يفهموها.. فلا هم خدموا من رأوا فيهم رسلا للثقافة.. ولا هم عبروا عن الآخرين بطريقة موضوعية.

جينادى جاريا تشكين، الذى بلغ من تعمقه فى الثقافة العربية أن يكتب بقلم أديب يحسده عليه كثير من أبناء اللغة نفسها، تعلم فى موسكو.. ودرس فى مصر.. واختزن فى داخله تجارب متنوعة من معايشاته هنا.. ومن معاشرته لأهلها.. ويكتب كثيرا عن الفترة التى قضاها فى الترجمة بين الخبراء العسكريين السوفييت ونظرائهم المصريين.. وفى هذا يقول: «الضباط المصريون مثل بقية الشعب المصرى.. يتمتعون بخفة الدم وروح الفكاهة».

جينادى جارياتشكين، الذى تركزت أبحاثه العربية عن مصر وصارت مقصد اهتمامه طيلة حياته، من بين كل ال[illegible] رغم أنه عاش فى بعضها.. وبحث فى ثقافتها، يت[illegible] باعتبارها «بلدى».. وعن ناسها باعتبارهم «أهلى» [illegible] الدكتوراه من خلال دراسة عن الطبقة العاملة المص[illegible] الحالى للمركز الروسى للعلوم والثقافة بالإس[illegible] مستعرب مرموق.. ومستشرق له إنجاز علمى مبه[illegible] دور مثير للاهتمام فى التقريب بين الثقافات.. لذل[illegible] غيره نحن نقدم له وسام الاحترام.■

«روزال[illegible]

روز اليوسف - من ٢٠:٢٦/٦/٢٠٠٢